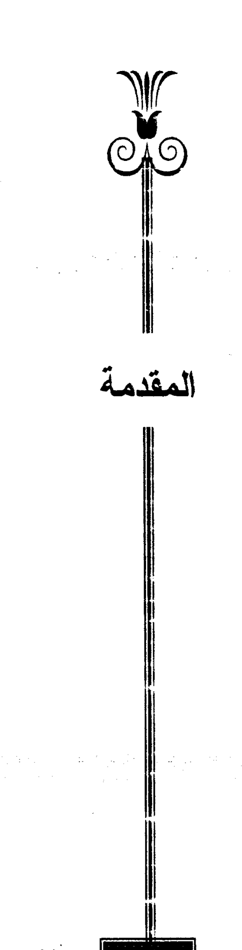
في العقيدة الإسلامية

مدخل ودراسة

د.أحمد فوشقي عبد الرحيم
كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

الناشر
دار الهانى للطباعة والنشر
١٤٢٥هـ –٢٠٠٤م



المقدمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ، وبعد :-

فهذه محاضرات في علم العقيدة ، أهم العلوم وأعظمها ، وأساسها وأوجبها ومفتاح دعوة الأنبياء ولب رسالتهم ، ومحط اهتمامهم الأول ومنشأ الخلاف بينهم وبين أممهم ، وهو أحق العلوم وأجدرها بأن يوصف بكونه أشرف العلوم ، لأن شرف العلم تابع لشرف المعلوم ، والمعلوم في العقيدة هو رب العالمين وأسماؤه وصفاته ، وحاجة العباد إليه فوق كل حاجة ، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة ٠

ولا شك أن العقيدة تعد بمثابة قطب الرحى ، والركن الركين الذي تتشكل على ضوئه سائر أفكار المسلم وتصوراته وقيمه ، كما أنها المحرك الأساسي الذي تنبثق عنه سائر أفعاله وسلوكياته ، ومن الواجب أن تكون حقائق العقيدة وثوابتها هي الموجه الأول لفكر المسلم ، والضابط لحركته ومساراته ، والمحك الذي تحاكم إليه وتوزن به سائر أحكامه وآرائه عن شتى جوانب الحياة ٠

كذلك فإن العقيدة هي المدخل الأول والأهم لتغيير سلوك الناس أفرادا ومجتمعات ، والنهوض بواقع المسلمين البئيس ، والأخذ بأيديهم إلى طريق العزة والسعادة في الدنيا والآخرة ، مما يجعلنا نجزم بأن أية محاولة لإصلاح الفرد المسلم اليوم – كنواة لتغيير واقع المجتمع والأمة بأسرها – ليس بوسعها أن تنشأ ابتداء ، أو تؤتي ثمارها المرجوة منها إلا إذا انطلقت من ميدان الإصلاح العقدي ، وعنيت بترسيخ حقائق العقيدة في القلوب والعقول ، تماما مثلما كان عليه الحال في دعوة سائر الرسل ،

ولا سيما نبينا (ﷺ) ، والذي بدأ دعوته بالتوحيد ، وإفراد الله بالعبادة ، والكفر بكل ما يعبد من دونه ، وتعريف الخلق بربهم وأسمائه وصفاته ، واستمر صلى الله عليه وسلم يؤكد على هذا الأمر بالقول والفعل في العهدين المكي والمدني ، حتى أنشأ جيلا جديدا صلب المراس ، تحمل مسئولية هذا الدين ، وأمانة تبليغه إلى المشارق والمغارب .

وثمة قناعات راسخة يؤمن بها كاتب هذه السطور ، ومنها أن الإصلاح العقدي يجب أن يقدم على كل ما سواه من جوانب الإصلاح الأخرى ، وأنه قبل أن يتحقق ذلك الإصلاح عمليا في قلوب الناس وعقولهم ، فلابد أن يتحقق أولا على المستوى النظري ، أي في الكتب التي تعرض العقيدة ، وفي عقول الدعاة والمعلمين الذي يقدمونها ، كما أن الإصلاح المشار إليه يستلزم معرفة العقائد الصحيحة الثابتة كما جاء بها الوحي ، وتصفية العقيدة من كل ما شابها من خلط أو تشويش أو سوء فهم على مر العصور ، ثم عرضها بأسلوب سهل يسير ينطلق من الكتاب والسنة ويهتدي بنورهما .

المؤلف

أحمد فوقي عبد الرحيم



القسم الأول

مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية

ويشتمل على ما يلى : -

أولا :مفهوم العقيدة لغة واصطلاحا

ثانيا : أهمية العقيدة وآثارها في حياة الفرد والمجتمع

ثالثا : خصائص العقيدة الإسلامية

رابعا : حقائق العقيدة بين الثبات والتطور

أولا : مفهوم العقيدة

١- مفهومها لغة :

العقيدة من حيث الاشتقاق اللغوي على وزن فعيلة بمعنى مفعولة ، أي معقودة، وقد ذكرت المعاجم اللغوية استعمالات ومعاني متعددة لمادة " عقد " التي اشتق منها مصطلح العقيدة ، بعضها حسي ، وبعضها معنوي ، ويمكن إرجاعها إلى أصل كلى يدل على الشدة والصلابة ، والقوة ، والثبات ، والوثوق ، ثم يتفرع عن هذا الأصل استعمالات متنوعة ليس من الصعب أن نوجد نوع علاقة بين الكثير منها ، وبين المعنى الاصطلاحي للعقيدة .

فمن ذلك مثلا ورودها بمعنى " العهد المؤكد " يقال عهدت إلى فلان في كذا وكذا أي ألزمته ، فإذا قلت عاقدته أو عقدت عليه فتأويله أنك ألزمته باستيثاق، والعقيدة على هذا المعنى عهد مؤكد بين العبد وربه ، جوهره التصميم والعزم وقوة التنفيذ ، وتأتي عقد أيضا بمعنى " البناء " يقال عقد البناء بالجص يعقده عقدا ألزقه ، والعقيدة في ضوء هذا المعنى حصن لبناء الإنسان يشده بقوة حتى لا يكون عرضة للانهيار أو السقوط ، ويقال أيضا عقد السائل أو العسل عقدا أي غلظ وجمد ، وعقد الحبل يعقده إذا شده ، وهكذا العقيدة لابد أن تكون قوية ثابتة ، وغير قابلة للشك أو التذبذب[1] .

---

(١) انظر ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ٤ / ٨٦ - ٩٠ ، والفيروزآبادي : القاموس المحيط ١ / ٣١٢ ، ٣١٣ ، والفيومي : المصباح المنير ص ٥٧٥ ، والرازي : مختار الصحاح ص ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، وابن منظور: لسان العرب ٣ / ٢٩٦ - ٣٠٠ ، والمعجم الوسيط ٢ / ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ود.عبد الحميد مدكور : دراسات في العقيدة الإسلامية ص ٧ ، ود. عبد العال سالم مكرم : أثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع ص ٥ ، وأحمد قوشتي : مناهج الاستدلال على مسائل العقيدة الإسلامية بمصر في العصر الحديث ص ٢٠- ٢٦ .

وعلى الرغم من ورود الكثير من مشتقات مادة عقد في القرآن الكريم مثل (عَقَدَ ، عَقَّدَ عقود ، عُقْدة ، العُقَد) [1] فإن لفظة العقيدة تحديداً لم ترد في القرآن ، وكذلك الحال بالنسبة للسنة ، بل تكاد ألا تذكر في المعاجم اللغوية المصنفة حتى القرن الخامس الهجري تقريبا ٠

ولكن مع مرور الوقت ولعوامل مختلفة ، بدأ مصطلح العقيدة يظهر ويشيع ضمن ما شاع من المصطلحات والعلوم عبر مسيرة الفكر الإسلامي الطويلة[2]وتعددت الكتب التي حمل عنوانها اسم العقيدة أو العقائد أو الاعتقاد، ولم تقتصر على طائفة أو مذهب دون آخر ، بل وجدت نماذج لها عند جل الاتجاهات الفكرية المعروفة[3] لا فرق في ذلك بين الاتجاه السلفي[4]

---

(١) انظر محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٤٦٨ ٠

(٢) انظر محمد المبارك : العقيدة في القرآن الكريم ص ٤٢ ، وذاتية الإسلام أمام المذاهب والعقائد ص ٢٧ – ٢٩ ، ود٠ عبد الصبور شاهين : في العربية والقرآن ص ١٦١ – ١٦٩ ود٠ عبد الحميد مدكور : دراسات في العقيدة الإسلامية ص٣٣ ، ود٠ محمود خفاجي :في العقيدة الإسلامية بين السلفية والمعتزلة تحليل ونقد ص١١ ، ود٠بكر أبو زيد : معجم المناهي اللفظية ص ٦٦٦ ٠

(٣) انظر حاجي خليفة : كشف الظنون ٢ / ١١٤٢ – ١١٤٩ ، ١١٥٧ – ١١٥٩ وعبد القادر بن بدران : المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ص ٤٩٨ ، ٤٩٩ ود٠ حسن الشافعي : المدخل إلى دراسة علم الكلام ص ٣٠ ، ود٠ عبد الحميد مدكور : دراسات في العقيدة الإسلامية ص ٣٧ – ٣٩ ، ود٠ محمد سيد المسير : التمهيد في دراسة العقيدة الإسلامية ص ٢٨ ، ٢٩ ، ود٠ ناصر بن عبد الكريم العقل : بحوث في عقيدة أهل السنة والجماعة ص ١٢ ٠

(٤) ومن كتب أصحاب الاتجاه السلفي المعنونة باسم العقيدة : العقيدة الطحاوية للطحاوي، وعقيدة السلف أصحاب الحديث لأبي عثمان الصابوني ، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي ، ولمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد لابن قدامة المقدسي ، والعقيدة الواسطية لابن تيمية ٠

أو الكلامي[1] وحتى الفلسفي[2] كما لا فرق بين القدامى أو الدارسين المُحْدَثين[3].

٢- مفهومها اصطلاحا :

وأما مفهوم العقيدة اصطلاحا ، فيلاحظ وجود قلة نسبية فيما بين أيدينا من التعريفات المقدمة له ، مقارنة مع وفرة في تعريفات مصطلح آخر كعلم الكلام مثلا ، وربما كان السبب في ذلك عدم التزام المتقدمين بتعريف هذا المصطلح في مقدمة كتبهم ، خلافا لما استقر عليه الحال عند أصحاب المصنفات الكلامية وأكثر التعريفات الموجودة قدمها متكلمون متأخرون ولا تخلو من نظر لفصلها بين الاعتقاد والعمل ·

ومن ذلك تعريف الإيجي للعقائد بأنها " ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل "[4] وهو بعينه التعريف الذي ذكره الجرجاني[5]، وقريب منهما وإن كان أكثر بسطا ، تعريف جلال الدين الدواني للعقائد بأنها " ما يتعلق الغرض بنفس اعتقاده ، من غير تعلق بكيفية العمل ، ككونه تعالى حيا قادرا إلى غير

---

(١) ومن كتبهم العقيدة النظامية للجويني ، وقواعد العقائد للغزالي ، والاعتقاد على مذهب أهل السنة والجماعة للبيهقي . والعقائد النسفية للنسفي . والعقيدة الأصفهانية لشمس الدين الأصفهاني ، والعقائد العضدية لعضد الدين الإيجي

(٢) وأشهر مثال على ذلك كتاب ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة

(٣) ومن كتب الباحثين المُحْدَثين المعنونة باسم العقيدة : توضيح العقائد لعبد الرحمن الجزيري والعقائد الإسلامية للسيد سابق ، وعقيدة المسلم لمحمد الغزالي ، والمنحة المحمدية في بيان العقائد السلفية لمحمد خضر الشقيري ، والعقائد الخبرية في تحرير مذهب الفرقة الناجية لمحمد وهبي بن حسين أفندي الخادمي

(٤) الإيجي : المواقف ص ٧.

(٥) الجرجاني : التعريفات ص ١٧٤.

ذلك من مباحث الذات والصفات ، وتسمى تلك الأحكام أصولا وعقائد واعتقادية ويقابلها الأحكام المتعلقة بكيفية العمل "[١] ٠

فإذا ما انتقلنا للباحثين المُحْدَثين ، فسوف نجد أن تعريفاتهم للعقيدة قد تنوعت ما بين تعريفها **بمعناها العام** ، فتصدق حينئذ على كل ما يدين به الإنسان ويعتقده ، حقا كان أم باطلا ، وما بين تعريفها **بالمعنى الخاص** ، حيث تقتصر على العقيدة الدينية أيا كان دين صاحبها ، وأخيرا تعريفها **بالمعنى الأخص** ، ولا تطلق حينئذ إلا على العقيدة الصحيحة ممثلة في العقيدة الإسلامية وحدها دون ما سواها من عقائد الأديان أو المذاهب الأخرى ٠

فالعقيدة بمعناها العام عند د٠ محمد يوسف موسى هي " المعتقد النفسي الذي تطمئن إليه النفس ، ويمتلئ به القلب ، سواء كان عقيدة دينية مصدرها الوحي ، أم عقيدة سياسية أو اجتماعية ، وسواء في ذلك عقيدة الفرد ، أو عقيدة الجماعة من الناس الذين تجمعهم غاية واحدة "[٢]

ويبسط د٠ عبد الرحمن بيصار هذا المفهوم موسعا من معناه بدرجة كبيرة حيث يشير إلى أن العقيدة تعني إدراك الإنسان لضرورة التصديق ببعض القضايا والمسلمات التي لا يستطيع عنها فكاكا ، وميله إلى الاعتقاد في أي شيء سواء كان هذا الشيء فكرة ذهنية أو موجودا خارجيا ، أو شعورا وجدانيا وحقيقة قلبية ، ومن خصائص الاعتقاد المذكور شعور المرء بالخضوع لما يعتقده ، والإذعان لأوامره والوقوع تحت تأثيره ، ويتفاوت ذلك بمقدار ما يتجلى له من حقيقته ، وما ينطبع في ذهنه من آثار ، وما يقوم

---

(١) شرح جلال الدين الدواني للعقائد العضدية والمطبوع ضمن كتاب : الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين ١ / ٢٧ ، ٢٨ تحقيق د٠ سليمان دنيا.

(٢) د٠ محمد يوسف موسى : العقيدة وخطر الانحراف ص ٦.

في قلبه من قداسة واعتبار[1] ويميل العقاد إلى تعريف العقيدة بمعناها الخاص أي العقيدة الدينية بأنها تلك التي تعتمد على سند فوق الطبيعة[2].

وأما العقيدة بمعناها الأخص ، فقد قدم لها الباحثون المُحْدَثون العديد من التعريفات ، والتي لم تخل من نوع تأثر بالاتجاه الفكري لأصحابها ، فأصحاب الاتجاه الكلامي ساروا على نفس تعريف المتكلمين المتأخرين دونما تغيير يذكر فعرف محمد بخيت المطيعي العقائد بأنها " المسائل التي يقصد منها الاعتقاد دون العمل "[3] وعلى نفس المنوال اكتفى الشيخ عليش بالنقل عن الإيجي تعريفه للعقيدة بأنها " ما يراد للاعتقاد كالله موجود ، لا للعمل بمقتضاه كالصلاة واجبة "[4] .

وواضح أن هذه التعريفات وما جرى مجراها تنطلق من تصور أصحابها لمفهوم الإيمان ، والذي تابعوا فيه ما انتهى إليه متأخرو الأشاعرة من عدم اندراج العمل في حقيقة الإيمان واقتصاره على التصديق القلبي ، وبذلك يختص علم الكلام أو العقيدة بجانب التصديق ويختص الفقه بجانب العمل .

ومع أن الغرض من هذا التقسيم قصد به في الأصل تحقيق مزيد من التخصص والتسهيل على طلبة العلم ودارسيه ، فإنه لا يخفى على أحد ما جره الفصل بين الاعتقاد والعمل من آثار خطيرة ، ألقت بظلالها الكئيبة على مسيرة الفكر والحضارة الإسلامية ، وأدت إلى ظهور الكثير من السلوكيات

---

(١) انظر د. عبد الرحمن بيصار : العقيدة والأخلاق ص ١٥.

(٢) انظر عباس محمود العقاد : عقائد المفكرين في القرن العشرين ص ٢٤.

(٣) محمد بخيت المطيعي : حاشية السليمي على شرح الخريدة لمنظومته في العقائد ص ٣.

(٤) الشيخ محمد عليش : الفتوحات الإلهية الوهبية على المنظومة المقرية ص ٥٣ ، ٥٤.

والقيم الخاطئة التي أضعفت المسلمين ، وعاقت تقدمهم ، وعطلت من نهضتهم[1]، وسوف نعود لذلك بتفصيل أوسع فيما بعد إن شاء الله تعالى ٠

وفي منحى آخر مختلف عما لاحظناه عند أصحاب الاتجاه الكلامي ، نجد أحد أصحاب المدرسة العقلية ، وهو الشيخ محمود شلتوت يحرص في تحديده لمفهوم العقيدة على التفريق بين ما يندرج ضمن مسائل العقيدة وما لا يندرج فيها ووضع الشروط المفرقة بين النوعين وضرورة التمييز بين أصول الاعتقاد وفروعه والطرق والأدلة التي يثبت بها كل نوع منها ٠

وقد جاء تعريفه متضمنا الإشارة إلى هذه الأمور ، فعرف العقيدة بأنها " الجانب النظري الذي يطلب الإيمان به أولا قبل كل شيء ، إيمانا لا يرقى إليه شك ولا تؤثر فيه شبهة ، ومن طبيعتها تضافر النصوص الواضحة على تقريرها ، وإجماع المسلمين عليها من يوم أن ابتدأت الدعوة "[2] ٠

وتطبيقا لهذا المفهوم فلا يصح في رأيه أن توصف قضية أو مسألة ما بأنها من أمور العقيدة ، إلا إذا عم العلم بها جميع الناس ، ولم يختص بطائفة دون أخرى ، ومن ثم فإن كل مسألة " لم ترد بطريق قطعي ، أو وردت من طريق قطعي ، ولكن لابسها احتمال في الدلالة فاختلف فيها العلماء ليست من العقائد التي يكلفنا الدين الإيمان بها ، والتي تعتبر حدا فاصلا بين الذين يؤمنون والذين لا يؤمنون "[3] .

---

(١) انظر د٠ سفر بن عبد الرحمن الحوالي : ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ، مكتب الطيب ، القاهرة الطبعة الأولى ١٤١٧

(٢) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ص ٩

(٣) المصدر السابق ص ٥٤.

ومن أمثلة تلك المسائل من وجهة نظره : رؤية الله بالأبصار في الآخرة ، وزيادة الصفات على الذات ، وحكم مرتكب الكبيرة ، وما يكون في آخر الزمان من أشراط وعلامات : كظهور المهدي ، وخروج الدجال ، والدابة ، والدخان ، ونزول عيسى عليه السلام ، وما أشبه ذلك [1].

ومع الإقرار بأن الدافع وراء هذا المفهوم الضيق في تحديد ما يدخل في معنى العقيدة وما لا يدخل فيها ، هو مقاومة نزعة التوسع والإفراط التي وصلت إليها بعض الفرق الكلامية قديما حتى أدرج بعضهم ضمن أصول الاعتقاد قضايا ومسائل مقتبسة من فلسفات وافدة لم يقم دليل صحيح على ثبوتها ، وهي بعيدة كل البعد عن روح العقيدة ومقاصدها ، مثل القول بالجوهر الفرد ، أو الجزء الذي لا يتجزأ ، أو إبطال الدور والتسلسل ، وما أشبه هذه المسائل[2]، ولم يكتفوا بذلك بل أسرفوا في تكفير مخالفيهم في الرأي ، وشغلوا المسلمين عن أصول الاعتقاد الأساسية وقضاياه الكبرى .

أقول حتى مع التسليم بذلك ، ففي رأيي أن ما ذكره الشيخ شلتوت من شروط وأمثلة لا يخلو من مجال للنقد أو التعقب ، وأصدق ما يقال عنه إنه لا يعدو أن يكون من باب ردود الأفعال التي دائما ما تشوبها المبالغة ومقابلة التفريط بتشديد مسائل ، إذ هل من المتصور أن تكون مخالفة مدرسة كلامية

---

(١) انظر محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ص ٤٤.

(٢) انظر أمثلة لهذه الآراء عند عبد القاهر البغدادي : أصول الدين ص ٢٣١، والفرق بين الفرق ص ١١٥.

ما لقضية عقدية واردة في القرآن أو السنة سببا لإخراجها من جملة العقائد ، وما المقصود بالإجماع هنا ؟ وكيف يمكن تحققه عمليا ؟ لا سيما إذا وضعنا في الاعتبار موقف الشيخ شلتوت عموما من الإجماع وإمكانية ثبوته وتحققه أصلا ، ثم إن عقبة اشتراط قطعية الثبوت سوف تُنَحِّي السنة بأكملها سوى النذر اليسير من باب الاستدلال العقدي فضلا عن كون اشتراط قطعية الدلالة بالمفهوم الكلامي، وذهاب بعضهم إلى أن الدليل النقلي لا يرقى لإفادة القطعية مطلقا ، سوف يقف كحاجز منيع أمام الاستدلال بالقرآن وآياته .

ومما يدلل على صحة ذلك أن بعض الأمثلة التي أخرجها الشيخ شلتوت من جملة العقيدة واردة بالنص في القرآن الكريم ، كرؤية الله تعالى في الآخرة المذكور في قوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۞ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢ ، ٢٣]وكخروج الدابة المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[١] .

وهناك تعريفات أخرى للعقيدة قدمها عدد من الباحثين المُحْدثين ركزوا فيها ، إما على أركان العقيدة الأساسية المكونة لحقيقتها ، والتي لا يتصور وجود اعتقاد صحيح بدونها ، مثل التصديق الجازم واليقين الذي لا يتطرق إليه شك مطلقا ، ورضى القلب وطمأنينته ، وإما على الآثار والنتائج المترتبة عليها في عالم الواقع الفعلي .

---

(١) سورة النمل : ٨١ ، وانظر تفسير هذه الآية:الطبري : جامع البيان ٢٠ / ١٢ – ١٦، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ٢٣٤ – ٢٣٩ ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٣ / ٣٧٥ – ٣٧٨.

ومن **النوع الأول** عرف حسن البنا العقائد بأنها : " الأمور التي يجب أن يصدق بها قلبك ، وتطمئن إليها نفسك ، وتكون يقينا عندك لا يمازجه ريب ، ولا يخالطه شك "[1] وقريب منه تعريف د٠ محمد عبد الله دراز للاعتقاد بأنه : " العلم الجازم بكل ما ثبت بالضرورة أنه جاء من عند الله على لسان رسوله وليس ذلك فقط بل لا بد مع اليقين الجازم الذي هو حكم عقلي من أمر آخر قلبي وهو الرضا والارتياح النفساني لهذه العقيدة ، بحيث تكون طبق هواه وميله وعاطفته "[2] .

ومن النوع الثاني جاء تعريف سيد قطب ، والذي تغلب عليه الصياغة الأدبية وعدم التقيد بقيود وشروط التعريف المشهورة ، كالإيجاز ، وقصر العبارة وعدم الإكثار من المترادفات ٠

وقد عرف العقيدة الدينية بأنها عبارة عن : " فكرة كلية ، تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخفية ، وتثبت روحه بالثقة والطمأنينة ، وتمنحه القدرة على مواجهة القوى الزائلة والأوضاع الباطلة ، بقوة اليقين في النصر وقوة الثقة في الله ، وهي تفسر للفرد علاقاته بما حوله من الناس والأحداث والأشياء، وتوضح له غايته واتجاهه وطريقه ، وتجمع طاقاته وقواه كلها وتدفعها في اتجاه ومن هنا كذلك قوتها ، قوة تجميع القوى والطاقات حول محور واحد ، وتوجيهها في اتجاه واحد تمضي إليه مستنيرة الهدف ، في قوة ، وفي ثقة ، وفي يقين "[3] ٠

---

(١) حسن البنا : العقائد ص ٧

(٢) د٠ محمد عبد الله دراز : المختار من كنوز السنة ص ٧٠.

(٣) سيد قطب : في ظلال القرآن ٦ / ٣٣٥٣.

ومن خلال التعريفات السابقة وغيرها الكثير مما قدمه بعض الدارسين[1] يمكننا أن نخلص إلى تعريف مختصر للاعتقاد وللعقيدة بمعناها الخاص ، أي العقيدة الإسلامية الصحيحة فنقول إن المقصود بالاعتقاد هو " التصديق القلبي الجازم – والمستلزم لانقياد الجوارح – بجملة الحقائق الواردة في القرآن أو السنة الصحيحة ، والمتعلقة بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر والقضاء والقدر " وأما العقيدة فيراد بها نفس تلك الحقائق الواجب التصديق الجازم بها ٠

✿ ✿ ✿

(١) وراجع نماذج من هذه التعريفات عند ابن عثيمين : شرح العقيدة الواسطية ١ /٥٠ ، وأبو بكر الجزائري : عقيدة المؤمن ص ٢٣ ، والسيد سابق : العقائد الإسلامية ص ١١ وعبد الرحمن حسن حبنكة : العقيدة الإسلامية وأسسها ص ٣١ ، ود٠ عبد اللطيف العبد : رد مزاعم المبطلين عن أصول الدين ص ٧ ، ود٠ محمد أمان بن علي الجامي : العقيدة الإسلامية وتاريخها ص ٩ ، ١٠ ، ود٠ عبد الحميد مدكور : دراسات في العقيدة الإسلامية = ص ١٢، ود٠ محمد شامة : العقيدة مفهومها وتطورها ص ٢٩ – ٣٦ ، ضمن كتاب المؤتمر الدولي الثالث للفلسفة الإسلامية (دور العقيدة في حياة الإنسان المعاصر) ود٠ ناصر بن عبد الكريم العقل : بحوث في عقيدة أهل السنة والجماعة ص ١١ ، ود٠ آمنة نصير : مباحث في علوم العقيدة ص ١١ – ١٣ ، ود٠ عمر الأشقر : العقيدة في الله ص ٩ ، ١٠.

ثانيا : أهمية العقيدة وآثارها

في حياة الفرد والمجتمع

وقد جرت عادة أكثر من صنفوا في العلوم المختلفة كالفقه أو الحديث أو أصول الفقه أو النحو على أن يصدروا كتبهم ببيان أهمية العلم الذي يكتبون فيه والتنصيص على أنه أفضل العلوم وأشرفها ، ولا أظن أن هناك من ينازع في أهمية تلك العلوم وفائدتها وعظيم نفعها .

لكن يبقى أن أحق العلوم ، وأجدرها بإطلاق وصف أهم العلوم وأشرفها عليه هو(علم العقيدة) وما ذاك إلا لأن شرف العلم تابع لشرف المعلوم ، والمعلوم في العقيدة هو رب العالمين وأسماؤه وصفاته ، ثم إن هذا العلم هو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع ، وحاجة العباد إليه فوق كل حاجة ، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة ، إذ لا حياة للقلوب ولا نعيم ولا طمأنينة إلا إذا عرفت ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وكان هذا المعبود سبحانه أحب إليها من كل ما عداه ، وكان سعيها وكدها الأول فيما يقربها إليه سبحانه دون ما سواه[1].

. وهناك العديد من الأدلة والشواهد التي تؤكد على أهمية علم العقيدة وضرورته ووجوب تحصيله والاشتغال به دراسة وتأليفا وتعليما ، ومن أبرزها ما يلي[2]:

---

(١) انظر ابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ١ / ٥ ، ٦.

(٢) انظر محمد قطب : دراسات قرآنية ص ٢٢ ، ٢٣ ، ولا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة ص ١٥ ، ١٦ ، ود. عثمان جمعة ضميرية : مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ص ٣٧ – ٤٠ ، ود. أبو اليزيد العجمي : مدخل إلى دراسة العقيدة في الفكر الإسلامي ص ٢٦ – ٣٠ ، ود. عبد الحميد مدكور : دراسات في العقيدة الإسلامية ص ٥٣ – ٦٥ ود. ناصر بن عبد الكريم العقل : بحوث في عقيدة أهل السنة والجماعة ص ٢٦ – ٣١ ، ود. أحمد عبد الرحيم السايح : علم العقيدة بين الأصالة والمعاصرة ص ٦٩ ، ود. محمود خفاجي : في العقيدة الإسلامية بين السلفية والمعتزلة تحليل ونقد ص ١١ – ١٦

١- المتأمل لكتاب الله تعالى يجد أن العقيدة هي الموضوع الرئيسي في القرآن كله مكيه ومدنيه على السواء ، وإن كانت في السور المكية تستوعب المساحة كلها ، وتستوعب الحديث كله ، بينما هي في السور المدنية أشبه بالتيار الجاري الذي تستنبت على شاطئيه الحياة من كل جانب ، لتترعرع وتزدهر بعد أن تشبعت بها النفس ، ثم تأتي التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والروحية والفكرية التي تنظم حياة المجتمع المسلم ، فتشغل معظم المساحة ولكنها تجيء مرتبطة بالعقيدة ومستمدة منها .

ويستدل من تكرار الحديث عن العقيدة في القرآن للمؤمنين – وليس فقط لمن لم يؤمنوا بعد – أن الكلام عن العقيدة ليس درسا يعطى ثم يمضى عنه إلى غيره وإنما هو درس يعطى على الدوام ثم يمضى معه إلى غيره ، ولا ينقطع عنه الحديث مطلقا ، ولو كان الله سبحانه يعلم أن درسا عابرا في العقيدة يكفي أو جملة دروس وينتهي الأمر ما ظل القرآن يتحدث عن العقيدة دون انقطاع حتى آخر آية نزلت من القرآن ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾[البقرة: ٢٨١] .

وإذا كان القرآن وهو الكتاب الذي نزل لهداية البشر وإصلاح حياتهم قد خصص كل هذا الحيز الواسع للحديث عن العقيدة وغرسها في القلوب ، فلا بد إذن أن تكون العقيدة هي محور إصلاح الحياة البشرية ، وأن يكون اهتمام القرآن بها نابعا من أنها الوسيلة للغاية المطلوبة .

ولو كان هناك وسيلة أخرى أهم منها أو أجدر بتحقيق الإصلاح كالتنظيم الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي – مع الإقرار بأهمية ذلك كله – لأولاها القرآن نفس هذه الدرجة من العناية والاهتمام التي حظيت بها العقيدة ، مما يجعلنا نقول إن القرآن قد أعطى الأولوية العظمى لموضوع العقيدة قبل أي شيء آخر ، لأن الله سبحانه يعلم أن هذا وحده هو السبيل

الحقيقي لإصلاح البشر وكل ابتداء بغيره أو مضي بدونه سعي باطل وهباء منثور ٠

٢-والمتتبع لأحاديث السنة النبوية أيضا لا يحتاج إلى كثير جهد كي يلحظ مدى الحيز الذي شغلته قضايا العقيدة ومسائلها ، وكل من يتصفح المصنفات الحديثية الكبرى كالصحيحين والسنن الأربعة - ولا سيما أبواب التوحيد والإيمان - والكتب الحديثية التي أفردت لمسائل العقيدة ، وعنونت أحيانا بالتوحيد أو الإيمان أو السنة ، سوف يجد أنها تغطي كل أبواب ومسائل العقيدة ، بدءا من الإيمان بالله وتوحيده وأسمائه وصفاته ، وانتهاء بأشراط الساعة وتفاصيل الآخرة ٠

وكل ذلك كنز ثمين ، ومعين ثر ، ولكنه للأسف لم يجد من يعن به العناية الكافية واللائقة به في مجال الاستشهاد والتأليف العقدي ، وهي ظاهرة ليست بالجديدة ، وقد برزت بوضوح عند المتكلمين القدامى ، وعلى وجه الخصوص في المراحل المتأخرة لعلم الكلام ، ووجدت أيضا عند الباحثين المُحْدَثين ، حتى إننا إذا عمدنا إلى "رسالة التوحيد" للشيخ محمد عبده - وهي من أكثر المؤلفات التي لقيت شهرة وانتشارا في العصر الحديث - وحاولنا حصر ما بها من أحاديث ، فسوف نجد أنها لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة[1]، وربما نقرأ - كما لاحظ ذلك بعض الدارسين[2]- عشرات الصفحات ، ولا نصادف فيها حديثا واحدا ٠

---

(١) وقد حاولت إحصاء ما ورد بها من أحاديث ، فلم أقف إلا على أربعة أحاديث فقط ، منها حديث تكرر مرتين ، وانظر هذه الأحاديث ، ص ١٩ ، ٤٢ ، ٧٢ ، ١٥٨ من طبعة دار الشعب ، بدون تاريخ

(٢) انظر د ٠ محمد سيد أحمد المسير : التمهيد في دراسة العقيدة الإسلامية ، ص ١٩٩، ٢٠٠

٣- وثمة حقيقة أساسية تشترك فيها دعوات الرسل جميعاً ، ومنهجهم في هداية الناس وإصلاحهم ، وهي البدء بالدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده ونبذ الشرك ومعاداة أهله ، ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء:٢٥] وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل: ٣٦] وقوله تعالى ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل:٢] .

ويؤكد منهج الرسول (ﷺ) في الدعوة إلى الله هذه الأهمية أيضا ، حيث كان مفتاح دعوته وأساسها ومحور اهتمامه في المرحلة المكية هو ترسيخ العقيدة في قلوب أصحابه ، وتعريفهم بربهم جل وعلا قبل أن يكلفوا بسائر الشرائع العملية من صلاة وزكاة وصيام وجهاد ، وظل هذا الاهتمام في المرحلة المدنية بل استمر حتى آخر لحظة من حياته (ﷺ) ، ففي مرض موته (ﷺ) " طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك : لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا "[1] .

٤ - جميع العلوم الشرعية من فقه وتفسير وحديث وغيرها تنبني على علم العقيدة وتستند إليه ، فهو أساسها ومنه اقتباسها ، وما لم يثبت وجود رب خالق قدير مرسل للرسل ومنزل للكتب لم يتصور علم تفسير ولا فقه ولا حديث لأنها جميعا متوقفة عليه ومقتبسة منه .

---

(١) رواه البخاري (٤٣٦) ومسلم (٥٣١).

٥- العقيدة هي المدخل الأول والأهم لتغيير سلوك الناس أفرادا ومجتمعات وإصلاح واقع المسلمين والأخذ بأيديهم إلى طريق العزة والسعادة في الدنيا والآخرة ، وإنما كان الأمر بهذه المثابة نظرا لوجود نوع من الارتباط الوثيق بين العقيدة والسلوك ، بحيث تؤثر عقيدة المرء في سلوكه ولابد إيجابا أو سلبا وكما يقول ابن تيمية رحمه الله " الدين القائم بالقلب من الإيمان علما وحالا هو الأصل ، والأعمال الظاهرة هي الفروع وهي كمال الإيمان ، فالدين أول ما يبنى من أصوله ، ويكمل بفروعه كما أنزل الله بمكة أصوله من التوحيد والأمثال التي هي المقاييس العقلية والقصص والوعد والوعيد ، ثم أنزل بالمدينة لما صار له قوة فروعه الظاهرة من الجمعه والجماعة والأذان والإقامة والجهاد والصيام وتحريم الخمر والزنا والميسر وغير ذلك من واجباته ومحرماته فأصوله تمد فروعة وتثبتها ، وفروعه تكمل أصوله وتحفظها ، فإذا وقع فيه نقص ظاهر فانما يقع ابتداء من جهة فروعة "(١) .

وأظن أنه من أحد يقف على حقيقة العقيدة الإسلامية ويدرك مفهومها الصحيح أو يقرأ آيات القرآن وأحاديث السنة ، والتي يتكرر في مواضع كثيرة منها الاقتران بين الإيمان والعمل الصالح ، إلا ويقطع بوجود تلازم وارتباط وثيق بين العقيدة والعمل ، وبين الفكر والسلوك .

بل نستطيع أن نذهب أبعد من ذلك ، فنقول إن العقيدة بمعناها العام تعتبر الدافع الأساسي لكل عمل يقوم به الإنسان ، ولا يتصور بحال انفكاك الكائن العاقل الخالي من الموانع عن إرادة تحركها عقيدة ، أو فكرة ما تتحول بعد ذلك إلى ممارسة وتطبيق ، فهو إذا توجه لعمل فلابد لهذا التوجه من

---

(١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١٠ / ٣٥٥ ، ٣٥٦.

إرادة وقصد ونية وعقيدة ، تسبق العمل"[1]وكل إنسان لابد له من حرث ، وهو كسبه و عمله ، ولا بد له من هم ، هو مبدأ إرادته "[2] وذلك بمقتضى طبعه الذي خلقه الله عليه ، ويصدق هذا المعنى ما رُوِيَ في الحديث : " أصدق الأسماء حارث وهمام "[3] .

وتأسيسا على ذلك ، فمن المستحيل في واقع الأمر إمكان تصور " فصل القضايا العملية عن الأسس الاعتقادية والقواعد الفكرية ، بل هي – وإن بدت في هيئة خطوط متقابلة – عقيدة وشريعة ، فكرة ونظام ، تصور وسلوك ، إلا أنها في حقيقة الأمر متداخلة متمازجة ، فالعقيدة والتصور الفكري قاعدة ، والتطبيقات الحكمية والسلوكية فروع عن تلك القاعدة ، ومهما كان الاعتقاد موغلا في الرمزية ، أو التجريدية ، أو المثالية ، فإنه لابد أن يؤثر في سلوك وعمل معتقده "[4] .

وقد ترسخت حقيقة استلزام الإيمان للعمل في ذهن الأجيال الأولى من هذه الأمة ، وتبدت في أبهى صورة وأروع مثال ، وما كان من المتصور مطلقا أن يظهر فيهم من يدعي أن الإيمان هو مجرد تصديق القلب ، أو يزعم أنه نطق اللسان وحده بجملة أو اثنتين ، ثم يفعل المرء بعد ذلك ما شاء ، وقد تعددت الكتب والأقوال في اقتضاء العلم العمل[5]، وصار الفكر الإسلامي في جملته مطبوعا بطابع عملي واضح ، يختلف تماما عن

---

(١) انظر سعيد بن ناصر الغامدي : العقيدة والسلوك الإنساني ص ٣٧ ، ٣٨ ، مقال بمجلة المنار الجديد ، العدد السابع ، صيف ١٩٩٩ م.

(٢) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٢٩ / ٣٨١.

(٣) رواه أبو داود (٤٩٥٠) ، وأحمد (١٨٥٥٣) وقد ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٤٣٥) وشعيب الأرنؤوط في التعليق على زاد المعاد ٢ / ٣٣٤.

(٤) سعيد بن ناصر الغامدي : العقيدة والسلوك الإنساني ص٣٦.

(٥) ومن أشهر هذه الكتب اقتضاء العلم للعمل للخطيب البغدادي.

الفلسفات والحضارات الأخرى كالحضارة اليونانية مثلا ، والتي احتقرت العمل اليدوي وأصحابه ، وأعلت من شأن الفكر النظري وقدمته على غيره .

وفي المقابل كان من " أول سمات الحقيقة في المعرفة الإسلامية ، هو أن البحث عنها لا يفصل بين النظرية والتطبيق ، فلا يعقل أن تكون الهداية إلى الحقيقة مجرد هداية إلى الفكرة الصائبة وحدها ، بل لابد أن يتعدى ذلك فتصبح هداية إلى السلوك القويم أيضا ، إذ لا فصل بين النظر والعلم في الثقافة الإسلامية ، ولا خير في علم عندها إلا إذا كان معه عمل "(١).

ولكن هذا الأمر لم يستمر طويلا ، وبدأت نزعات الإرجاء والفصل بين العقيدة والعمل تسرى بصورة تدريجية في أوصال الأمة ، ومع أنها بدأت بأقوال متناثرة ، وآراء فردية دفعت إليها ظروف وملابسات تاريخية وسياسية معينة إلا أنها تضخمت شيئا فشيئا وتحولت إلى تيار فكري خطير تنظر له مذاهب وشخصيات ومؤلفات ، مما كان له أسوأ الأثر على الأمة الإسلامية في شتى مجالات الحياة(٢).

وبعد أن تبين لنا من خلال الكلام المتقدم مدى الأهمية الكبيرة التي تحظى بها العقيدة واحتياج الأمة الشديد – أفرادا وجماعات – إلى دراستها ومعرفتها تفصيلا ، وضرورة أن يكون غرس العقيدة وتثبيتها في القلوب من أهم الأولويات التي تعنى بها الأمة ، نحاول أن نشير فيما يلي إلى طرف من الآثار التي تحدثها العقيدة الصحيحة في حياة الفرد والمجتمع على السواء ،

---

(١) د. أحمد فؤاد باشا : فلسفة العلوم بنظرة إسلامية ص ١٩.

(٢) وانظر عرضا مفصلا لظاهرة الإرجاء في كتاب د. سفر بن عبد الرحمن الحوالي : ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي ، مكتب الطيب ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ.

وإن كان من المهم قبل أن نخوض في هذا الأمر تفصيلا أن ننبه إلى بعض الملاحظات :-

أولا : أن تلك الآثار التي تحدثها العقيدة في حياة الفرد والمجتمع لا يمكن أن تظهر أو أن تؤتي ثمارها إلا إذا كانت العقيدة عقيدة صحيحة نابعة من نصوص الكتاب والسنة ومتطابقة معها ، وقد أحسن صاحبها فهمها واستيعابها ولم تقتصر على مجرد المعرفة النظرية ، وإنما تسربت إلى القلب وترسخت في الوجدان وظهرت مقتضياتها ولوازمها على سلوك المكلف وسائر أفعاله .

وإذا كانت العقيدة بهذه المثابة فلابد أن تظهر آثارها في عالم الواقع لأنه ليس من المعقول أو المعهود أن شخصا ما يكون على عقيدة معينة ويرسخ إيمانه بدين خاص ثم تأتي تصرفاته مناقضة لمبادئ هذه العقيدة ، أو يأتي سلوكه مخالفا لتعاليم هذا الدين ومنكرا لأوامره ونواهيه ، اللهم إلا إذا كان اعتقاده زائفا أو تدينه ظاهريا فحسب ، أو أن إيمانه بهذا المعتقد مجرد تقليد للآخرين من غير تصديق قلبي أو رضى نفسي يصل به إلى حد اليقين .

أما إذا وصل بمعتقده إلى درجة التصديق الجازم والإيمان الراسخ وبلغ تدينه بهذا المعتقد أو هذا الدين إلى حد الاقتناع المبني على الرضا والقبول والتسليم الحقيقي بكل ما جاء به هذا الدين ، فإنه عندئذ يستحيل عليه أن يخالف أمر هذا الدين أو يناقض مقتضى هذه العقيدة ، وسيشعر الإنسان حينئذ بأن ما يؤمن به إيمانا لا يتزعزع من عقيدة دينية هو القوة الدافعة التي تحثه على السير قدما في طريق هذا الدين وتحضه على إتيان فضائل الأعمال واجتناب رذائلها ، بل وأكثر من ذلك ستقوده إلى النصر والنجاح فيما يأتي من أعمال[1].

---

(1) انظر د. عبد الرحمن بيصار : العقيدة والأخلاق ص ٧١ ، ٧٢.

ثانيا : أن الآثار التي سوف نذكرها هي بالنظر إلى العقيدة ككل ، أما ثمرات الإيمان بكل ركن من أركانها الستة وهي الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر ، فموضعها عند الكلام تفصيلا عن كل ركن من هذه الأركان .

ثالثا : قد يتساءل البعض عن الجدوى أو الفائدة من عرض منافع العقيدة وآثارها في حياة الفرد والمجتمع ، مع أن الاعتقاد الصحيح واجب شرعي على المكلف وهو مطلوب لذاته ولنفعه في الآخرة ، وكونه سببا لدخول الجنة والنجاة من النار ، بغض النظر عن نفعه المباشر في الدنيا أم لا ؟

ونقول إجابة عن هذا التساؤل إنه لا يشك أحد أن الاعتقاد الصحيح والإيمان الراسخ بأصول العقيدة وحقائقها من أوجب الواجبات الشرعية وأهمها ، وأنه سبب السعادة والفوز في الآخرة ، كما أنه لا يصح أن يظن البعض أن " المقصود بالدين الحق مجرد المصلحة الدنيوية من إقامة العدل بين الناس في الأمور الدنيوية ، كما يقوله طوائف من المتفلسفة في مقصود النواميس والنبوات أن المراد بها مجرد وضع ما يحتاج إليه معاشهم في الدنيا من القانون العدلي الذي ينتظم به معاشهم "[1] .

لكن هذا الذي قررناه لا يتنافى بحال مع أهمية وجدوى عرض الآثار التي يحدثها الإيمان هنا في الدنيا على كل من الفرد والمجتمع .

وإذا كان الإيمان مطلوبا لذاته باعتباره الحقيقة العليا ، فهو مطلوب أيضا لما يحدث في الحياة العملية للإنسان من آثار تنعكس عليها بالتوفيق والصلاح ، إذ هو يصبغ هذه الحياة كلها بصبغته ويضفي عليها من خيريته ما لا تناله أبدا بدونه ، بل إنها بدونه لا تكون إلا في بوار ، وذلك هو مصداق قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[طه:١٢٤] .

(١) ابن تيمية : قاعدة في المحبة ص ٤٥.

وبذلك تكون العلاقة بين الإيمان وبين صلاح الحياة شبيهة بأن تكون علاقة تلازم بين الطرفين ، بحيث يكون تحقق الملزوم وهو الإيمان مفضيا إلى تحقق اللازم وهو صلاح الحياة ، وذلك مما يوفر في سبيل الدعوة إلى الله منهجا فاعلا في النفوس ، وهو ما يتمثل في الدخول إليها من منطلق أن الإيمان يحقق السعادة في الحياة العملية ، ولا شك أن بسط المنافع العملية التي تحدثها العقيدة الصحيحة في الحياة وإظهارها للناس إظهارا عيانيا بالشهود أو إظهارا استرجاعيا بالتاريخ أو إظهارا عقليا من شأنه أن يهيئ النفوس للإقبال على الله ويرسخ الإيمان في قلوبهم[1] .

وثمة شواهد من سيرة الأنبياء ومنهجهم في الدعوة تدل على صحة هذا المسلك ، حيث درج الأنبياء في دعوة أقوامهم إلى الله أن يبيّنوا لهم عاقبة الإيمان ووبال الكفر في الدنيا قبل الآخرة ومن ذلك قول نوح عليه السلام لقومه ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ﴾[نوح: ١٠- ١٢] وفي القرآن آيات كثيرة من هذا القبيل مثل قوله تعالى ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾[هود : ٣] وقوله تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[الأعراف: ٩٦] .

---

(١) انظر د. عبد المجيد النجار : الإيمان بالله وأثره في الحياة ص ١٦٥.

وإذا كان هذا المنهج في الدعوة إلى الله منهجا عاما يصلح لكل الأوضاع والزمان ، فلعله في الظروف والأوضاع الراهنة أكثر ضرورة وأشد احتياجا وذلك للأسباب التالية[1]: -

أ – ما حدث في هذا العصر من موجة إلحادية عاتية كان من دعاويها الفاسدة والكاذبة أن الإيمان بالله وسائر الغيبيات من شأنه أن يعطل طاقات الإنسان عن العمل والإنتاج ، كما يعطله عن البحث العلمي الحقيقي الذي يؤدي إلى ذلك ومن هنا أطلق كارل ماركس كلمته الخبيثة الدين أفيون الشعوب ، وقد اقترن بذلك ما هو مشاهد في بلاد الغرب من وجود تقدم مادي ظاهري وارتفاع في مستوى المعيشة والحياة الرغيدة ، وهذه كلها فتن من الضروري أن تقاوم بمنهج مضاد يبرهن على أن رغادة العيش والسعادة الدنيوية إنما هي رهينة الإيمان بالله تعالى .

ب – ما أصبح سائدا في العقلية الغربية ، وتسربت منه آثار إلى التفكير العام عند سائر الشعوب من منطقية عملية نفعية ترتبط فيها الأفكار في حظوظها من الحقيقة بما تفضي إليه من النفع العملي في الحياة ، ومن ثم يكون المدخل الوحيد لتبني معتقدات تتصف بالحقيقة هو مقدار ما تثمره تلك الأفكار في حياة الإنسان من الخير العملي المحقق للسعادة .

وهذا المفهوم هو الذي قامت عليه الفلسفة البراجماتية والتي سادت في المجتمع الأمريكي ، وصارت المنهج الموجه لأسلوب حياته وتعامله مع سائر الأمور ولا شك في فساد الأساس الذي قامت عليه هذه الفلسفة ، وهو أن المنفعة مقياس الحقيقة ، وأن المهم في كل فكرة أو مذهب هو نتائجه أو الآثار التي تترتب عليه وأن الصدق ليس هو مطابقة الخبر للواقع بل انسجامه مع ما يقع .

---

(1) انظر د. يوسف القرضاوي : الإيمان والحياة ص ٧ – ١٤ ، و د. عبد المجيد النجار : الإيمان بالله وأثره في الحياة ص ١٦٦ – ١٦٨.

ولكن على الرغم من خطأ وبطلان هذا الفكر فلسنا نخشى على عقيدتنا منه لأننا نجزم أن أنفع شيء للناس هو الحق ، وأن أضر شيء بالناس هو الباطل وكما قال تعالى ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ** ﴾[الرعد: ١٧] فالذي يمكث في الأرض هو الحق الذي ينفع الناس معنويا وماديا ، ينفعهم أجساما وقلوبا وعقولا ، وينفعهم أفرادا وجماعات وينفعهم دنيا وآخرة •

ورغم اختلافنا الشديد مع مفهوم المنفعة عند أصحاب الفلسفة العملية وقصرهم المنفعة على الآجلة دون العاجلة ، وعلى الماديات دون المعنويات، فإننا لو طبقنا منهجهم هذا فسوف نجد الدين ثقيل الميزان مبين السلطان، وقد أثبت التاريخ والاستقراء أنه لا سعادة للبشر ولا للمجتمعات إلا إذا عرفت ربها ووحدته وأخلصت العبودية له والتزمت أوامره واجتنبت نواهيه •

ج – ما آل إليه أمر المسلمين من ضعف وهوان في حياتهم العملية ربما أوقع في نفوس بعضهم أن الإيمان الذي يزعمون أنهم متحققون به لم يغن عنهم في ميزان الحياة شيئا ، مقارنة بغيرهم ممن لا يؤمنون بالله ، ومع ذلك يعيشون في ثروة وتقدم مادي •

ولا شك أن هذه فتنة شديدة ألح عليها العلمانيون ومن تبعهم من دعاة فصل الدين عن الحياة وعن الدولة ، وقد غفلوا أو تغافلوا أننا لم نطبق منهج الله كما ينبغي ، ولم نحقق الإيمان الكامل ، كما لم نأخذ بالأسباب الدنيوية ، فأضعنا الدين والدنيا معا ، بخلاف أسلافنا الأوائل الذين جمعوا بين الأمرين فملكوا الدنيا بأسرها ، وفازوا برضوان الله وجنته •

وهكذا فإن الأسباب السابقة وغيرها تدفعنا إلى الحرص على إبراز علاقة التلازم الوثيقة بين الإيمان والعقيدة الصحيحة ، وبين تحقيق السعادة

وهناءة العيش في الدنيا للمؤمن ، وصلاحه نفسيا وعقليا ووجدانيا ، ثم صلاح المجتمع ككل نتيجة لصلاح أفراده .

وسوف نشير فيما يلي إلى طرف من تلك الجوانب مقتصرين فقط على آثار العقيدة في إصلاح الفرد ، وهو ما يؤدي بالضرورة إلى إصلاح المجتمع ككل[1]:-

١- النجاة في الدنيا والآخرة

فالتوحيد والإيمان سبب النجاة والفلاح والفوز والرفعة في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا ييسر الله للمؤمن أموره ، ويجعل له مخرجا من كل ضيق ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، وينصره على أعدائه ، ويمده بمدد من عنده ، ومن أول وأهم شروط حصول الاستخلاف في الأرض تحقيق الإيمان كما قال تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ

---

(١) وقد عولت في ذكر هذه الآثار – مع مراعاة الاختصار والإيجاز – على عدد من الكتب التي ألفت في هذه القضية تفصيلا أو عرضت لها بصورة عامة ومن أراد مزيد تفصيل وتوسع في هذا الموضوع المهم فبإمكانه أن يعود إلى الكتب التالية : د. عبد الرحمن بيصار : العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع ص ٧١ – ٧٧ ، والشيخ علي حسب الله : محاضرات في علم التوحيد ص ٢٦ – ٣١ ، ود. يوسف القرضاوي : الإيمان والحياة ص ٦١ – ٣٢٤ ، و د. عبد المجيد النجار : الإيمان بالله وأثره في الحياة ص ١٦٩– ٢١٤ ، د. عبد اللطيف العبد : رد مزاعم المبطلين عن أصول الدين ص ١٥١ – ١٦٢ ود. صالح الفوزان : معنى لا إله إلا الله : مقتضاها وآثارها في الفرد والمجتمع ص ٤٠ – ٤٧، ود. عمر الأشقر : نحو ثقافة إسلامية أصيلة ص ٨١ – ٨٥ ، ود. محمد الحسين صالح . العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث ص ١٨٤ ، ١٨٥ ، وعائض القرني : لا تحزن ص ٩٢ – ٩٨ ، وفَضْلُ التَّوحيد وتكفيرُه للذُّنوب ، للشيخ صالح بن عبد العزيزآل الشيخ

فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[النور:٥٥] .

وأما في الآخرة فلا نجاة ولا فوز إلا لمن حقق التوحيد واجتنب الشرك ، وقد حكم الله سبحانه أن الجنة محرمة على كل من أشرك به فقال ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾[المائدة:٧٢] ومن علامات حسن الخاتمة أن يكون آخر كلام المؤمن النطق بالشهادتين كما في الحديث " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة "(١) .

ومن فضائل التوحيد أنه سبب لتكفير الذنوب كما قال تعالى﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾[النساء:٤٨] وسبب لترجيح كفة الحسنات على السيئات كما في حديث البطاقة المشهور ، وسبب لمنع الخلود الأبدي في النار لقوله صلى الله عليه وسلم " ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار "(٢) .

وهو سبب لنوال شفاعة المصطفى (ﷺ) ففي الحديث أن أبا هريرة رضي الله عنه قال " يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد

(١) رواه أحمد (٢١٥٢٩) وأبو داود (٣١١٦) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٩).

(٢) رواه البخاري (١٢٨) ومسلم (٣٢).

الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه أو نفسه "[1] وسبب لتحقيق الأمن الكامل لقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾[الأنعام:٨٢] والظلم هنا معناه الشرك ، وسبب للنجاة من الفزع الأكبر كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠١]

٢- تحقيق معنى الكرامة الإنسانية :

إذ من المستحيل على الإنسان أن يشعر بقيمته وكرامته ، ومنزلته في كون الله الواسع الفسيح بكل ما يحدثه ذلك من آثار مهمة على طريقة تفكير الإنسان وأهدافه وغاياته ورسالته في الحياة ، إلا إذا آمن بالله وكتبه ورسله والبعث بعد الموت .

ولعل الأمر يبدو أكثر وضوحا إذا قارنا بين مفهوم الإنسان ومكانته في الفكر البشر المادي ، وبين مفهومه ومكانته في الإسلام ، ونحن نقصد بالفكر المادي هنا سائر النظريات والمذاهب البشرية المبتوتة الصلة بالوحي . ويدخل في ذلك نظريات دارون وفرويد وغيرها من النظريات التي كان لها تأثير بالغ الخطورة على الفكر الغربي ، وعلى فكر من تأثر به من المستغربين المنتسبين للإسلام .

والإنسان في الفكر المادي ليس سوى قبضة من تراب الأرض ، منها نشأ وعليها يمشي وإليها يعود ، وهو كتلة من اللحم والدم والعظام والأعصاب وليس لهذا الإنسان أهمية ولا امتياز على غيره ، وهو طبقا لنظرية دارون أحد الأحياء الكثيرة المتنوعة على هذه الأرض ، وغاية امره انه تطور بمرور الزمن فاصبح هذا الإنسان ، ومن ثم فهو عندهم اخو

(١) رواه البخاري (٩٩ ، ٦٥٧٠) و أحمد (٨٦٤١)

الحشرات وصنو القرود وهم لا يتصورون فيه إلا القشرة والغلاف ، ولا يعرفون فيه إلا الطين والحمأ المسنون ، ومن طبيعته الانجذاب إلى أسفل وليس إلى أعلى ، ومن طبيعته الهبوط إلى الأرض وليس الارتفاع إلى السماء ، وبعبارة موجزة فإن الإنسان عندهم حيوان متطور ، ترقى من طور إلى طور حتى بلغ ما هو عليه ، والحيوانية فيه بمثابة قشرته ولبه ، ولحمته وسداه •

ولا شك أنه لا يوجد إيحاء أسوأ أثرا للنفس البشرية من هذا الإيحاء ، وحينما يرى الإنسان نفسه مخلوقا هابطا ، وحيوانا ، وطينا وحمأ ، فلن يستغرب من نفسه الانحدار والتلوث والإسفاف ، ولن يستنكف من القذارة والأوحال أن يتمرغ فيها ويتلطخ بها ، بل المستغرب منه أن يتعفف ويتطهر ، وأن يحيا نظيفا مستعليا على الشهوات والمطامع المادية •

أما الإنسان عند أصحاب العقيدة الصحيحة والمؤمنين بوحي الله النازل من السماء ، فهو مخلوق كريم على الله ، خلقه ربه في أحسن تقويم ، وصوره فأحسن صورته ، وقد خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته وميزه بالعلم والفهم ، وجعله خليفة في الأرض ، وسخر له كل ما في السماوات والأرض ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة •

وقد تعددت الآيات القرآنية التي تظهر كرامة الإنسان وقيمته فضلا عن تسمية سورة كاملة من القرآن بسورة الإنسان ، ويكفي للدلالة على ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٠] كما حكى سبحانه قصة خلق أبي البشر آدم عليه السلام ، وكيف أمر الله الملائكة بالسجود له بعد أن أظهر الله لهم علم آدم وفضله ، وكذلك ذكر سبحانه تسخير كل ما في الكون من مخلوقات ونعم لنفع الإنسان وصلاح أمره ، فقال

سبحانه ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾[إبراهيم : ٣٢] وقال سبحانه﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٣].

ومن خلال هذه الآيات وغيرها الكثير يظهر لنا أن الله سبحانه وتعالى قد " اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله وشرفه ، وخلقه لنفسه وخلق كل شيء له ، وخصه من معرفته ومحبته وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره ، وسخر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما ، حتى ملائكته الذين هم أهل قربه استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته وظعنه وإقامته وأنزل إليه وعليه كتبه ، ورسله ، وأرسل إليه وخاطبه وكلمه منه إليه ، واتخذ منهم الخليل والكليم والأولياء والخواص والأحبار ، وجعلهم معدن أسراره ومحل حكمته وموضع حبه ، وخلق لهم الجنة والنار ، فالخلق والأمر والثواب والعقاب مداره على النوع الإنساني ، فإنه خلاصة الخلق وهو المقصود بالأمر والنهي وعليه الثواب والعقاب ، فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات ، وقد خلق أباه بيده ، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء ، وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات ، وطرد إبليس عن قربه وأبعده عن بابه إذ لم يسجد له مع الساجدين واتخذه عدواً له "(١) .

وهذه المكانة والمنزلة إنما تظهر على وجهها الأتم والأكمل في حق عباد الله الموحدين " والمؤمن من نوع الإنسان خير البرية على الإطلاق ، وخيرة الله من العالمين ، فإنه خلقه ليتم نعمته عليه ، وليتواتر إحسانه إليه ،

(١) ابن القيم : مدارج السالكين : ١ / ٢١٠.

وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته ولم يخطر على بالـه ، ولـم يشعر به ، ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة العاجلة والآجلـة التي لا تنال إلا بمحبته . ولا تنال محبته إلا بطاعته وإيثاره على ما سواه ، فاتخذه محبوبا له وأعد له أفضل ما يعده محب غني قادر جواد لمحبوبـه إذا قدم عليه ، وعهد إليه عهدا تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه ، وأعلمه في عهده ما يقربه إليه ويزيده محبة له وكرامة عليه ، وما يبعده منه ويسخطه عليـه ويسقطه من عينه "(١) .

وهكذا يظهر لنا الفرق الشاسع في مفهوم الإنسان وطبيعته ومنزلته في الكون وغايته ووظيفته في الحياة ، بين كل من التصور البشري المـادي ، وبين التصور الذي جاءت به عقيدة الإسلام ، وما يحدثه كلا التصورين من آثار خطيرة على الإنسان .

فصاحب النظرة المادية يشعر بالتفاهة والضياع والعبثية ، بينما صاحب العقيدة يشعر بمعاني الكرامة على الحقيقة ، ليس بوصفه إنسانا فحسب وإنما بوصفه إنسانا مؤمنا ينتمي لخير أمة أخرجـت للنـاس ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران: ١١٠] يشعر بمعية الله ونصره وتأييده ودفاعه عن المؤمنين كما قال سبحانه ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الأنفال: ١٩] وقـال سبحانه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[الحج: ٣٨] .

كما يشعر بالكرامة والعزة والحرية والاستعلاء والثقة بأن الإسلام يعلو ولا يعلـى عليـه ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾[النساء: ١٤١] ويستحيل أن تتسرب إليه مشاعر الدونية أو الصـغار

(١) بن القيم : مدارج السالكين ١ / ٢١١.

والذلة والهوان﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩].

٣ – تزكية الفكر وسداده

ونقصد بالفكر طريقة العقل في التفكير لإدراك الحقائق وتدبير شئون الحياة ، وقد عرف الفكر في الاصطلاح بأنه " ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول "[١] ولا شك أن للإيمان بالله تعالى ورسوخ العقيدة في النفس أثرا كبيرا في الطريقة التي يفكر بها العقل ، نظرا لأن الصورة التي يحملها العقل عن الوجود تشكل حركته في التفكير وتحدد خصائصه فيه ، والإيمان بالله وسائر أصول العقيدة يؤثر في العقل من جهة حركته المعرفية تأثيرا إيجابيا ترشد به تلك الحركة في إصابة الحقيقة ، وفي توفيق الحياة إلى الخير والصلاح .

ومن آثار العقيدة الصحيحة على الفكر أنها توسع أمام العقل مجال النظر المعرفي إلى أكبر مدى ممكن ، فتنفسح له مادة العلم ومعطياته بأكثر ما يمكن لأن الإيمان بالله تعالى يجعل نظر العقل منبسطا على مدى عالمين ، أحدهما عالم مشهود وهو عالم الكونيات الحسية ، والآخر عالم غيب وهو ما وراء المادة ، وإذا ما انبسط نظر العقل على هذا المدى الفسيح فإنه سوف يتجاوز ما هو محسوس إلى ما هو غير محسوس ، ليتخذ منه مجالا في تقدير الحقيقة .

كذلك فإن من آثار الإيمان بالله تعالى وتوحيده حق التوحيد تحرر العقل في حركته الفكرية من سائر القيود والمعوقات التي تحول دون إدراكه للحقيقة على وجهها الصحيح . ومن تلك المعوقات الهوى والشهوة . وتقليد الآباء

(١) الجرجاني : التعريفات ص ٢١٧.

والأجداد والعكوف على أقوال السابقين والأساطير والخرافات ، واتباع الكهنة والطواغيت ممن يرهبون الناس ، ويسيطرون على عقولهم وتفكيرهم ، فتأتي العقيدة الصحيحة لتحرر عقل المؤمن من كل تلك القيود ، حيث يصير عبدا لله وحده دأبه وديدنه هو البحث عن الحق المؤيد بالبراهين والأدلة ، بغض النظر عن الهوى والشهوة أو التقليد والجمود ٠

ومن مقتضيات العقيدة الصحيحة أيضا أن يرى المؤمن الكون وما يجري فيه من أحداث محكوما بقانون موحد هو قانون الله تعالى وسنته في تدبير الكون و أن يرى الإنسان نفسه موحدا في وسائل انفتاحه على هذا الكون ، ليدرك حقيقته ، فالله هو الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم ورتب وسائله في الإدراك لتفضي متظاهرة إلى نفس الحقيقة .

وإذا رئي الكون موحدا في قانون سيره وانقلابه فإن هذا سيورثه معنى من الوحدة في تفسير الأحداث ترد به الكثرة من الظواهر المتنوعة إلى السبب الموحد ، ويتخذ من ذلك مبدأ للفهم تفسر به الأحداث لتعرف حقيقتها ، أما لو رأى الإنسان الكون وأحداثه شتاتا ينتمي كل قسم منه إلى مدبر، فإن ذلك يجعل العقل يتيه في معرفة الأسباب الحقيقية التي تحكمه، ويسقط حينئذ في الخرافات والأساطير يفسر بها أحداث الكون ٠

ويضاف لما سبق أن صاحب العقيدة الصحيحة يعلم أن منافذ الإدراك من وحي وعقل وحس متكاملة وموحدة بتدبيرها من قبل الله الواحد ، ومن ثم فسوف تتساند في البحث عن الحقيقة ويقوم كل منها بدور مكمل للدور الذي يقوم به الآخر ، وذلك في غير ما تعارض يلغى فيه اعتبار أي منها طريقا للمعرفة بحيث تتكشف الحقيقة كاملة وتكون المعارف الحاصلة من جرائها متآلفة ومنسجمة ٠

٤- تحقيق السعادة

والسعادة هي الدرة المفقودة والحلم المنشود الذي يلهث خلفه البشر جميعا من الفيلسوف في قمة تفكيره وتجريده إلى العامي في قاع سذاجته وبساطته ، ومن الملك في قصره المشيد إلى الصعلوك في كوخه الصغير ٠

ولا يتصور أن يوجد أحد من العقلاء يبحث عن الشقاء لنفسه أو يرضى بتعاستها ، بل الكل يسعى إلى طرد الهموم وراحة البال ، وكما يقول ابن حزم رحمه الله " تطلبت غرضا يستوي الناس كلهم في استحسانه وفي طلبه فلم أجده إلا واحدا وهو طرد الهم ، فلما تدبرته علمت أن الناس كلهم لم يستووا في استحسانه فقط ولا في طلبه فقط ، ولكن رأيتهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم وتباين هممهم وإراداتهم لا يتحركون حركة أصلا إلا فيما يرجون به طرد الهم ولا ينطقون بكلمة أصلا إلا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم ٠٠٠ وليس في العالم – مذ كان إلى أن يتناهى – أحد يستحسن الهم ، ولا يريد طرده عن نفسه "[(١)] ٠

ولكن المشكلة ليست في اتفاق البشر أجمعين على طلب السعادة ودفع الهموم وإنما السؤال الذي حير الكثيرين هو أين السعادة وكيف تحصل ، وما السبيل إليها ، وقد جرب الناس في شتى العصور ألوان المتع المادية وصنوف الشهوات الحسية فما وجدوها تحقق السعادة أبدا ، بل زادتهم شقاوة وحسرة ٠

فهناك من ظن السعادة في الأموال والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة وهناك من ظنها في كثرة الولد الذين هم زهرة الحياة وزينة الدنيا ،

(١) ابن حزم : الأخلاق والسير في مداواة النفوس ص ١٤.

وهناك من ظنها في الاستمتاع بالنساء واتخاذ الخليلات ، وهناك من ظنها في علو الجاه وانتشار الصيت وتحصيل أعلى الشهادات والوصول إلى أرقى المناصب .

ولكن الشرع والعقل وشواهد الواقع تجزم بأن تلك الأشياء كلها لم تحقق لأصحابها السعادة أو الطمأنينة ، وكما يقول ابن حزم " بحثت عن سبيل موصلة على الحقيقة إلى طرد الهم الذي هو المطلوب للنفس الذي اتفق جميع أنواع الإنسان – الجاهل منهم والعالم والصالح على السعي له ، فلم أجدها إلا التوجه إلى الله عز وجل بالعمل للآخرة ، وإلا فإنما طلب الصوت – أي الجاه والذكر الحسن – من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الاستعلاء عليها ، وإنما طلب اللذات من طلبها ليطرد به عن نفسه هم الجهل ، وإنما هش إلى سماع الأخبار ومحادثة الناس من يطلب ذلك ليطرد بها عن نفسه هم التوحد ومغيب أحوال العالم منه ، وإنما أكل من أكل ، وشرب من شرب ، ونكح من نكح ، ولبس من لبس ، ولعب من لعب ، واكتن من اكتن – أي استتر – وركب من ركب ، ومشى من مشى ، وتودع من تودع ، ليطردوا عن أنفسهم أضداد هذه الأفعال وسائر الهموم "[1] .

ثم ذكر ابن حزم النتيجة التي خلص بها من تأمله وتفكره الطويل في تلك المسألة فقال " وجدت العمل للآخرة – سالما من كل عيب خالصا من كل كدر – موصلا إلى طرد الهم على الحقيقة ، ووجدت العامل للآخرة إن امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم بل يسر ، إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال به عون له على ما يطلب .. ورأيته إن قصد بالأذى سر ، وإن نكبته نكبة سر ، وإن تعب فيما سلك سر ، فهو في سرور متصل أبدا ، وغيره بخلاف ذلك أبدا ، فاعلم أنه مطلوب واحد وهو طرد الهم وليس إليه إلا طريق واحد وهو العمل لله تعالى ، فما عدا هذا فضلال وسخف "[2] .

(١) ابن حزم : الأخلاق والسير في مداواة النفوس ص ١٥.

(٢) المصدر السابق ص ١٦.

وهكذا فإن السبيل الوحيد لتحقيق السعادة هو توحيد الله ومعرفته والتقرب إليه بأنواع الطاعات والرضى بأحكامه الشرعية والقدرية إذ في القلب "شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله ، وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته ، وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته ، وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه ، وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه ، ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه ، وفيه طلب شديد لا يقف دون أن يكون هو وحده مطلوبه ، وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ، ودوام ذكره ، وصدق الإخلاص له ، ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبدا "(١) .

٥- الرضا والأمل

والرضا نعمة عظيمة ، وهبة جزيلة ، هيهات أن يصل إليها جاحد بالله أو شاك فيه ، أو مرتاب في جزاء الآخرة ، وإنما يصل إليها من قوي إيمانه بالله وحسن اتصاله به ، وقد خاطب الله رسوله (ﷺ) بقوله﴿ **فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى**﴾[طه : ٣٠] وامتن عليه بقوله﴿ **وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى**﴾[الضحى:٥] وأثنى الله تعالى على المؤمنين بقوله ﴿ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾[المائدة: ١١٩] وقال النبي (ﷺ) " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا "(٢) .

---

(١) ابن القيم : مدارج السالكين ٣ / ١٦٤.

(٢) رواه (مسلم) والترمذي (٢٦٢٣).

والمؤمن الموحد فقط هو الذي يغمره الإحساس بالرضا بعد كل قدر من أقدار الله ، وهو الذي يحس تلك الحالة النفسية التي تجعله مستريح الفؤاد ، منشرح الصدر ، غير متبرم ولا مضجر ولا ساخط على نفسه وعلى الكون والحياة ومنشأ ذلك رضاه عن وجوده الخاص في نفسه ، وعن الوجود العام من حوله ومبعث هذا وذاك وينبوع هذا الرضا هو الإيمان بالله رب العالمين ٠

فالمؤمن راض عن نفسه – أي عن وجوده ومكانه في هذا الكون – لأنه يعلم انه ليس ذرة ضائعة ولا كما مهملا ولا شيئا تافها ، بل هو خليفة الله في أرضه وأكرم مخلوقاته ، وهو راض عن الحياة والكون من حوله لأنه يعتقد أن هذا الكون الفسيح صنع الله الذي أتقن كل شيء ، والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وكل ذرة في الأرض أو السماء تدل على حكمة الله وتقديره ٠

ثم هو فوق ذلك كله راض عن ربه ومولاه جل وعلا ، لأنه آمن بكماله وجلاله ، وأيقن بعدله ورحمته ، واطمأن إلى علمه وحكمته ، وهو موقن تمام اليقين أن تدبير الله أفضل من تدبيره لنفسه ، ورحمته تعالى به أعظم من رحمة أبويه به ، ونعم الله تحيط به من جانب ، وفضله قد عم المخلوقات جميعا كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[لقمان : ٢٠] وقال تعالى ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[إبراهيم : ٣٤] ٠

وإلى جانب شعور الرضا الذي تحدثه العقيدة في نفس صاحبها فثمة شعور آخر في غاية الأهمية وهو الأمل والرجاء وهو وقف على المؤمنين

الموحدين وأبعد ما يكون عن الجاحدين المكذبين ، والأمل والإيمان متلازمان والمؤمن أوسع الناس أملا وأكثرهم تفاؤلا واستبشارا وأبعدهم عن التشاؤم والتبرم والضيق بينما الكفر قرين لليأس وملازم له ، وكلاهما سبب للآخر وثمرة له ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[يوسف:٨٧] وقال تعالى ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ)[الحجر: ٥٦] وقال سبحانه ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود : ٩] وقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً﴾ [الإسراء : ٨٣] وقال سبحانه : ﴿ لا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت : ٤٩]

ومبعث الأمل والتفاؤل عند الموحد هو إيمانه بربه ومولاه الذي بيده ملكوت كل شيء ، والفعال لما يريد ، والبر الرحيم التواب ، والمؤمن المعتصم بهذا الإله الرحيم الودود دائما متفائل ، ينظر إلى الحياة بوجه ضاحك ، ويستقبل أحداثها بثغر باسم ، ولا يتسرب الحزن أو التشاؤم والقنوط إليه أبدا ·

فهو إذا حارب كان واثقا بالنصر لأنه مع الله ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً﴾[النساء: ٤٥] وإذا مرض لم ينقطع أمله في الشفاء والعافية ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٨٠] وإذا اقترف ذنبا لم ييأس من المغفرة ومهما كان ذنبه عظيما فإن عفو الله أعظم ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]·

وإذا أعسر لم يزل مؤملا في اليسر لأنه يعلم أن ﴿ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾[الشرح:٥] وإذا أصابته مصيبة كان على رجاء من الله أن يؤجره في مصيبته ويخلفه خيرا منها ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦] .

٦- الثبات عند الشدائد

فطبيعة الحياة الدنيا وطبيعة البشر فيها تجعلان من المستحيل في العادة أن يخلو المرء من حوادث تصيبه ، وشدائد تحل بساحته ، ورزايا تنزل به ، فكم يخفق له عمل ، أو يخيب له أمل ، أو يموت له حبيب ، أو يمرض له بدن أو يفقد من مال ، كما قال الله سبحانه ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة:١٥٥] وقال سبحانه ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي كَبَدٍ ﴾[البلد:٤] وقال سبحانه ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ [الانسان:٢] .

والابتلاء سنة من سنن الله تعالى الجارية في خلقه أجمعين ، ولاسيما الرسل وأصحاب الدعوات والمؤمنين بالله ، كما قال تعالى ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت:٢] وقال النبي (ﷺ) " أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه و إن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض و ما عليه خطيئة "[1] .

---

(١) رواه أحمد (١٥٥٨) والترمذي (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩٩٢).

وإذا كان البلاء واقعا لا محالة بالمؤمن والكافر ، فإن هناك فرقا كبيرا وتفاوتا شاسعا بين موقف الناس من هذا البلاء ومقدار تحملهم له ، وقد أخبر سبحانه أن أكثر الناس إذا مسهم الشر والبلاء جزعوا وهلعوا ، كما قال الله سبحانه ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً ۞ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً ۞ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ۞ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾[المعارج:١٩: ٢٢] .

وقد أثبت الواقع والمشاهدة أن أشد الناس جزعا وأسرعهم انهيارا أمام شدائد الحياة وعند نزول البلاء هم الملحدون والمرتابون وضعاف الإيمان ، وقد وصف الله في كتابه هذا النموذج من الناس فقال : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ [هود:٩] وقال تعالى ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج:١١]

ولذلك نجد أن حالات الانتحار أكثر ما تكون في البيئات التي ضعف دينها أو فقدته ، مهما كان ارتفاع مستوى المعيشة أو رغد العيش ، فإن لم يكن الانتحار فهو الألم القاتل والجزع البالغ والكآبة الحزينة ، والحياة التي خلت من معنى الحياة .

أما الموحدون والمؤمنون بالله فهم أصبر الناس على البلاء ، وأثبتهم في الشدائد ، وأرضاهم نفسا في الملمات وما ذلك إلا لأن عقيدتهم قد رسخت في نفوسهم أن عمر الدنيا قصير ، وأنها متاع قليل ولا تدوم على حال قط ، كما عرفوا سنة الله فى الابتلاء ، وأنه أمر لا يخلو منه أحد قط ، وأن ما ينزل بهم من مصائب ليس ضربات عجماء ولا خبط عشواء ، ولكنه وفق قدر معلوم وقضاء مرسوم ، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم وما أخطأهم لم

يكن ليصيبهم كما قال تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد:٢٢، ٢٣] ونظرا لهذا كله فإنهم يعلمون قطعا أن قضاء الله لهم هو الخير ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له "[1] .

۞ ۞ ۞

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

ثالثا : خصائص العقيدة الإسلامية

نعني بخصائص العقيدة الإسلامية أبرز السمات والملامح والمميزات التي تختص بها تلك العقيدة ، وتنفرد بها عن سائر العقائد المحرفة ، أو الأديان الوضعية ، أو المذاهب والأفكار الفلسفية المختلفة .

ومن المهم قبل أن نذكر تلك الخصائص تفصيلا أن نشير إلى عدة أمور:

أولا : أن خصائص العقيدة الإسلامية نابعة من خصائص دين الإسلام نفسه نظرا لأن العقيدة هي أهم عناصر الدين وأكثرها وجوبا ، ومن ثم نستطيع أن نقول إن سائر الخصائص التي سوف تذكر معنا آنفا هي خصائص العقيدة الإسلامية ، كما أنها خصائص دين الإسلام ككل .

ثانيا : أن كل ما سوف نذكره من خصائص للعقيدة الإسلامية فإنما يصدق في المقام الأول على العقيدة المتلقاة من الكتاب والسنة والتي كان عليها سلف الأمة الصالحون من الصحابة والتابعين ومن سار على منهاجهم واحتذى منوالهم بعيدا عن الآراء المحدثة والمذاهب والفرق المبتدعة المختلفة والمتصارعة .

ثالثا : ولا شك أن لمعرفة المسلم بخصائص عقيدته التي تميزها عن العقائد والمذاهب الأخرى الكثير من الآثار والفوائد العظيمة ، حيث يزيده ذلك إيمانا ويقينا وثقة في دينه ، وإدراكا لمدى نعمة الله عليه ورحمته به ، وقيمة الشيء كثيرا ما تبدو أكثر جلاء إذا ما قورن بغيره ، وكما قيل : وبضدها تتميز الأشياء .

ومن الفوائد الأخرى لمعرفة تلك الخصائص أنها ترشدنا إلى معرفة المنهج الأمثل للتعامل مع مسائل العقيدة وتلقيها والاستدلال عليها ، فما دامت تلك العقيدة عقيدة ربانية منزلة من عند الله ، فالطريق الوحيد لمعرفتها هو الوحي الإلهي ممثلا في القرآن والسنة ، ومن الخطأ الفادح أن نستعير أي منهج أو مصدر معرفي آخر للتعامل مع قضايا العقيدة . ودور العقل البشري هو حسن الفهم لها ، وإقامة البراهين على صحتها ، ورد شبه المشككين فيها ، وليس له أي مجال مطلقا في إنشاء العقيدة ابتداء أو تطويرها وتغييرها لاحقا كما يدعي المفترون .

١-الربانية(١)

وهذه الخصيصة هي أول وأبرز خصائص العقيدة الإسلامية وكل ما عداها فهو تبع لها ، والربانية مصدر صناعي منسوب للرب ؛ ومعنى الربانية الانتساب إلى الرب سبحانه وتعالى ، ويطلق على الإنسان أنه رباني إذا كان وثيق الصلة بالله ، عالما بدينه وشرعه ، كما قال تعالى ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[آل عمران: ٧٩] .

والمقصود بالربانية كخصيصة من خصائص العقيدة الإسلامية هو أن هذه العقيدة بجملتها وتفصيلها موحى بها من عند الرب سبحانه وتعالى ؛ وليس لأحد من البشر قط نصيب في إنشائها أو سلطة الزيادة أو النقص منها ، وحتى رسل الله صلواته وسلامه عليهم ليس لهم دور في إنشاء العقيدة

(١) انظر في الكلام عن هذه الخصيصة : سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ص ٤٣، ٤٤ ، ود. يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ص ٧ ، ٣٧ ، و د. عثمان جمعة ضميرية : مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ص ٣٨٥

أو إضافة شيء إليها وإنما يتلقونها تلقيا من عند الله سبحانه ، وتنحصر وظيفتهم في النقل الدقيق وإبلاغ البشر بها ، ثم بيانها وتوضيحها ، وترسيخها بالقول والفعل والتربية في نفوس المكلفين .

وقد تعددت الآيات القرآنية التي تبين أن ما جاء به الرسول (ﷺ) وحي من الله ، وأنه لا يستطيع أن يتقول شيئا من عنده – حاشاه من ذلك (ﷺ) – ومن تلك الآيات قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢] وقوله تعالى ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾[فاطر:٣١] وقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٦٧] وقوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ -٤٦].

وإذا قارن المسلم بين عقيدته الربانية هذه ، وبين سائر عقائد الأديان الأخرى فضلا عن الأفكار والتصورات البشرية الوضعية ، فإن باستطاعته أن يقول وهو مطمئن وواثق تماما : إن العقيدة الإسلامية هي العقيدة الوحيدة الباقية بأصلها الرباني وحقيقتها الربانية ، أما سائر العقائد التي جاءت بها الديانات السماوية السابقة فقد انتابها التحريف والتبديل ، وأضيفت إليها شروح وتصورات وأفكار وتأويلات بشرية ، بدلت من طبيعتها الربانية ، وبقي الإسلام وحده محفوظ الأصول ، لم يشب نبعه الصافي مثقال ذرة من كدر ، مصداقا لموعود الله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر:٩] .

والعقيدة الإسلامية بجملتها وتفصيلها – خلافا للعقائد الأخرى – وحي من الله سبحانه ، وليست من وضع مجمع من المجامع ، ولا من إضافة هيئة من الهيئات ، ولا من إملاء أحد من البابوات ، وليس لأحد من صحابة الرسول (ﷺ) مع علو مكانتهم ، ولا لأحد من أئمة الإسلام وفقهائه مع جليل قدرهم ، أن يزيد فيها أو ينقص منها ، خلافا لما عليه الحال في عقيدة كالنصرانية مثلا التي غيرها بولس عما كانت عليه تماما ، كما تفننت المجامع الكنسية المختلفة في الزيادة منها والنقصان والتغيير والتبديل ، تبعا لأهواء ورغبات الأباطرة والكهنة والبابوات .

وقبل أن ننهي الكلام عن هذه الخصيصة نود أن نشير سريعا إلى ما يترتب على ربانية العقيدة الإسلامية من ثمار وآثار في غاية الأهمية في نفس المؤمن ولعل من أبرزها : العصمة من التناقض أو التضارب الذي يصيب آراء البشر والمذاهب والأفكار الوضعية التي تتسم بما يتسم به البشر من قصور ونقص ومنها أيضا البراءة من التحيز والهوى ، وعدم التأثر بقيود الزمان أو المكان أو البيئة أو مصلحة جنس أو لون أو طبقة بعينها .

ومن آثارها أيضا عصمة الأمة المسلمة عن الخطأ والانحراف أو الاضطراب في فهم العقيدة ، لأنها ترجع إلى مصدر موثوق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كما أنها ضمانة لتوحيد كلمة الأمة على منهج واحد وتصور واحد عندما تلتقي على هذا الوحي الإلهي بما فيه من موازين لا تضطرب ولا تتأرجح ولا تتأثر بالهوى والدوافع الذاتية .

٢- التوقيفية

وهذه الخصيصة تابعة للخصيصة السابقة ومتفرعة عنها ، إذ طالما أن العقيدة الإسلامية ربانية المصدر والغاية ، وموحى بها في جملتها وتفصيلها من عند الله فمعنى ذلك أنها عقيدة توقيفية ، أي يوقف بها عند الحدود التي حددها وبينها وبلغها النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا مجال فيها لزيادة أو نقصان ، أو تعديل أو تبديل .

ويترتب على سمة التوقيفية هذه أمران في غاية الأهمية ، يجب أن ينتبه المسلم إليهما[1] .

الأول : أن يترسخ في اعتقاد المسلم أن الرسول (ﷺ) قد أوقف أمته على حقائق العقيدة كاملة ومفصلة ، بحيث لم يترك من مسائلها شيئا إلا بينه وأوضحه ، وهذا المعنى من ضروريات إكمال الدين الذي أخبر الله سبحانه عنه بقوله ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً** ﴾[المائدة:٣]

وبيان الرسول (ﷺ) لقضايا العقيدة وأصول الدين لا يقتصر فقط على المسائل دون الدلائل ؟ وإنما يشمل بيان المسائل والدلائل معا ، أي بيان مسائل العقيدة التفصيلية ومفرداتها ، ثم بيان الأدلة والبراهين الدالة على صحتها .

و أصول الدين إما أن تكون مسائل يجب اعتقادها قولا أو قولا وعملا كمسائل التوحيد والصفات والقدر والنبوة والمعاد ، وإما أن تكون دلائل هذه المسائل ، وقد اشتمل الكتاب والسنة على كلا الأمرين بأتم بيان وأوضح دليل[2] .

---

(١) انظر د. البريكان : المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ص ٦٢ – ٦٤ ، و د. عثمان جمعة ضميرية : مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ص ٣٨٣ – ٣٨٥.

(٢) انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٣ / ٢٩٥ ، ٢٩٦.

الثاني : أنه لابد من التوقيف في الكلام عن قضايا العقيدة ، ولاسيما ما يتعلق بأسماء الله وصفاته وسائر الغيبيات ، بحيث يلتزم المسلم بالكتاب والسنة لفظا ومعنى ، فلا يستعمل في التعبير عن العقيدة إلا الألفاظ التي جاءت بها النصوص الشرعية ، كما يجب أن تستعمل هذه الألفاظ فيما سيقت له من المعاني المرادة بها في الكتاب والسنة ، وبذلك يكون التوقيف متحققا في مصادر العقيدة ، وفي ألفاظها وأساليب التعبير عنها ، وإنما كان الأمر بهذه المثابة لأن العقل البشري مهما أوتي من قوة في الفهم والإدراك ، فليس بوسعه مطلقا أن يستقل بإدراك حقائق العقيدة على وجه التفصيل والإيضاح التام ، كما أن من قضايا العقيدة ما قد يعلو على إدراك العقل ويحار في كيفيته ، وإن كان العقل مع ذلك لا يمكنه أن يحكم ببطلانه أو استحالته ٠

٣- الشمول

والشمول من الخصائص التي يتميز بها الإسلام ورسالته ، ويتفوق بها على سائر ما عرفته البشرية من الأديان والفلسفات والمذاهب ، بكل ما تتضمنه كلمة الشمول من معان وأبعاد ، فهو شمول يستوعب الزمن كله ، ويستوعب الحياة كلها ٠

ورسالة الإسلام هي الرسالة التي امتدت طولا حتى شملت الزمان كله وامتدت عرضا حتى انتظمت آفاق الأمم ، وامتدت عمقا حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة ، وعقيدة الإسلام هي العقيدة الشاملة فيما تقوم عليه من أركان الإيمان وقواعده وما يتفرع عن ذلك ، والشاملة في نظرتها للوجود كله حيث تعرفنا على الله ، والكون ، والحياة ، والإنسان ، معرفة صحيحة وكاملة[١]٠

---

(١) انظر د٠ يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ص ٩٩ ، ود٠ عثمان جمعة ضميرية : مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ص ٣٨٨.

وهذا الشمول الذي تتميز بها رسالة الإسلام ناشيء من كونهـا رسـالة ربانية ومن وحي الخالق سبحانه وتعالى ، خلافا لتصورات ومناهج وأفكـار البشري التي يلازمها النقص والقصور ، وتتسم بالجزئية والوقتية .

والسبب في ذلك هو أن الإنسان ذو كيان محدود مـن ناحيـة الزمـان والمكان إذ هو حادث بعد عدم ، ومنته بعد حدوث ، ومتحيز في زمان معين ومكان معين ، سواء أكان فردا أو جيلا أو جنسا ، وهو كذلك محدود العلـم والتجربة والإدراك ، فعلمه ينشأ بعد حدوثه ، ويصل إلى درجة متناسبة مع وجوده الزماني والمكاني ، ثم هو فوق ذلك كلـه محكـوم بضـعفه وميلـه وشهوته ورغبته ومحكوم بقصوره وجهله .

ومن ثم فحينما يفكر هذا الإنسان في إنشاء تصور عقـدي أو مـذهب فكري ما فلابد أن يجيء تفكيره محكوما بالسمة التي تحكم كيانه كله ، فيكون تفكيرا جزئيا يصلح لزمان ولا يصلح لآخر ، ويصـلح لمكـان ولا يصـلح لآخر ، ويصلح لحال ومسنوى ولا يصلح لآخر ، ويستحيل أن يتناول الأمر الواحد من جميع زواياه وأطرافه ، ومن جميع ملابساته وأطـواره ، ومـن جميع مقوماته وأسبابه لأن هذه كلها ممتدة في الزمان والمكان ، وممتدة في الأسباب والعلل ، والإنسان على العكس من ذلك تماما[1].

وأما رسالة الإسلام الموحى بها من العليم الخبير سبحانه :-

- فهي شاملة لكل الأزمنة والأمكنة ، وليست موقوتة بعصـر معـين أو زمن مخصوص ، كما هو الشأن في رسالات الأنبياء السابقين .

- وهي رسالة للعالم كله غير محدودة بعصر ولا جيل ، وغير مقيـدة بكيان ولا أمة ولا بشعب ولا طبقة ، وإنما هي الرسـالة الشـاملة العامـة والعالمية التى تخاطب كل الأمم والأجناس والشعوب والطبقات .

---

(١) انظر : سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ص ٩١ ، ٩٢.

– وهي أيضا رسالة للإنسان في أطوار حياته كلها ، تصحبه طفلا ويافعا وشابا وكهلا وشيخا ، وترسم له في كل هذه المراحل المنهج الأمثل الذي يحبه الله ويرضاه ٠

– وأخيرا فهي رسالة للكيان الإنساني كله لا تقتصر على عنصر فيه على حساب آخر ، بل تخاطب الروح والعقل والجسم والضمير والوجدان والإرادة ، ولا تشطر الإنسان إلى قسمين : قسم روحي يتوجه للمعبد وآخر مادي يسعى في أمور الحياة الدنيا[1] وإنما منهج الله يسير معه ويضيء له الطريق في المسجد والمصنع والسوق والمدرسة والجامعة وكافة مجالات الحياة ، وشعار المسلم هو ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾[الأنعام:١٦٢]٠

وإذا كان الشمول سمة واضحة لرسالة الإسلام ، ومعلما من معالمه البارزة التي فاق بها الأديان والمذاهب الأخرى ، فمن اللازم أن تمتد آثار هذا الشمول والاستيعاب لكل شئون الحياة والإنسان إلى كافة جوانب الإسلام ، لا فرق في ذلك بين العقيدة أو الشريعة أو الأخلاق والنظم ٠

ويعنينا الآن أن نشير إلى بعض مظاهر هذا الشمول في جانب العقيدة والمتمثلة فيما يلي[2]:-

(١) انظر د٠ يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ص ٩٩ – ١٠٣.

(٢) انظر في الكلام تفصيلا عن هذه الجوانب : سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ص ٩٢ – ١١٣ ، والعقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٨ – ٢٨ ، ود٠ يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ص ١٠٦ – ١٠٨ ، ود٠ البريكان : المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ص ٦٢ – ٦٤ ، و د٠ عثمان جمعة : مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ود٠ عبد الحميد مدكور : دراسات في العقيدة الإسلامية ص ٧٩–٨٢ ود٠ سعد الدين صالح : العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث ص ٢٠ ، ٢١

١ - توصف العقيدة الإسلامية بالشمول لأنها تقدم التفسير الوحيد الصحيح والمقنع لكل القضايا الكبرى في هذا الوجود ، تلك القضايا التي شغلت الفكر الإنساني ، ولا تزال تشغله وتلح عليه بالسؤال ، وتتطلب الجواب الحاسم الذي يخرج الإنسان من الضياع والشك والحيرة وتنتشله من متاهات الفلسفة والنحل والمتضاربة قديما وحديثا مثل قضايا : الألوهية ، والإنسان ، والكون ، والنبوة والمصير •

وحقائق العقيدة الإسلامية وحدها هي التي تملك أن تعطينا تفسيرا مفهوما لوجود هذا الكون ابتداء ، ثم لكل حركة فيه بعد ذلك وكل انبثاقة ، كما أنها وحدها القادرة على أن تقدم لنا تفسيرا مقنعا نواجه به كل علامة استفهام عن وجود هذا الكون وعن كل انبثاقة تقع فيه ، دون أن نضطر إلى الهروب من سؤال واحد ، أو إلى المماحكة والمماحلة والإحالة إلى جهات غير محددة المفهوم ، كالإحالة إلى الطبيعة مثلا •

وإذا كانت بعض العقائد والمذاهب الفلسفية تعنى بقضية الإنسان دون قضية الألوهية والتوحيد ، أو بقضية الألوهية دون قضية النبوة والرسالة ، أو بقضية النبوة دون قضية الجزاء الأخروي ، فإن عقيدة الإسلام قد عنيت بهذه القضايا كلها ، وقالت كلمتها فيها بشمول واضح •

٢- وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول من ناحية أخرى وهي أنها لا تعتمد في ثبوتها على الوجدان أو الشعور وحده ، كما هو شأن الفلسفات الإشراقية والمذاهب الصوفية ، وكما هو شان المسيحية التي توجب على معتنقها أن يؤمن أولا ثم يعقل فيما بعد ، أو على حد قولهم : اعتقد وأنت أعمى •

وهي كذلك لا تعتمد على العقل وحده كما هو شأن جل الفلسفات البشرية التي تتخذ العقل وسيلتها الوحيدة في معرفة الله وحل ألغاز الوجود ، وإنما

تعتمد العقيدة الإسلامية على الفكر والشعور معا ، أو العقل والقلب جميعا ، باعتبارهما أداتين متكاملتين من أدوات المعرفة الإنسانية أو الوعي الإنساني ٠

ويتصل بهذا الجانب أيضا أن الحديث عن العقيدة في القرآن الكريم يأتي بأسلوب يخاطب الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وأشواقها ، وبكل حاجاتها واتجاهاتها ، ويردها إلى جهة واحدة تتعامل معها وتتوجه إليها بكل شيء وعندئذ تتجمع هذه الكينونة شعورا وسلوكا وتصورا واستجابة في شأن العقيدة والمنهج ، وفي شأن الاستمداد والتلقي ، وشأن الموت والحياة ، وشأن السعي والحركة ، وشأن الدنيا والآخرة ٠

٣- وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول أيضا لأنها عقيدة لا تقبل التجزئة ولابد أن تؤخذ بكل محتوياتها دون إنكار أو حتى شك في أي جزء منها ، فمن آمن بعقائد الإسلام كلها إلا واحدة لم يعد بذلك مسلما ، وإنما لابدَّ أن يؤمن بها جميعا ، ولا يجوز لمسلم أن يقول أنا مؤمن بالأنبياء كلهم باستثناء نبي واحد أو أن يقول أنا مؤمن ومتبع لما جاء به القرآن في أمور العبادات ولكني لا أستمد منه الأخلاق أو المعاملات أو النظم والعقوبات ، وقد أنكر الله على بني إسرائيل – وكذلك على كل من شاركهم في نفس الفعل – إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض ، فقال سبحانه : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٥] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾[النساء : ١٥٠ ، ١٥١] ٠

٤ – ومن الأوجه الأخرى التي تضاف لما سبق الشمولية في مفهوم الإيمان ، فالإيمان في الإسلام يشمل اعتقاد القلب وقول اللسان وعمل الجوارح والأركان ومن ثم فهو إيمان قلبي ينمي الوجدان ويزيل منه عناصر الذلة والانكسار لجميع القوى ، ويبعث فيه عناصر الكرامة والترفع عن الدنايا ، ويقترن بذلك انطلاق الجوارح لتواكب أعمال القلوب ، فلا ذلة ولا استكانة لطاغوت من طواغيت الأرض ، بل هي تابعة لعزة القلب وعلوه ، فيكون لكل عمل نبيل غاية ونهاية وهي رضا الله سبحانه وتعالى ، وأما العبادة فهي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة[1]، وبذلك لا تترك مجالا من مجالات الحياة إلا شملته .

ويبقى أن نشير أخيرا إلى أثر مهم من آثار خصيصة شمول العقيدة الإسلامية وهو أنه إضافة لكون هذا الشمول مناسبا للفطرة ومريحا لأنه يواجهها بمثل طبيعتها الموحدة ولا يكلفها عنتا ولا يفرقها مزقا – فهو أيضا يعصم نفس المسلم من الاتجاه لغير الله في أي شأن وأي لحظة ، أو قبول أي سيطرة تستعلي عليها بغير سلطان الله وفي حدود منهج الله وشريعته في أي جانب من جوانب الحياة فليس الأمر والهيمنة والسلطنة لله وحده في أمر العبادات الفردية ولا في أمر الآخرة وحدها ، بل الأمر والهيمنة والسلطة لله وحده في الدنيا والآخرة ، وفي السماوات والأرض ، وفي عالم الغيب والشهادة ، وفي العمل والصلاة ، وفي كل نفس وحركة وكل خالجة وخطوة وكل اتجاه .

(١) انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١٠ / ١٤٩.

٤- الوسطية :

والوسطية هي العدل والتوسط بين الطرفين المتقابلين أو المتضادين ، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ويطرد الطرف الآخر ، أو يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه ويطغى على مقابله ويحيف عليه ، وهي سمة بارزة لدين الإسلام ورسالته ومن حكمة الله أن اختارها شعارا لهذه الأمة المسلمة التي هي آخر الأمم ، وقد وصفها بذلك فقال ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[البقرة:١٤٣] ولفظة الوسط هنا تعني العدل ، كما أنها تستلزم الخيرية والفضل والتمييز ، وإذا كان من المتصور أن يوجد نوع من الميل إلى جانب على حساب الآخر في رسالة مرحلية محدود الزمن والإطار – مثلما مالت المسيحية إلى جانب الروح على حساب المادة لتعالج التطرف في التعلق بالمادة الذي كان موجودا عند اليهود – فمن المستحيل أن يوجد غير الوسطية والعدل في الرسالة الأخيرة والخاتمة[١]٠

وإذا كانت الوسطية من سمات الإسلام وخصائصه البارزة ومن صفات الأمة المسلمة ، فمن الضروري أن تتجلى آثارها واضحة في كل جوانب الإسلام من عقيدة وشريعة وتربية وأخلاق ونظام حياة ، وسوف نركز فيما يلي على إبراز وسطية العقيدة من جانبين الأول وسطية العقيدة الإسلامية مقارنة بالعقائد الأخرى ، والثاني وسطية عقيدة أهل السنة والجماعة مقارنة بعقائد المذاهب والفرق الكلامية الأخرى من خوارج ومعتزلة وأشاعرة وشيعة وغيرهم ٠

---

(١) انظر د٠ يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ص ١١٩ ، ١٢٣ ، ود٠ أحمد فهمي : في رحاب العقيدة الإسلامية ص ٧١.

أولا : وسطية العقيدة الإسلامية مقارنة بالعقائد الأخرى[1]:

أ – العقيدة الإسلامية وسط بين معتقدات الخرافيين الذين يسرفون في الاعتقاد فيؤمنون بغير مستند أو برهان ويصدقون بكل شيء ، وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس ولا يستمعون لصوت الفطرة ولا نداء العقل ، وأما العقيدة الاسلامية فهي تدعو الى الايمان ، ولكن بما قام عليه الدليل والبرهان كما قال تعالى ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[البقرة : ١١١ ،النمل : ٦٤]٠

ب – وهي وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط ، خانقين صوت الفطرة في صدورهم ، ومتحدين منطق العقل في رءوسهم ، وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبدوا الأبقار والأحجار والأشجار ، وأما عقيدة الإسلام فتقوم على الإيمان بإله واحد أحد ليس له شريك ولا والدة ولا ولد ، وكل ما عداه فعباد مخلوقون مربوبون لرب العالمين جل وعلا ٠

ج – وهي وسط في صفات الله بين عقيدة اليهود الذين شبهوا الخالق بالمخلوق فوصفوا الخالق بالصفات التي تختص بالمخلوق ، وهي صفات النقص فقالوا إن الله فقير وإن الله بخيل وإن الله تعب لما خلق العالم فاستراح ، وبين عقيدة النصارى الذين شبهوا المخلوق بالخالق ، فوصفوا المسيح بالصفات المختصة بالخالق سبحانه وقالوا إنه الله ، وأما العقيدة الإسلامية فتصف الخالق بصفات الكمال وتنزهه عن صفات النقص ، كما تنزهه أن يكون أحد كفوا له في شيء من صفات الكمال ، فهو منزه عن صفات النقص مطلقا ، ومنزه في صفات الكمال أن يماثله فيها شيء من المخلوقات ٠

---

(١) انظر ابن تيمية : الصفدية ٢ / ٣١٠ – ٣١٢ ، مجموع الفتاوى ٣ / ١٤١ ، ٦٨٠ والنبوات ص ١٤٧ ، والجواب الصحيح ١/ ٦٩ – ٧١ ، وابن عثيمين : شرح العقيدة الواسطية ٢ / ٦٣ ، ٦٤ ، ود٠ يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ص ١٢٧ – ١٢٩ ، ود٠ أحمد فهمي : في رحاب العقيدة الإسلامية ص ٧٢.

د – وهي وسط في نظرتها إلى الأنبياء عليهم السلام بين اليهود الذين كذبوا الأنبياء وقتلوهم ، كما قال الله تعالى فيهم ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾[البقرة : ٨٧] كما نسبوا إليهم القبائح التي يستحيل صدورها من نبي ألبتة ، وبين النصارى الذين غلوا في الأنبياء فأشركوا بهم وبمن دونهم فيما هو من حق الله الخالص ، كما قال الله تعالى فيهم ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) [التوبة:٣١]

وأما المسلمون فقد آمنوا بهم كلهم ، ولم يفرقوا بين أحد منهم ، إذ الإيمان بجميع النبيين فرض واجب ، ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بهم كلهم ، ومن سب نبيا من الأنبياء فهو كافر ، قال تعالى ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[البقرة : ١٣٦].

ثانيا : وسطية عقيدة أهل السنة والجماعة مقارنة بالمذاهب والفرق الكلامية الأخرى(١):

وإذا كانت الأمة الإسلامية وسطا بين الأمم الأخرى ، فإن أحق طوائف الأمة بهذا الوصف هم أهل السنة والجماعة ممن ساروا على منهج الرسول

---

(١) انظر في تفصيل الكلام عن هذه المسألة ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٣ / ١٤١، ١٦٨ والصفدية ٢ / ٣١٣ ، ٣١٤ ، والجواب الصحيح ١/ ٧١ – ٧٣ ، ٤ / ٣٩٤ – ٣٩٧ وابن القيم : بدائع الفوائد ١ / ١٨٠ ، وابن عثيمين : شرح العقيدة الواسطية ٢ / ٦٥ – ٧٦ ود. عثمان علي حسن : منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد ١ / ٤٦ – ٤٨ود. البريكان : المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ص ٩١- ٩٩ ، ود. محمد باكريم :وسطية أهل السنة والجماعة بين الفرق.

(ﷺ) وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعقيدتهم هي العقيدة الوسط إذا ما قورنت بعقائد الفرق الأخرى في سائر أبواب العقيدة وأصولها الكبار ٠

أ – فهم وسط في باب الصفات بين المعطلة ممن نفوا صفات الله وعطلوها كليا أو أثبتوا بعضها ونفوا البعض الآخر بحجة تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين وبين المشبهة ممن غلوا في الإثبات وجعلوا صفات الله كصفات المخلوقين ومثلوا الله تعالى بخلقه ، وأما أهل السنة فهم يثبتون لله سبحانه كل ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله (ﷺ)دون تعطيل أو تحريف أو تكييف أو تشبيه أو تمثيل ٠

ب– وهم وسط في باب أسماء الدين والإيمان – وهي الأسماء التي رتب الله عليها وعدا ووعيدا كمؤمن ومسلم وكافر وفاسق ونحو ذلك – بين الوعيدية الذين سلبوا عن العاصي اسم الإيمان في الدنيا وسموه إما كافرا كما تقول الخوارج وإما في منزلة بين المنزلتين كما تقول المعتزلة ، وبين المرجئة والجهمية ممن يخرجون العمل عن مسمى الإيمان ، ويرون أن العاصي مؤمن كامل الإيمان وأما أهل السنة فيرون أنه لا يصح إطلاق الاسم ولا ترتيب الوعد والوعيد عليه إلا وفقا لما جاءت به النصوص الشرعية ، والعاصي بكبيرة من الكبائر هو مؤمن من جهة وفاسق من جهة ، فهو مؤمن ناقص الإيمان وليس كافرا أو في منزلة بين المنزلتين ٠

ج– وهم وسط في باب القضاء والقدر وأفعال العبد بين الجبرية ممن غلوا في إثبات القدر حتى سلبوا الإنسان قدرته واختياره وجعلوه مثل ريشة في مهب الريح فلا قدرة له ولا فعل، وإنما هو مجبر على أفعاله ، وبين القدرية ممن جعلوا العبد مستقلا بفعله وخالقا له ، وليس للقدرة والمشيئة الإلهية دخل في أفعال العبد مطلقا ، وأما أهل السنة فقد قالوا إن للإنسان

اختيارا وإرادة وهو مسؤول تماما عن أفعاله الاختيارية لكن كل فعل له إنما يقع بمشيئة الله وقدرته وهو مخلوق لله تعالى الذي لا يقع في ملكه ما لا يشاؤه أو يريده .

د- وهم وسط في أصحاب رسول الله (ﷺ) بين الشيعة والخوارج والنواصب ، فليسوا كالخوارج ممن كَفَّروا كثيرا من الصحابة ، وليسوا كالشيعة ممن غلوا في علي رضي الله وأهل بيته ووقعوا في أبي بكر وعمر وطائفة من كبار الصحابة ، كما أنهم ليسوا مثل النواصب ممن عادوا عليا رضي الله عنه وأهل البيت وانتقصوا كثيرا من مكانتهم وجحدوا ما صح من مناقبهم ، وأما أهل السنة فهم يحبون الصحابة جميعا ويوالونهم ولا يكفرون أحدا منهم ، كما لا يغلون فيهم ولا يرفعونهم فوق المكانة التي أمرنا الله بإنزالهم إياها .

هـ- وهم وسط في باب المنقول والمعقول بين طائفة غلت في المعقولات حتى جعلت ما ليس معقولا من المعقول ، وقدمته على الحس ونصوص الرسول وبين طائفة أخرى جفت عن المعقولات وأهملتها فردت المعقولات الصريحة وقدمت عليها ما ظنته من السمعيات والحسيات ، وأما أهل السنة فهم يعتمدون على النقل الصحيح والعقل الصريح ، ويرون أن ما علم بمعقول صريح لا يخالفه قط لا خبر صحيح ولا حس صحيح ، وكذلك ما علم بالسمع الصحيح لا يعارضه عقل ولا حس ، وكذلك ما علم بالحس الصحيح لا يناقضه خبر ولا معقول ، ومن المحال أن يتعارض صحيح المنقول مع صريح المعقول .

٥ – الوضوح

ومن سمات العقيدة الإسلامية البارزة : الوضوح والبيان ، وخلوها من التعارض والناقض ، والغموض والتعقيد في ألفاظها ومعانيها ، وذلك لأنها مستمدة من كلام الله المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ومن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى ، بينما المعتقدات الأخرى هي نتاج لتخليط البشر أو تأويلهم وتحريفهم ، وشتان بين وحي الخالق وأفكار البشر[١].

ويعتبر الوضوح إحدى خصائص الإسلام العامة وميزاته البارزة والتي تتجلى في كل جوانب هذا الدين ، سواء فيما يتعلق بالأصول والقواعد ، أم بالمصادر والمنابع ، أم بالأهداف والغايات ، أم بالمناهج والوسائل[٢].

فمصادر الإسلام الأساسية التي تستقى منها عقائده وشرائعه واضحة ومبينة ومحددة ، وهي متمثلة في القرآن والسنة ، وكلاهما قد بلغا الغاية في البيان والوضوح ، فالقرآن كتاب ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[هود: ١] ومن أوصافه وأسمائه أنه كتاب مبين ونور وبرهان وفرقان وتبيان ، وكلام النبي صلى الله عليه وسلم في قمة الفصاحة والبيان ، بل إن من مقاصد إيحائه الأساسية أن يبين للناس ما نزل عليهم كما قال سبحانه ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل: ٤٤].

---

(١) انظر د. ناصر بن عبد الكريم العقل :بحوث في عقيدة أهل السنة والجماعة ص ٣٥.

(٢) انظر د. يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ص ١٧٧ – ٢٠٢ ، ود. سعد الدين صالح : العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث ص ٢٢ ، ٢٣.

وأهداف الإسلام وغاياته واضحة وتتمثل في إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الشرك إلى التوحيد ، وتعبيدهم لربهم جل وعلا ، وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ٠

وأصول الإسلام العقدية كتوحيد الله والإيمان بكتبه ورسله واليوم الآخر واضحة ويسيرة الفهم ، وخالية من كل تعقيد أو غموض ، وقد قام على صحتها ما لا يحصى من البراهين النقلية والعقلية والفطرية الكافية لإقناع كل عقل أيا كان مقداره من العلم والمعرفة ٠

فالتوحيد مثلا قضية واضحة في ضمير كل مسلم ، ودليلها أيضا واضح في فكره ، كما أن أثرها واضح في حياته ، وكيف لا وهو يستقبل الحياة بالتوحيد حينما يؤذن له والده أو وليه في أذنه ، ويودعها بالتوحيد حيث يسن أن يلقن المحتضر لا إله إلا الله ٠

وفي مقابل هذا الوضوح والبيان في العقيدة الإسلامية نجد العقائد والمذاهب الفلسفية الأخرى مليئة بالصعوبة والتعقيد والغموض واستحالة الفهم ، حتى صار شعار البعض منها كالمسيحية اعتقد أولا ثم فكر ، كما تضمنت الكثير من الأسرار التي لا يستطيع أحد فهمها سوى قلة من رجال الكهنوت الذين يزعمون كذبا أنهم قد وقفوا على تلك الأسرار ، مع أن الخلاف بينهم دائم ومستمر ٠

ويكفي أن نضرب مثلا لذلك بقضية طبيعة المسيح عليه السلام ، وهل هو إله أم ابن إله ، أم بشر خالص ، أم بشر حل فيه الإله ، أم جزء من أقانيم ثلاثة يتكون منها الإله ، وقد عقدت المجامع الكنسية للفصل في تلك المسائل وتفرق النصارى بسببها شيعا وأحزابا ، مع أن الحق فيها واضح ويسير وهو أن المسيح عبد الله ورسوله وكلماته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وليس إلها ولا ابن إله ولن يستنكف قط أن يكون عبدا لله سبحانه ٠

٦ – موافقتها للفطرة

فالعقيدة الإسلامية ليست غريبة عن الفطرة ولا مناقضة لها ، بل هي منطبقة عليها تمام الانطباق ، ويتجلى وصف العقيدة الإسلامية بالفطرية من وجهين :

فهي أولا عقيدة فطرية ، بمعنى أنها مغروسة في نفس الإنسان منذ ولادته ونشأته الأولى ، وكل ما يحتاجه هو التذكير بتلك الحقيقة الراسخة والمستقرة في وجدانه .

ثم هي عقيدة فطرية بمعنى ثان وهي أنه لا توجد حقيقة من حقائق العقيدة الإسلامية تتعارض أو تتناقض مع الفطرة الإنسانية السوية ، وكل أصول العقيدة الكبرى كالإيمان بالله وتوحيده والنبوات والبعث والجزاء يمكن للفطرة البشرية أن تهتدي إليه بيسر وسهولة .

ومن المهم أن نشير إلى أن فطرية العقيدة الإسلامية فرع عن فطرية دين الإسلام ككل ، كما قال سبحانه ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[الروم:٣٠] وقال النبي (ﷺ) : " كل مولود يولد على الفطرة "[١] وأكثر أهل العلم على أن المراد بالفطرة هنا الإسلام[٢] لكن يجب أن نضع في اعتبارنا أن من فسر الفطرة بالإسلام لا يعني بذلك أن كل مولود

---

(١) رواه البخاري (١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٨٥ ، ٤٧٧٥ ، ٦٥٩٩) ،ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) انظر ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٣ / ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، وابن عبد البر : التمهيد ١٨ / ٦٦ – ٧٦ ، وابن حجر : فتح الباري ٣ / ٢٤٨ – ٢٥١ ، ١٠ / ٣٣٩ ، والنووي:شرح صحيح مسلم ١٦ / ٢٠٨،وابن تيمية :درء التعارض٨ /٣٥٩ – ٤٢١ وابن القيم : شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ص ٦٠٧.

يخرج من بطن أمه عالما بالدين كله ، ومدركا لحقائقه وتفصيلاته ، فذلك أمر غير متصور عقلا أو واقعا ، وإنما المراد أن فطرته موجبة ومقتضية لدين الإسلام ، فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه وربوبيته والتعبد له ، ومحبته وإخلاص الدين له ، ومقتضيات الفطرة تحصل شيئا بعد شئ ، ولو خلي وعدم المعارض لهذا المقتضي لم يعدل عن الإسلام إلى غيره ، تماما كما يولد على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة ، فتشتهي نفس المولود اللبن الذي يناسبه ويغذيه[1] .

٧- اليسر والسهولة

وهي من خصائص العقيدة الإسلامية النابعة من طبيعة الإسلام ذاته ، فدين الإسلام كله بعقائده وشرائعه وأخلاقه يسر لا عسر فيه بأي وجه من الوجوه والحرج والمشقة مرفوعان ومنفيان جملة وتفصيلا ، والتخفيف عند وجود المشقة قاعدة أصيلة من قواعد الدين .

وكما يقول الإمام الشاطبي – رحمه الله : "إن التكاليف الاعتقادية والعملية مما يسع الأمي تعقلها ، ليسعه الدخول تحت حكمها " ثم يصف الأمور العقدية بأنها لابد أن " تكون من القرب للفهم والسهولة على العقل بحيث يشترك فيها الجمهور ، مَن كان منهم ثاقب الفهم أو بليداً ، فإنها لو كانت مما لا يدركه إلا الخواص ، لم تكن الشريعة عامة ، وقد ثبت كونها كذلك ، فلابد أن تكون المعاني المطلوب علمها واعتقادها سهلة المأخذ "[2]

(١) انظر ابن القيم : شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ص ٦١٨.

(٢) الشاطبي : الموافقات ٢ / ٨٨ .

وقد تكررت الإشارة إلى يسر الدين وانتفاء الحرج والمشقة كثيرا في الكتاب والسنة ، ومن ذلك قول الله سبحانه ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[البقرة: ١٨٥] وقوله سبحانه ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء:٢٨] وقوله سبحانه ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ ﴾[الأنفال: ٦٦] وقال سبحانه ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ﴾[المائدة: ٦] وقوله سبحانه ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج:٧٨] .

وببعثة النبي (ﷺ) وضع الله عنا الآصار والأغلال التي كانت على من كانوا قبلنا كما قال سبحانه ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[الأعراف: ١٥٧] " وقال النبي (ﷺ) " إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه "[١] ومن هديه وأخلاقه أنه " ما خير بين أمرين إلا أختار أيسرهما ما لم يكن أثما "[٢] .

ويتجلى يسر العقيدة الإسلامية من وجوه عديدة : منها أن المصادر التي تعتمد عليها وهي القرآن والسنة سهلة ويسيرة لمن رام تفهمها وتدبرها ، كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر:١٧] وقد أنزل الله القرآن بلسان عربي مبين ومفصل ، حتى تنقطع حجج العباد ولئلا يحتج أحد باستحالة الفهم أو صعوبة الإدراك لما تضمنه من معان ومقاصد وأما سنة النبي صلى الله عليه وسلم فقد أُعطي الرسول جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصارا ، وجاءت أحاديثه في الذروة العليا من الفصاحة والبيان .

---

(١) رواه البخاري (٣٩) والنسائي (٥٠٣٤).
(٢) رواه البخاري (٣٥٦٠ ، ٦١٢٦) ومسلم (٢٣٢٧).

ومن هذه الأوجه أيضا أن هذه العقيدة عقيدة سهلة تخلو من التعقيد والصعوبة والغموض أو الأسرار كبعض العقائد الأخرى ، فأصول العقيدة الإسلامية واضحة ومحدودة ويمكن فهمها واستيعابها من الكبير والصغير والمتعلم والأمي والحضري والبدوي وقد كان الأعرابي يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيسأله عن الإسلام بعقائده وأحكامه فيعلمه الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك في كلمات معدودة ٠

ونضرب لذلك مثالا بما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال " نهينا أن نسأل رسول الله (ﷺ) عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية فقال يا محمد أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ؟ قال صدق ، قال فمن خلق السماء ؟ قال الله ، قال فمن خلق الأرض ؟ قال الله ، قال فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال الله ، قال فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال آلله أرسلك ؟ قال نعم ، قال وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا ، قال صدق قال فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال نعم ، قال وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا ، قال صدق قال فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال نعم ، قال وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا ؟ قال صدق قال فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال نعم قال وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا قال صدق ، قال ثم ولى فقال والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لئن صدق ليدخلن الجنة [1] فها هو النبي (ﷺ) قد جمع لهذا الأعرابي أصول الدين وفرائضه في كلمات وجيزة ، وبأسلوب سهل يسير ، لا يصعب عليه فهمه أو إدراكه ٠

---

(١) رواه البخاري (٦٣) ومسلم (١٢).

٨ – التكامل[1]:

والعقيدة الإسلامية تتميز بالتكامل بمعنى أن جميع أجزائها وجوانبها تتجمع وتترابط ترابطاً دقيقاً بحيث يأخذ بعضها بحجز بعض ، لتشكل كلاً موحداً متناسقاً لا يقبل التجزئة والانفصام ، وهناك الكثير من المظاهر والشواهد الدالة على هذا التكامل .

– منها أن العقيدة في الإسلام وحدة متشابكة ومترابطة ، إذا هدم أصل من أصولها خرج صاحبها من دائرة الإسلام ، فالذي يكفر باليوم الآخر أو الجنة أو النار أو يكذب الرسل أو واحداً منهم أو يكفر بالملائكة أو بواحد ممن أخبر الله عنهم فهو كافر خارج من الملة كما قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ [النساء : ١٥٠،١٥١].

كذلك ذم الله أهل الكتاب لكفرهم بما أنزل الله على محمد (ﷺ) وادعائهم أنهم آمنوا بالله فقال سبحانه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩١] ومن هنا يظهر لنا خطأ إطلاق اسم الإيمان هكذا دون تقييد على من

---

(١) انظر د. عبد اللطيف العبد : رد مزاعم المبطلين عن أصول الدين ص ٨ ، ود. عمر الأشقر : نحو ثقافة إسلامية أصيلة ص ٨٨ ، ٨٩ ، و د. عثمان جمعة ضميرية : مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ص ٣٩٠ – ٣٩٢ .

آمنوا بوجود الله من الكفار ولو لم يعبدوه ويوحدوه ، ويؤمنوا بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فالإيمان بوجود الله وحده لا يكفي ٠

– ومنها أن أركان الإيمان كلها مترابطة ترابطا وثيقا يكمل كلا منها الآخر ويرتبط به وتتجمع وتتضام حول الركن الأساسي وهو الإيمان بالله تعالى ومن ثم تأتي الأركان كلها في سياق واحد يحقق صفة الإيمان لصاحبه وتأتي النصوص القرآنية كذلك لتؤكد الارتباط بين الإيمان بالله والإيمان بالملائكة ، وتقرن الإيمان بالله مع الإيمان باليوم الآخر وتجعل الإيمان بالرسل أمرا لا يتجزأ ولابد من الإيمان بهم جميعا ٠

– ومنها أن هناك صلة وثيقة وتكاملا واضحا بين العقيدة من جهة وبين العبادات والمعاملات وسائر الأحكام الشرعية العملية والخلقية من جهة أخرى ، حيث تمتزج الأحكام التشريعية بالأحكام الأخلاقية النابعة من الإيمان بالله تعالى وخشيته وتقواه ٠

۞ ۞ ۞

رابعا : حقائق العقيدة بين الثبات والتطور(١)

وأرى من الضروري أن نبدأ أولاً ببيان المقصود من عنوان المسألة التي نحن بصددها ، كي يتحدد محل البحث بصورة دقيقة ، ومنعا لما يمكن أن يقع من التباس في المفاهيم ، فحقائق العقيدة تعنى ما ثبت بالفعل أنه عقيدة من خلال دليل معتبر وحجة مقبولة ، أي بآية قرآنية ، أو حديث صحيح ، أو إجماع ثابت وبذلك يخرج من هذا المفهوم كل ما لم تتوافر فيه الشروط المذكورة ، كما تخرج المحاولات المتعددة للبرهنة على مسائل الاعتقاد أو الدفاع عنها ، والتي شكلت في مجموعها ما يعرف بعلم الكلام ، وهى أيا كانت قيمتها ليست سوى جهد بشري ، قابل للصواب أو الخطأ ، وللقبول أو الرفض.

وعلى جانب آخر فمن المهم أن نفرق بين مصطلح " التطور" ومصطلح آخر قد يبدو مشابها له بعض الشيء ، وهو مصطلح " التجديد " والذي دار حوله كلام طويل ، ونكتفي الآن بالإشارة إلى أن التجديد كمعنى لغوى ، ومفهوم إسلامي ورد في بعض الأحاديث يعنى الإحياء والبعث والإعادة ، وإذا أطلق انصرف الذهن إلى تصور مكون من ثلاثة عناصر ، وهي : أولاً وجود الشيء وكينونته ، ثانيا تعرضه للبلى واندراس شيء من حقيقته ومكوناته ، ثالثا محاولة إحيائه وإعادته إلى حالته الأولى التي كان عليها ، وليس الإتيان بكيان مغاير(٢) .

ويفهم من ذلك أن تجديد الدين ليس إلا محاولة العودة به إلى ما كان عليه في أول نزوله صافيا نقيا ، وخاليا عن الإضافات والتحريفات ، والأفهام الخاطئة التي لحقت به عبر تاريخه الطويل ، وإظهاره بصورة ناصعة ومشرقة ، وهو لا يعنى بحال " اختراع إضافة لدين الله ، وإنما يعنى تطهير الدين الإلهي من الغبار الذي يتراكم عليه ، وتقديمه في صورته الأصلية

---

(١) انظر أحمد قوشتي عبد الرحيم : مناهج الاستدلال على مسائل العقيدة الإسلامية بمصر في العصر الحديث ص ٣٨٣ – ٣٩٧

(٢) انظر بسطامي سعيد : مفهوم تجديد الدين ص ١٤ ، ١٥ ، ١٨.

النقية الناصعة ، إن الغبار الذي يتراكم على الدين الإلهي ظل من نوع واحد على مر العصور وهو الإضافة البشرية إلى المتن السماوي ، وتـــأتي هـــذه الإضافة في بداية الأمر بسبب عوامل وقتية ، ولكنها بمضي الزمن تصـــبح شيئا مقدسا ، حتى تعتبر جزءًا من الدين الإلهي ، ويؤمن بها الناس إيمـــانهم بالوحي السماوي "[1] .

أما مصطلح " التطور " فيطلق ويراد به أكثر من معنى ، منها أنه " نمو بطيء متدرج يؤدى إلى تحولات منظمة ومتلاحقة ، تمر بمراحل مختلفـــة يؤذن سابقها بلاحقها "[2] والتطور بهذا المعنى لا يتضمن في ذاته فكرة التقدم أو التخلف ، ولا الكمال أو النقص ، وإنما يعبر عن التحولات التي تتم لشيء ما سواء أكانت ملائمة أو غير ملائمة[3] .

وثمة إطلاق آخر للتطور يراد به الترقي من الـــنقص إلـــى الكمـــال ، والانتقال من الأدنى إلى الأعلى ، أو من الأقل كمالاً إلى الأكثـــر كمـــالاً ، وعلى كلا الإطلاقين نلاحظ أن التطور يستلزم ولابد تغييرًا دائما من حـــال إلى حال ، وهو تغيير مستمر ودائم ، لا ينتابه سكون أو توقف[4] .

ولاشك أن حقائق العقيدة بالمفهوم الذي أسلفناه تتسم بالثبات والقطعيـــة ويستحيل أن تتبدل أو تتطور ، لأنها وحي من الله أنزله على رسوله صـــلى الله عليه وسلم ، وبوفاة النبي اكتمل الدين وتم الشـــرع أصـــولاً وفروعـــا ، واعتقادًا وعملاً ، ولم يعد فيه مجال للزيادة أو النقصان ، كما قـــال تعـــالى ﴿ **ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا** ﴾ [المائدة : ٣] كما أن الله قد تكفل بحفظ الدين فقـــال ﴿ **إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا**

---

(١) وحيد الدين خان : تجديد علوم الدين ص ٩ ، ترجمة ظفر الإسلام خان.

(٢) المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية ص ٤٧.

(٣) انظر د. عبد الرحمن بيصار : العقيدة والأخلاق ص ٣٦ ، ود. محفـــوظ عـــزام : نظرية التطور عند مفكري الإسلام ، دراسة مقارنة ص ١٧

(٤) انظر د. محمد عبد الله دراز : الدين ص ١٠٦ ، ود. محمد البهـــي : الإســـلام والفلسفات المعاصرة ص ٤٦ – ٥٢ ، ود. عبد الحليم محمود : الإســـلام والعقـــل ص ٢٢٧ ، والفتاوى ٢ / ٤٧٦ ، ود. محفوظ عزام : نظرية التطور عند مفكـــري الإسلام ، دراسة مقارنة ص ١٧

الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[الحجر : ٩] ، مما يعني حفظ مصادره ، وحفظ أصوله وعقائده وكلياته ، وبقائه أبد الدهر مصونا عن التغيير ، وسالما ومنزها عن التحريف أو التبديل .

ونضيف إلى ذلك أن مصطلح العقيدة نفسه ، والذي يدور مفهومه حول الوثاقة والشدة ويشترط فيه الجزم والقطع ، والابتناء على الحجة والبرهان ، يتنافى تمامًا مع سمة التطور ، والتي تقترن دائمًا بنسبية المعرفة ، ونموها مع مرور الزمان ، وإمكان تغيرها من مرحلة لأخرى ، أما العقيدة فهي عبارة عن مجموعة حقائق مكتملة من جميع جوانبها تخبر عما هو واقع بالفعل ، وقد جاءت في صورة أحكام متصفة بالقطعية والثبات لا ينالها الاحتمال أو التأجيل أو الإستحداث ، نظرًا لتعلقها بجانب التصديق العقلي والقلبي ، الذي تتصف أحكامه باليقينية ، ولأنها منظومة مكتملة وثابتة في نفسها مهما تغيرت أوضاع الحياة الواقعية ، ولا مجال فيها مطلقا لاستحداث آراء جديدة ، أو تطوير الموجود منها[1] .

وقد اتفقت الأمة سلفا وخلفا ، وعبر عصورها المتلاحقة على كمال الدين وتمامه وعدم قابليته للزيادة أو النقصان ، وينقل ابن حزم هذا الاتفاق فيقول " واتفقوا — أي المسلمون جميعا — أنه مذ مات النبي (ﷺ) ، فقد انقطع الوحي ، وكمل الدين واستقر ، وأنه لا يحل لأحد أن يزيد شيئا من رأيه بغير استدلال منه ، ولا أن ينقص منه شيئا ، ولا أن يبدل شيئا مكان شيء ، ولا أن يحدث شريعة ، وأن من فعل ذلك كافر "[2] .

وفضلا عن هذا الإجماع ، فهناك الكثير من اللوازم الخطيرة التي تنشأ عن إقرار مبدأ تطور العقائد ، ويأتي في مقدمتها نزع الثقة والقطعية والعصمة عن العقيدة الموحى بها من الله سبحانه ، وهز الثقة بها في نفوس المؤمنين ، وتركها للأهواء المختلفة والمتضاربة ، فمن الذي سوف يقوم بتطويرها ؟ وكيف سيتم ذلك ؟ ثم ما المرجعية أو الضابط الذي يرجع

---

(١) انظر د. عبد المجيد النجار : في فقه التدين ، فهما وتنزيلا ٢ / ١٩ ، ٢٠ ، ٥٨.

(٢) ابن حزم : مراتب الإجماع ص ١٩٥.

إليه عند الاختلاف ؟ وهل لهذا التطوير حدود ؟ أم أنه مفتوح ليشمل كافة قضايا الاعتقاد ومنها وجود الله ، ووحدانيته ، وإثبات الرسالة ، وصدق القرآن ؟

أما الاعتراض على فكرة ثبات حقائق الإسلام وعقائده ، والدعوة إلى تطويرها بحجة أن الحركة قانون مطرد من قوانين الكون ، وضد الحركة يعني الجمود والسكون والتخلف ، وكذلك بالقياس على ما يحدث لسائر التصورات والمذاهب والأنظمة التي يصنعها البشر لأنفسهم من تطور ، فالجواب على ذلك من عدة وجوه :

الأول : أنه لا خلاف على كون الحركة قانونا من قوانين الكون ، وكذلك من قوانين الحياة البشرية باعتبارها قطاعا من الحياة الكونية ، لكن مع ذلك فلا يوجد ما يسمى بحركة مطلقة دون قيد ولا ضابط ولا نظام ، فلكل نجم وكوكب فلك ومدار ومحور يدور حوله ، والذرة بدورها لها نواة ثابتة تدور حولها الإلكترونات في مدار ثابت ، وبدون ذلك المحور الثابت تنتهي الأمور لا محالة إلى حالة من الفوضى والدمار ، وانعدام النظام بالكلية ، ومن ثم يصبح التوصيف الحقيقي والصحيح لسمة الحركة في الكون أنها الحركة داخل إطار ثابت ، وحول محور ثابت[1].

وهذا بعينه هو الموجود في الإسلام ، فهناك تصور رباني كلي ثابت تدور الحياة البشرية حوله ، وتتحرك من خلاله ، وهو مع ثباته في قيمه وأصوله ، لا يعني تجميد حركة الفكر والحياة ، وإنما يسمح بالحركة ، بل يدفع إليها دفعا في بعض الأحيان ، لكنها الحركة داخل الإطار الثابت ، ودون الخروج عليه أو التفلت من ضوابطه وقوانينه وهذا كله خلافا للمذاهب والأنظمة البشرية التي تتطور وتتغير من وقت لآخر ، لأنها من صنع البشر القصار النظر ، والذين لا يرون إلا ما هو مكشوف لهم من الأحوال والأوضاع ، دون ما تأتي به الأيام المقبلة ، فضلا عن تأثر أفكارهم

(١) انظر سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ص ٤١ ، ٧٢ – ٧٦.

وتصوراتهم بما هو غالب على الطبع البشري من قصور وهـــوى ، وتـــأثر بالشهوات والرغبات(١).

الثاني : أن الادعاء بكون التطور قانونا دائما ومطـــردا فـــي الكـــون والنفس البشرية ومن ثم فلابد من تطور العقائد والقيم التي تخاطـــب تلـــك النفس ، هو في حقيقته ادعاء يتغافل أو يخلط عن عمد بين مـــا هـــو ثابـــت وما هو متطور في كيان الإنسان ، فصحيح أن إنسان الغابة ، غير إنســـان المرعى ، غير إنسان القرية ، غير إنسان الحضـــارة الحديثـــة ذات التقـــدم المذهل ، لكن يبقى مع الاعتراف بوجود فوارق كثيرة بين الإنسان في كـــل هذه المراحل ، أن الحقيقة الإنسانية والفطرة البشرية تظل واحدة عند الجميع، فالدوافع والغرائز ، والاحتياجات ، والتكوين البدني والنفسي كما هو ، ولـــم يتغير جوهر الإنسان اليوم عما كان عليه إنسان مـــا قبـــل التـــاريخ ، وإن تطورت معارفه ، وتضاعفت إمكاناته فالإنسان منذ عهد أبينـــا آدم وحتـــى يومنا هذا يأكل ويشرب ، ويحب ويكره ، ويتمنى الخلود وطول الحياة ولديه غريزة التملك وحب المال والولد ، وميل الرجال للنساء والعكـــس ، والـــذي تطور أو تغير في حقيقة الأمر هو كيفية إشباع تلك الغرائز وليس وجودهـــا في ذاتها ، وعلى سبيل المثال فالرغبة في الانتقال والسفر من مكان لآخـــر أمر لم يتغير وإن تطورت وسائل الانتقال من الناقـــة إلـــى القطـــار إلـــى الطائرة ، وكذلك الحال في الكون ، فهناك أشياء ثابتة علـــى مـــر الســـنين كالشمس والقمر والأرض والجبال والليل والنهار ، وهناك أشياء متغيـــرة ، والمهم أن هناك ثباتا فـــي الجـــوهر والكليـــات ، وتغيـــرًا فـــي المظهـــر والجزئيات(٢)، والعقيدة إنما جاءت لتخبر الإنسان بالحقـــائق الكليـــة الثابتـــة عن الله وعن الكون وعن نفسه ولم تأت لتخبـــره بالجزئيـــات المتطـــورة والمتغيرة.

---

(١) المصدر السابق ص ٦٤ ، ٧٢ ، ٧٣.

(٢) انظر محمد قطب : التطور والثبات في حياة البشرية ص ١٠٦ - ١١٠، ود. يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ص ٢٠٥ ، ٢٠٦.

وكذلك لا يصح التعلل بمبدأ النسخ في القرآن أو السنة ، كدليل على مشروعية القول بتطوير الإسلام كي يوافق الواقع المتغير ، فهناك اتفاق تام بين الأصوليين قديما وحديثا على أن وقوع النسخ منحصر في الأحكام العملية ، وأنه لا يجوز مطلقا أن يتطرق إلى باب العقائد أو الأخلاق ، أو كليات الشريعة ، أو الأخبار بصفة عامة ، لأن هذه الأمور ثابتة في كل الديانات ولا تقبل التغير أو الاختلاف[1]، ويؤيد هذا الاتفاق الأصولي أن المستقرئ للآيات التي قيل بنسخها ، لا يجد من ضمنها أية مسألة عقدية أو خُلقية أو خبر من الأخبار ، وإنما انحصرت جميعا في نطاق الأحكام العملية الفقهية .

الثالث : وأما قياس الإسلام على سائر الأديان والمذاهب الفكرية الأخرى التي انتابها التطور والتغير بصورة مستمرة ، فهو قياس فاسد تأصيلا وتفريعا ، لعدم وجود أي وجه شبه بين الأصل والفرع ، فضلا عن أن يقال بتساويهما في الحكم ٠

وإنما احتاجت تلك الأديان المحرفة والمذاهب والفلسفات البشرية إلى التطور المستمر لأن واضعيها مجرد بشر محدودي القدرة والمعرفة تنقصهم الإحاطة التامة بواقع الكون وواقع الحياة وواقع الإنسان ، ويعجزون أشد العجز عن الإحاطة بحاجات الإنسان كلها وبدوافعه كلها وبطاقاته وإمكاناته كلها ، ومن ثم فهم حين يضعون منهجا أو نظام حياة للإنسان يضعونه متأثرين بواقع الإنسان في بيئة معينة وعصر معين غافلين عما كان عليه إنسان الأمس وما يكون عليه إنسان الغد ، بل لا يحيطون تماما بما عليه إنسان اليوم في بيئة أو بيئات أخرى لم يتح لهم الاطلاع عليها فضلا عن

---

(١) انظر الآمدي : الإحكام في أصول الأحكام ٣ / ٢٠٥ – ٢٠٨ ، والزركشي : البحر المحيط ٥ / ٢٤٤ ٢٤٥ ، والفتوحي : شرح الكوكب المنير ٣ / ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، والشوكاني : إرشاد الفحول ص ١٦٥ ، وعبد الوهاب خلاف : علم أصول الفقه ص ١٧١ ، ومحمد أبو زهرة : أصول الفقه ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، والزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن ٢ / ٢١١ – ٢١٤.

الغفلة عن واقع الكون الكبير وتركيبة الإنسان ومكوناته المختلفة والعلاقة بين كل عنصر منها ، وهذا كله إذا افترضنا في واضعي تلك المذاهب والفلسفات النزاهة التام والتجرد الكامل والبعد عن كل تأثر بمؤثرات وراثية أو بيئية وعد الخضوع لأي ضغوط نفسية أو خارجية[1]ودون ذلك كله خرط القتاد .

ومن المهم أن ننبه إلى أن فكرة تطور العقائد من الأفكار التي نشأت في الغرب وكثر المروجون لها ، مع شيوع موجة عارمة من الدعوة إلى التطور في كل شيء سواء اتصل بالأفكار ، أو القيم ، أو المفاهيم ، أو الأخلاق والتقاليد أو وسائل الحياة المادية ، ثم جاءت نظرية دارون في تطور الكائنات الحية وارتقائها من صورة لأخرى بمثابة مدد قوى لهذه الفكرة ، أسهم في توسيع مجال انتشارها ، وأعطاها غطاء موهوما من العلم التجريبي، وكان لابد أن تمتد فكرة التطور إلى الدين وأساسه الأول وهو العقائد ، ولا سيما أن ذلك كان هو الحل الأمثل للخروج من سطوة الكنيسة وجمودها ، وإرهابها الفكري لكل من يخالفها في الرأي ، ثم لحل الكثير من المشاكل التي تؤرق عقل وقلب الإنسان الغربي حينما يجد عقائده ، وحقائق دينه ، وكتبه المقدسة تشتمل على أمور تتعارض قطعا مع ما أثبته العقل ، ووصل إليه العلم ، وقرره الواقع المشاهد .

ومن الواضح أن فكرة تطور الدين قد تغلغلت وترسخت في العقلية الغربية نظرا للأحوال الفكرية والسياسة والاجتماعية التي مرت بها أوروبا ، إضافة لتطور المسيحية نفسها على يد بولس ، واختلافها التام عن الدين الذي جاء به عيسى عليه السلام ، ومن ثم لم يعد الغربيون يتصورون وجود دين لم يمر بهذه المراحل التطورية . وكان من الطبيعي أن يحاولوا تطبيق هذا المبدأ على الأديان الأخرى ، وفي مقدمتها الإسلام .

---

(١) انظر د. يوسف القرضاوي : الخصائص العامة للإسلام ص ١٥٠.

وهكذا بدأت تظهر فكرة أن الإسلام قد تطور عبر الزمن على أيدي نفر من المستشرقين الذين دأبوا في العديد من كتبهم على إبراز تطور الإسلام بصفة عامة ، وتطور عقائده وشرائعه على وجه الخصوص ، كي يتوصلوا من خلال ذلك إلى إظهاره كدين بشرى من صنع محمد (ﷺ) ، وليس وحياً من عند الله سبحانه ، وقد غلفوا دعوتهم هذه بغلاف جذاب يضمن لها الرواج فقالوا " إن التطور وهو قانون الحياة العام الذي لا مفر من الخضوع له ، يجب أن يستخدمه المسلمون في إسلامهم ، ليسايروا العالم الغربي الحديث ، ولينجوا من أسباب الضعف والفساد ، ويجب لهذا أن يتطوروا بالإسلام نفسه كدين "[1].

ومن أبرز النماذج الاستشراقية التي روجت لهذه الفكرة ، وأكثرها جمعا للكذب والمغالطات كتاب " العقيدة والشريعة في الإسلام " للمستشرق اليهودي المجرى جولد تسيهر[2]، وعلى نفس المنوال تكررت فكرة تطور الإسلام بعقائده وشرائعه عند بعض المستشرقين الآخرين ، من أمثال " جب "[3] و (ولفرد كانتويل سميث)[4]وغيرهم .

---

(١) د. محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ١٩٠.

(٢) انظر جولد تسيهر : العقيدة والشريعة في الإسلام ص ١٠ ، ٨٧ . وراجع في الرد على كلامه – إضافة للتعليقات التي يذكرها من قاموا بترجمة كتاب جولد تسيهر – كتاب الشيخ محمد الغزالي : دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين ، دار الكتب الإسلامية ، الطبعة الخامسة ١٩٨٨ م.

(٣) انظر هـ . أ . جب : الاتجاهات الحديثة في الإسلام ص ١٧٥ ، ترجمة هاشم الحسيني وانظر أيضا د. عابد السفياني : المستشرقون ومن تابعهم وموقفهم من ثبات الشريعة وشمولها ص ٤٥.

(٤) ولفرد كانتويل سميث : الإسلام في التاريخ الحديث ص ٧ ، ٨ ، سلسلة كتب سياسية، العدد ١٦٣ ، القاهرة ١٩٦٠ م.

وإذا تركنا المستشرقين ، وبحثنا عن جذور لهذه الفكرة في نطاق الفكر الإسلامي فلن نجد لها أثرا عند أهل العلم المتقدمين وإنما تسللت إلى العالم الإسلامي في العصر الحديث ضمن ما وفد من الغرب من المذاهب والأفكار وتولى كبر الدعوة إليها أفراد من الحاقدين على الإسلام أو المفتونين بآراء المستشرقين .

وإذا ما استثنينا هذه المواقف المحدودة التي عرضنا لها آنفا فثمة اتفاق بين جل الباحثين المُحْدَثين على أن عقائد الإسلام غير قابلة أصلاً للتطور أو التغير من وقت لآخر ، بل هي ثابتة وقطعية ، ولا مجال فيها للزيادة أو النقصان .

وهناك أقوال كثيرة في هذا الصدد لكل من الشيخ محمود شلتوت[1] ود. محمد البهي[2]، ود. عبد الحليم محمود[3]، وسيد قطب والذي ينفي بشدة أن تكون عقائد الإسلام وحقائقه الكبرى التي جاء بها عن الله والإنسان والكون والتي يؤثر أن يطلق عليها مصطلح التصور الإسلامي ، قابلة للتطور أو التغير لأن هذا التصور في أصله ومصدره " تصور رباني ، جاء من عند الله بكل خصائصه ، وبكل مقوماته ، وتلقاه الإنسان كاملاً بخصائصه هذه ومقوماته ، لا ليزيد عليه من عنده شيئا ، ولا لينتقص كذلك منه شيئا ، ولكن ليتكيف هو به وليطبق مقتضياته في حياته ، وهو من ثم تصور غير متطور في ذاته ، إنما تتطور البشرية في إطاره ، وترتقي في إدراكه ، وفي الاستجابة له ، وتظل تتطور وترتقي ، وتنمو وتتقدم ، وهذا الإطار يسعها دائما وهذا التصور يقودها دائما ، لأن المصدر الذي أنشأ هذا

---

(١) انظر محمود شلتوت : الفتاوى ص ٤٠٧ ، ويسألونك ص ١٨٢ – ١٨٧

(٢) انظر د. محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ١٩٠ – ١٩٦ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٤١٣

(٣) انظر د. عبد الحليم محمود : الإسلام والعقل ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، والفتاوى ٢ / ٤٧٤ ، الإسلام والإيمان ص ٣١ – ٣٤ ، وموقف الإسلام من الفن والعلم والفلسفة ص ١١٦ ، ١١٧

التصور هو نفسه المصدر[1]الذي خلق الإنسان "[2] ويعلم طبيعته وحاجـات حياته المتغيرة والمتطورة عبر الزمان ويقدم الحلول والإجابات الملبية لتلك الحاجات .

ومن أبرز خصائص التصور الإسلامي خصيصة " الثبات " وهى ناشئة من كون هذا التصور رباني المصدر ، وليس نتاج فكر بشرى وجد في بيئة معينة أو فترة زمنية محددة وإنما هو هدى الله للإنسان أيـا كـان زمانـه أو مكانه[3]ويترتب على تلك السمة أن " كل ما يتعلق بالحقيقة الإلهية ــ وهى قاعدة التصور الإسلامي ــ ثابت الحقيقة ، وثابت المفهوم أيضا وغير قابـل للتغيير ولا للتطوير "[4] ويشمل ذلك حقيقة وجود الله ، ووحدانيته ، وقدرتـه وسائر صفاته ، وأن الكون من خلق الله وإبداعه ، وأن الإنسان مخلوق مكرم على سائر الخلائق ومستخلف في الأرض ليعمرها ، وأن الناس من أصـل واحد لا فرق بينهم إلا بالتقوى وهم جميعا عبـاد الله ، ولـيس فـيهم مـن خصائص الألوهية شيء ، وأن الدين الحق عند الله هو الإسلام ولا يقبل من المكلفين سواه ، وغاية الوجود الإنساني هو العبادة لله بكل مقتضيات العبادة ، وأولها الطاعة والامتثال لأمره وحده في شتى أمور الحياة ، فهـذه الحقـائق جميعا " ثابتة غير قابلة للتغير ولا للتطور ، ثابتة لتتحرك ظـواهر الحيـاة وأشكال الأوضاع في إطارها ، وتظل مشدودة إليها ، ولتراعى مقتضياتها في كل تطور لأوضاع الحياة "[5] .

---

(١) وأعتقد أنه من غير الدقيق ، ولا المناسب التعبير عن الله سبحانه بلفظ المصـدر لأن باب الأسماء والصفات توقيفي.

(٢) سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ص ٤٠.

(٣) المصدر السابق ص ٧٢.

(٤) المصدر السابق ص ٧٤.

(٥) سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ص ٧٥.

وتتجلى أهمية ثبات الحقائق الأساسية في الإسلام ، وعدم قابليتها للتطور من عدة وجوه منها[1]:

أ ــ وجود ميزان ثابت يرجع إليه الإنسان في كل ما يعرض له من أفكار ، وكل ما يستجد في حياته من ملابسات ، ويزنها بهذا الميزان الثابت كي يتبين مدى قربها أو بعدها من الحق والصواب .

ب ــ ضبط الحركة البشرية وتطورات الحياة ، كيلا تمضي شاردة ولا واردة على غير هدى الله ومنهجه ، واعتبار ذلك بمثابة ضابط للفكر البشري يعصمه من التأرجح مع الشهوات والمؤثرات ، وما لم يكن هذا الضابط ثابتا ، فيستحيل أن يستقيم الفكر البشري أو يتزن ، لعدم وجود محور ثابت يرجع إليه ، ويتحرك من خلاله .

ج ــ وقاية الفكر والمجتمع الإسلامي من لوثات التذبذب والانحراف وعدم الاستقرار التي أصابت الفكر والمجتمعات الغربية ، مع بث الطمأنينة في الضمير المسلم والمجتمع المسلم لثبات الإطار الذي تتحرك فيه حياته ، وسلامة المبادئ التي يتحاكم إليها ، هو وحكامه على السواء ، ولعل هذه الخاصية هي التي ضمنت للمجتمع الإسلامي تماسكه وقوته على مدى ألف عام ، على الرغم من الهجمات والضربات التي وجهت إليه من كل مكان ، ولاشك أن المجتمع الذي يسير وراء تصورات وقيم متقلبة ، ولا يستند لأصل ثابت ، ليس بوسعه أن يسير في وضع سليم ، وهو معرض للهزات العنيفة والبلبلة المستمرة .

وهكذا يخلص سيد قطب إلى أن فكرة التطور المطلق ، والخارج عن كل قيد وضابط تتناقض تماما مع بناء الكون ، ومع الفطرة السليمة ، ومع شرع الله سبحانه ، وينشأ عنها ما لا يحصى من الفساد ، حيث تسبغ الشرعية على كل فكرة ونظام وتصور ، ما دام تاليا في الوجود الزمني لما سبقه ، وهو مبرر لا يصح أن يكون له أي وزن في الحكم على الحقائق وتقويمها ، وإنما لجأت أوروبا إلى فكرة التطور هروبا من

---

(١) المصدر السابق ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٤.

الكنيسة وسيطرتها ، وجعلتها أصلاً شمل العقيدة والشريعة والأخلاق ، ممـا يؤكد أن رأيها هذا خارج عن نطاق الحقائق العلمية ، وليس سـوى شـهوة جامحة ، وهوى شارد ، لكن الفكرة انتشرت للأسف عند نفر من المسلمين المخدوعين بأوروبا والمنبهرين بكل ما يأتي من عندها وحـاولوا تطبيقهـا على الإسلام ، مع الاختلاف التام في الظـروف ، والأسـباب وطبيعـة الدين [1].

وهكذا نخلص إلى وجود اتفاق تام على ثبات حقائق العقيـدة ، وعـدم قابليتها للتطور أو التغير ، مهما اختلف المكان ، أو تقادم الزمان ، وهذا كله فيما يخص الحقائق العقدية الثابتة في القرآن والسنة ، وليس فهـم العلمـاء والمجتهدين لها كما أن التأكيد على ثبات حقائق الإسلام وعقائـده ، وعـدم قابليتها لأي نوع من أنواع التطور ، لا يعني بحال معاداة التقدم والتغير إلى الأفضل في أمور الدنيا أو الدعوة إلى الجمود والركود ، بـل الأمـر علـى العكس تماما ، والمسلمون جميعا مدعوون إلى السير في الأرض ، والضرب في مناكبها ، والابتغاء من فضل الله الواسع ، وإعداد ما يستطيعون من قوة ، بكل ما تعنيه كلمة القوة من معنى •

وقبل أن ننهي الكلام عن هذه المسألة نشير إلى لافتة جديدة ظهرت في الآونة الأخيرة واتخذها البعض ستارا أو تكأة لتمرير فكرة تطـوير العقيـدة والشريعة في الإسلام ، وهذه اللافتة هي ما يعرف بالـدعوة إلـى تطـوير أو تجديد الخطاب الديني •

وقد ظهرت الدعوة إلى تطوير الخطاب الديني بقوة ، وانتشرت انتشارا كبيرا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة الأمريكية ، وما استتبع ذلك من شن حملة ظالمة على الإسلام والمسلمين ، ورميهم بكل نقيصة وغزو أرضهم واحتلال دولتين مسلمتين هما أفغانستان والعراق ، ولم يكتف هذا الغزو الغاشم باجتياح الأرض والاستيلاء على الثروة بل تطلع إلى اجتياح العقول وهدم الثوابت وزعزعة العقائد والأفكار •

---

(1) انظر سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ص ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٠.

وهكذا كثر الحديث عن الخطاب الديني وتجديده أو تطويره ، وتعددت الندوات والمؤتمرات والكتابات التي تتحدث عن هذه القضية ، وتعتبرها أهم الأولويات وطوق النجاة للمسلمين ، دون أن يكلف أصحاب هذه الدعوة أنفسهم بأن يقدموا لنا تحديدا واضحا ودقيقا للمراد من كلامهم هذا ، مع كل ما فيه من إبهام وإجمال والتباس ٠

فإذا كان المقصود بالخطاب الديني المراد تجديده هو مجرد أسلوب الدعوة إلى الإسلام ، ووسائل الإقناع التي تتنوع وتتغير تبعا للتطور المذهل في علوم الاتصال الحديثة ، وما يستلزمه ذلك من تطوير طرائق ووسائل عرض الإسلام كي تلائم المخاطبين وتنجح في إقناعهم ، فلا أظن أن هناك من يجادل في مشروعية وضرورة هذا الأمر ، والحاجة المتجددة إليه ، وفي قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[النحل: ١٢٥] دلالة واضحة على مشروعية بذل الوسع في اختيار أنسب طريق لمخاطبة الناس ودعوتهم إلى الله تعالى ٠

لكن الخطر كل الخطر هو أن يكون المقصود بالخطاب الديني القرآن والسنة وأن يكون المقصود من تطوير هذا الخطاب هو إعادة النظر في مضامينه ومكوناته ، تارة بالتنصل من النص الديني الموثق كتابا وسنة ، وتارة بإبطال شمول هذه النص واستمراريته ووجوب اتباعه تحت ستار مزعوم هو تاريخية النص حينا ونسبيته حينا ، وتارة بفرض تصور مسبق على مضامين هذا النص بزعم أنه يشكل عبئا على حركة الواقع وسيره ، أو أن يكون المقصود من تطوير الخطاب الديني هو الدعوة الخفية إلى هدم الثوابت وتذويب المضمون الديني الإسلامي ، لكي ينتهي إلى إيجاد إسلام عصري ومعتدل لا يعدو أن يكون سوى تصور هلامي لأمشاج شتى من التصورات الغربية عن الإسلام ٠

ولعل هذا هو السبب في ارتياب الكثيرين في مغزى وجدوى الدعوة إلى تطوير الخطاب الديني ، لأن الأمة تدرك بوعيها الفطن أن مثل هذه الدعوات المراوغة هي دعوات إلى هدم النص المقدس ذاته ، ولو أنصف بعض أصحاب هذا الرأي أنفسهم لنفضوا عن ذواتهم غبار المراوغة ، وصرحوا بما تخفي صدورهم بالمناداة جهرا بالإغضاء عن النص الديني المقدس ، بدلا من التظاهر الماكر بالتسليم به ، ثم الانقضاض عليه بالهدم تحت دعاوي النسبية والتاريخية والتجديد والتحديث ، لكنهم حين يراوغون ويضعون دعاواهم هذه تحت رداء تجديد الخطاب الديني ، فإنهم يشوهون صورة هذا الخطاب ، ويبعثون في النفوس دواعي الريبة فيه والنفور منه[1]



(١) انظر د. محمد عبد الفضيل القوصي: الخطاب الديني .. محاذير ومنطلقات ، مقال بجريدة الأهرام بتاريخ ٢٥ يوليو ٢٠٠٣ م



القسم الثانى

أركان العقيدة الإسلامية

ويشتمل على ما يلى : -

الفصل الأول : الإيمان بالله تعالى.

الفصل الثانى : الإيمان بالملائكة.

الفصل الثالث : الإيمان بالكتب.

الفصل الرابع : الإيمان بالرسل.

الفصل الخامس : الإيمان بالقضاء والقدر

الفصل الأول

الإيمان بالله

والإيمان بالله وتوحيده هو أصل هذا الدين وأساسه ، وعليه مدار الإسلام كله وهو " أول الدين وآخره ، وباطن الدين وظاهره "[1] وإذا تحقق هذا الإيمان كان ركيزة لما بعده من حقائق الدين ، سواء ما كان منها عقديا يطلب تحمله بالتصديق القلبي ، أو ما كان شرعيا يطلب تحمله بالعمل السلوكي ، وإذا خالط هذا الإيمان الشك أو ناقضه الجحود انهدم ما بعده من تلك الحقائق ، ولم يعد الإيمان بها أو العمل بحسبها يساوي شيئا في ميزان الدين .

كما أن الإيمان بالله وتوحيده هو أصل العقيدة ومحورها ، وركنها الأول والأهم ، وهو بالنسبة لبقية أركان العقيدة الأخرى – كالإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر – مثل أصل الشجرة بالنسبة للسوق والفروع ، ومن ثم فهو أصل الأصول وقاعدة الدين .

وبقدر رسوخ ووثاقة الإيمان بالله في قلب المكلف ، بقدر ما يكون الإيمان بالعقيدة الإسلامية – عامة – راسخا وثابتا ، والعكس صحيح ، فكلما أصاب هذا الإيمان غفلة أو نسيان أو داخلته الظنون والشكوك ، أصبحت العقيدة كلها في حال من الضعف لا يتأتى معها عمل صالح ، أو حال من الاضطراب الذي يكون به غير مغن في ميزان الإيمان شيئا[2].

---

(١) ابن تيمية : منهاج السنة النبوية ٥ / ٣٤٩ .

(٢) انظر د. عبد المجيد النجار : الإيمان بالله وأثره في الحياة ص ٢٩ ، ٦٩ ، ود . عبد الحميد مدكور : دراسات في العقيدة الإسلامية ص ١٢٧ ، ود. عمر الأشقر : العقيدة في الله ص ٦٧

والمتأمل لكتاب الله تعالى يلحظ بوضوح أن " التوحيد هو سر القرآن ، ولب الإيمان "[1] بل نستطيع أن نقول دون مبالغة " إن كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد ، شاهدة به ، داعية إليه "[2] ودليل ذلك هو أن آيات القرآن لا تخرج عن المقاصد التالية[3]:

- فهي إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وهو ما يعرف بالتوحيد العلمي الخبري ، ويشمل توحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات .

- وإما دعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه ، وهو ما يعرف بالتوحيد الإرادي الطلبي ، أو توحيد الألوهية .

- وإما أمر ونهي ، وإلزام بطاعته في نهيه وأمره ، فهي حقوق التوحيد ومكملاته .

- وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته ، وما فعل بهم في الدنيا ، وما يكرمهم به في الآخرة ، فهو جزاء توحيده .

- وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال ، وما يحل بهم في العقبى من العذاب ، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد .

وهكذا يظهر لنا أن القرآن كله يدور حول التوحيد وحقوقه وجزائه ، و شأن الشرك وأهله وجزائهم ، وقد تكرر ذكر الله في القرآن باسم من أسمائه

---

(1) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١ / ٣٦٨ ، وانظر أيضا ١٥ / ١٦٤ .

(2) ابن القيم : مدارج السالكين ٣ / ٤٥٠.

(3) انظر ابن القيم : مدارج السالكين ٣ / ٤٥٠ ، وابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ١ / ٤٢ ، ٤٣ ، وحافظ أحمد حكمي : معارج القبول ١ / ٣٨.

أو صفة من صفاته أكثر من عشرة آلاف مرة ، أي في الصفحة الواحدة قرابة عشرين مرة في المتوسط[1].

وإذا تناولنا أول سور القرآن وأعظمها شأنا ، وهي سورة الفاتحة كنموذج ندلل به على ذلك ، فسوف نجدها لا تخرج عما سبق أن قررناه ، فالحمد لله رب العالمين توحيد ، والرحمن الرحيم توحيد ، ومالك يوم الدين توحيد ، وإياك نعبد وإياك نستعين توحيد ، واهدنا الصراط المستقيم توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد ، الذين أنعم الله عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين الذين فارقوا التوحيد[2].

ولا يتم الإيمان بالله على وجهه الصحيح الواجب شرعا ، والذي تتحقق به النجاة في الآخرة إلا إذا آمن بالمكلف بهذه الأمور الأربعة ، وهي :

١ – الإيمان بوجود الله

٢ – الإيمان بربوبية الله (توحيد الربوبية)

٣ – الإيمان بألوهية الله (توحيد الألوهية)

٤ – الإيمان بأسماء الله وصفاته (توحيد الأسماء والصفات)

وسوف نحاول في الصفحات التالية أن نقف عند كل واحد من هذه الأمور الأربعة بالشرح والبيان ، وذكر الأدلة عليه من الكتاب والسنة ودلائل الفطرة وبراهين العقل الصحيح .

(١) انظر د. عمر الأشقر : العقيدة في الله ص ٦٧ .

(٢) انظر ابن القيم : مدارج السالكين ٣ / ٤٥٠ ، وابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ١ / ٤٢ ، ٤٣ .

أولا : الإيمان بوجود الله

ولعل من الضروري في مفتتح كلامنا عن هذه القضية المهمة والخطيرة أن نؤكد على أن وجود الله سبحانه ومعرفته من الحقائق الفطرية البدهيــة ، الراسخة والمستقرة في نفس كل إنسان ، وأن الأدلة على ذلك لا يحصـــرها العد ولا يحيط بها الحد ، بل إن دلائل الربوبية وآياتها أعظم وأكثر من كـــل دليل على كل مدلول ، وقد جعل الله لكل قوم بل لكل إنســـان مـــن الـــدلائل المعينة التي يريه الله إياها في نفسه وفي الآفاق ما لا يعرف أعيانهـــا قـــوم آخرون[1]كما قال تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[فصلت : ٥٣]

ولا شك أن علمنا بهذا الأمر يوفر علينا الكثير من الجهـــد والوقـــت ، ويعفينا من الاستفاضة في الاستدلال وإقامة الحجج والبـــراهين علـــى تلـــك الحقيقة الساطعة التي ظلت البشرية عبر تاريخها الطويل لا تكـــاد تعـــرف جاحدا لها أو مشككا فيها كما أنه يدفعنا إلى تركيز اهتمامنا على معرفـــة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله وكيفية التقرب إليه وعبادته وليس على إثبات وجوده٠

وقد بقي الأمر مطردا على المنوال الذي أشرنا إليه آنفا – من أن وجود الله حقيقة لا تقبل التشكيك أو الإنكار – حتى جـــاءت العصـــور الحديثـــة ، وبدأت أوروبا تشهد ظهور فكر خبيث وشذوذ فكري غير مســـبوق ، يرفـــع لواء الدعوة إلى الإلحاد ويشكك في وجود الله سبحانه وفـــي صـــحة الـــدين وسائر الغيبيات[2]٠

---

(١) انظر ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ٦ / ٣٧٨ ٠

(٢) وقد ذكرت دائرة المعارف البريطانية أن أول كتاب يصرح بالإلحاد ظهر في أوروبا عام ١٧٧٠ م ، وفي بريطانيا على وجه الخصوص عام ١٧٨٢ م ٠انظر د٠ جعفر شيخ إدريس : الفيزياء ووجود الخالق ص ١٩ ٠

وأظن أننا لسنا في حاجة لإثبات أن ظاهرة الإلحاد الحديثة التي انتشرت في أوروبا حتى وقت قريب ليست سوى لوثة عارضة وشاذة ، منافية للفطرة البشرية ، وليس لها في الضمير جذور أو روافد ، ولا تمدها عوامل البقاء والاستمرار(١) كما أنها تعد ظاهرة لا مثيل لها في تاريخ البشرية من قبل .

وصحيح أنه وجدت قديما طوائف ممن يسمون بالدهريين ، ووجدت نماذج كثيرة من التحلل الأخلاقي عند المزدكية وغيرهم ، إلا أن هؤلاء وأمثالهم كانوا قلة في حياة البشرية ، والانحراف الأكبر الذي كان يقع في عقائد الناس في جاهليتهم هو الشرك وليس الإلحاد ، إذ إن الفطرة البشرية وإن ضلت أو أصابها الانحراف تبقى مؤمنة بوجود الله وإن أشركت معه آلهة أخرى ، أما الإلحاد بمعنى إنكار وجود الله أصلا فهو شذوذ نادر حتى في الفطرة المنحرفة وسببه انطماس غير عادي في البصيرة(٢).

وقد تضافرت عدة أسباب وعوامل نابعة من طبيعة المجتمع الأوربي وأحواله الدينية والفكرية والسياسية أدت لبروز نبتة الإلحاد الخبيثة ، ولسنا نقول إن هذه الأسباب أو الظروف تبرر ما حدث هناك من الكفر والتبجح إذ لا شيء قط يبرر الكفر بالله ، والله سبحانه يقول ﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ [القيامة:١٤] ولكننا نقول فقط إن هذه هي الظروف الواقعية التي أحاطت بالناس في أوروبا وكان من نتائجها انتشار الإلحاد بينهم(٣) .

---

(١) انظر سيد قطب : مقومات التصور الإسلامي ص ١٠١ .

(٢) انظر محمد قطب : ركائز الإيمان ص ١٤٢ .

(٣) انظر في تفصيل تلك الأسباب : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٢ / ٨١٣ ، ٩٨١ ، ود سفر الحوالي : العلمانية ص ١٢٣ – ٢٠٦ ، ومحمد قطب : ركائز الإيمان ص ١٤٣ – ١٥١ ، ١٦٤، ومذاهب فكرية معاصرة ص ، ود. جعفر شيخ إدريس : الفيزياء ووجود الخالق ص ١٩ – ٤٠ .

وقد كان حريا بنا ألا نقف كثيرا عند أدلة وجود الله لأن الفطرة الإنسانية تشهد بذلك ، ولا يكاد يعرف منكر لوجود الخالق في الماضي إلا النزر اليسير وهم لا يمثلون نسبة تذكر في البشرية(1) .

لكن الانحراف اليوم وصل إلى الدرك الأسفل ، ووجد من يزعم أنه لا خالق لهذا الكون ، وحاول أصحاب هذا الرأي التمسح بالعلم التجريبي ، وأنه يؤيد صحة زعمهم مما يدعونا إلى ذكر عدد من الأدلة على وجود الله سبحانه وتعالى وسوف نجملها فيما يلي :

أدلة وجود الله سبحانه

١ – دليل الفطرة(2):

وأول الأدلة على وجود الله جل جلاله ليس شيئا خارجا عن كيان الإنسان ، بل هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ونعني بها ذلك الشعور

---

(١) انظر د. عمر الأشقر : العقيدة في الله ص ٧٢ .

(٢) انظر في الكلام تفصيلا عن دليل الفطرة : ابن تيمية : درء التعارض ٨ / ٤٥٨ ، وابن القيم : الروح ص ١٦٨ ، وشفاء العليل ص ٢٨٣ ، وحافظ أحمد حكمي : معارج القبول ١ / ٢٩ – ٣٤ ، ٤٣ ، والسيد سابق : العقائد الإسلامية ص ٤٣ ، وابن عثيمين : شرح العقيدة الواسطية ١ / ٥٨ ، وشرح أصول الإيمان ص ٧٦ ، ومحمد الغزالي : عقيدة المسلم ص ١٦ ، ١٧ ، ومحمد قطب : ركائز الإيمان ص ١٤ – ٢٠ ، ود. عبد المجيد النجار : الإيمان بالله وأثره في الحياة ص ٣٣ – ٤٤ ، ود. يوسف القرضاوي : وجود الله ص ١٩ – ٢٣ ، وسعود العريفي : الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد ص ١٩٨ – ٢٠٨ ، ود. محمد السيد الجليند : تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين ص ٤٩ – ٥١ ، ود. السيد رزق الحجر : ابن الوزير اليمني ومنهجه الكلامي ص ٢٠٨ – ٢١٠ ، ود. صلاح الصاوي : فاعلم أنه لا إله إلا الله ص ٧ – ٩ ، ود. عمر الأشقر : العقيدة في الله ص ٦٩ – ٧٢ .

الطبيعي الغامر بأن فوق الكائنات المحدودة المتناهية إلها غير محدود ولا متناه ، يهيمن على كل شيء ، ويدبر كل أمر ، يرجى ويخشى ، ويعظم ويقصد ، وهذا الشعور ينبع من أعماق الإنسان ، ويستمد من كيانه كله ، لا من عقله وحده ولا من وجدانه بمفرده ، بل هو شعور يجده الإنسان في نفسه بغير تعلم ولا تلقين ولا اكتساب وهو أشد رسوخا في النفس من مبدأ العلم الرياضي كقولنا إن الواحد نصف الاثنين ، ومبدأ العلم الطبيعي كقولنا إن الجسم لا يكون في مكانين ، وغير ذلك من الحقائق والمسلمات .

ولا شك أن وجود الله سبحانه من البداهات التي يدركها الإنسان بفطرته ويهتدي إليها بطبيعته ، وليس من مسائل العلوم المعقدة ولا من حقائق التفكير العويصة ، ولولا أن شدة الظهور قد تلد الخفاء ، واقتراب المسافة جدا قد يعطل الرؤية ما اختلف على ذلك مؤمن ولا ملحد .

ويعد دليل الفطرة من أهم الأدلة التي نبه عليها القرآن الكريم بل إنه جعله في مقدمة تلك الأدلة وأساسا لها ، فالفطرة السليمة مجبولة على الإقرار بوجود الرب الخالق ، والإيمان به تعالى مغروز في طبيعة البشر ، وفي شعور كل عاقل وضميره ، ولذا فإن الإيمان أجل وأرفع في نظر الإسلام من أن يكون موضع شك أو ارتياب ، كما قالت الرسل لأقوامهم ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[إبراهيم: ١٠] .

والمراد بقولنا إن معرفة الله فطرية : أن كل إنسان يولد على صفة تقتضي إقراره بأن له خالقا مدبرا وتستوجب معرفته إياه وتألهه له ، وهذه الصفة ذاتها هي القوة المغروسة في الإنسان التي تقتضي اعتقاده للحق دون الباطل ، وإرادته للنافع دون الضار .

وثمة شواهد وأدلة عديدة تؤكد على أن الإيمان بالله فطرة خلق الإنسان عليها وأنها طبيعة راسخة فيه مثل سائر الطبائع التي لا تفارقه في أصل وجوده ، ومن هذه الشواهد :

أ – الأدلة من الكتاب والسنة : ومن ذلك آية الميثاق أي قوله تعالى من سورة الأعراف ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٢] وقوله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾[الروم:٣٠] وقوله تعالى ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[إبراهيم:١٠] ويضاف لذلك استفهامات التقرير بالربوبية وهي كثيرة في القرآنية ، وتتضمن تقريرا للناس بأمر تعرفه فطرهم وهو ما غرسه الله فيهم من معرفته ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل:٦٠] وقوله ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف:٨٧] .

وأما السنة فقد ورد فيها أحاديث كثيرة منها قول النبي (ﷺ) " كل مولود يولد على الفطرة "[1] وقوله فيما يرويه عن ربه جل وعلا " إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم "[2]

---

(١) رواه البخاري (١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٨٥ ، ٤٧٧٥ ، ٦٥٩٩)،ومسلم (٢٦٥٨) .

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥) ، وأحمد (١٧٠٣٠ ، ١٧٨٧٤) ومعنى اجتالتهم أي استخفوهم ، فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه ، وجالوا معهم في الباطل ، انظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٧ / ١٩٧ .

ب – الشاهد النفسي : فما من إنسان إلا ويجد في نفسه عند لحظات الصفاء والتحرر من ضغوط الحياة شوقا إلى قوة قادرة وعظيمة ، يطلب عندها الحماية والأمن ، وينشد عندها الطمأنينة والروح ، وإذا عاند معاند في ذلك الشعور فلينظر في نفسه عندما يضيق به الحال ويداهمه الخطر العظيم ، أو عندما تشتد به العلل ويجد نفسه على أبواب الهلاك ، وهو حينذاك لا يملك مهما كان من الجحود إلا أن يفزع إلى الله يطلب عنده النجاة ، ويناشده حسن المآل ، وليس ذلك إلا الفطرة السليمة التي بانت جلية عند الشدائد .

ج – الشاهد الاجتماعي التاريخي : حيث يشهد تاريخ الإنسان بأنه لم يخل مجتمع بشري قط من الإيمان بأن يتخذ معبودا ، وما زالت علوم الأنثربولوجيا وعلوم الحفريات تؤكد يوما بعد يوم أن المجتمعات البشرية منذ وجدت كانت تتخذ لها إلها تؤمن به وتتقرب له بالعبادات[٢]، وقد شاعت هذه الحقيقة بين الدارسين والمفكرين حتى أوشكت أن تصبح مسلمة بين كل الناظرين في تاريخ الإنسان ، وإذا كانت بعض الجماعات قد انحرفت في إيمانها بالله فاتخذت له شركاء في الألوهية[٣] ، فإن ذلك ليس إلا تعبيرا خاطئا عن أصل الفطرة الموحدة والشاهد على ذلك أن كل المشركين يكون من بين آلهتهم إله هو الأكبر فيهم وتكون سائر الآلهة الأخرى وسائط إليه بشكل أو بآخر ، وتلك دلالة واضحة على أن الأصل كان هو التوحيد ، والشرك هو الانحراف عنه .

وبعد أن ذكرنا الأدلة السابقة التي تقطع بأن الإيمان بالله فطرة راسخة ومستقرة في النفس بالبشرية ، يبقى تساؤل مهم وهو أنه إذا كان الإيمان بالله فطرة في النفس ، فكيف نفسر ظاهرة الكفر والإلحاد عند بعض البشر ؟

والجواب هو أن الإيمان بالله وإن كان فطرة راسخة في النفس ، إلا أن غواشي وحجبا قد تطرأ عليه فتطمسه وتغطيه ، فيصير الإنسان على غير وعي به ، رغم أنه مضمر وكامن في النفس على الدوام ، ولهذا فإن كلمة الكفر مأخوذة لغة من الستر والتغطية ، وأطلقت على الكافر لأنه يستر ويغطي مقتضيات فطرته بحجب الشبهات والشهوات .

وحواجب الفطرة وغواشيها كثيرة ومتعددة ، ومنها أهواء النفوس وشهواتها ، والاستكبار والغرور ، وتقليد الآباء والأجداد ، والغنى والترف ، لكن هذه الموانع جميعا سرعان ما تزول وتتهاوى تحت مطارق الشدائد وحلول البلاء وحينئذ ينقلب الملحد الكفور ضارعا منيبا ، كما قال الله تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم:٣٣] وقال سبحانه ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان:٣٢] .

٢ – آيات الله في الأنفس والآفاق

يلحظ المتأمل لآيات القرآن الكريم ، والمعنيّ برصد جملة الحقائق التي اشتمل عليها هذا الكتاب العظيم وجود نوعين بارزين من الحقائق يمكن التمييز بينهما :-

فهناك أولا حقائق أساسية كبرى ، تم عرضها بأكثر من طريقة ، وتكررت الدعوة إلي الإيمان والتصديق بها ، وجرى في الوقت ذاته تأييدها بالأدلة والشواهد والبراهين ، وتمثل هذه الحقائق الأساس العام الذي تتفرع عنه سائر القواعد الأخلاقية والتشريعية ، كما أنها بمثابة القاعدة الفكرية والنفسية التي شاء الله أن يقيم بناء الإنسان وتكوينه الفكري عليها ، وتتضمن

الإيمان بالله وباليوم الآخر ، وبالنبوة والوحي طريقا وحيدا يمكن من خلالـه معرفة مراد الله وشرعه وتكليفاته لسائر البشر ، وما أشبه ذلك من الأصول العقدية والتشريعية الكبرى .

وهناك نوع آخر ورد كوسيلة لتعضيد النوع الأول من الحقائق ، وليس مساويا له في المرتبة ، وإنما جاء على سبيل التبع ، لكن مع ذلك تكرر ذكره في كثير من سور القرآن على ضروب وأشكال متنوعـة ، وورد مصـاحبا للحقائق الأساسية ، كي يدعمها ويبرهن على صحتها ، ويشتمل ذلك النـوع على مشاهد الكون بآفاقه الواسعة ، وأنواع المخلوقات والحوادث المتعاقبة ، كما يشتمل على جوانب حياة الإنسان المختلفـة : خلقـا وتكوينـا وميـولا وغرائز ، وغير ذلك من تفصيلات[1].

وقد كان لهذا النوع الثاني تأثير واضح وجوهري على الصبغة العامـة للفكر الإسلامي حيث وسمه بطابع علمي برهاني ، وحرره مـن الخرافـات والأساطير و يمكن من خلال رصد حقائق النوعين المتقـدمين معـا ، أن نخرج بفكرة شاملة ومؤصلة عن نظرة القرآن إلى وجود الخالق وصـفاته ، ووجود المخلوق وطبيعته ، سواء أكان الإنسان أم الكون ، وواجب المخلوق تجاه خالقه ، وعلاقة الإنسان بالكون .

ومن تأثيراته أيضا أن كثيرا من الأدلة التي سيقت للبرهنة على وجـود الله وعول عليها نفر غير قليل من القدامى والمُحْدَثين ، مثل دليل الاختراع والعناية والتدبير اعتمدت على الحقائق الكونية المذكورة فـي القـرآن ، أو المبثوثة في صفحات الكون ولقي هذا النوع من الاستدلال عناية كبيـرة ، وعد من أفضل الطرق لإثبات وجود الله بعيدا عن المسالك الفلسفية والأدلـة الكلامية الصعبة والمعقدة .

(1) انظر محمد المبارك : الكون في القرآن الكريم ص ٩ -١١ .

وكما أشار ابن القيم – رحمه الله – فإن الله تعالى يدعو عباده إلى معرفته من طريقين : أحدهما النظر في مفعولاته ، والثاني التفكير في آياته وتدبرها ، فتلك آياته المشهودة ، وهذه آياته المسموعة ، ولا شك أن المفعولات تدل على فاعل فعلها ، لاستحالة صدورها بدون فاعل[1] .

ويؤكد ذلك أيضا قوله تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت:٥٣] فأخبر سبحانه " أنه لابد من أن يريهم من آياته المشهودة ، ما يبين لهم أن آياته المتلوة حق ، ثم أخبر بكفاية شهادته على صحة خبره بما أقام من الدلائل والبراهين على صدق رسوله ، فآياته شاهدة بصدقه ، وهو شاهد بصدق رسوله بآياته ، وهو الشاهد والمشهود له ، وهو الدليل والمدلول عليه "[2] .

وفي الآية السابقة[3] دليل قوي لمسلك المعتمدين على الدلائل الكونية في إثبات صدق الوحي ، وكل ما يتضمنه من أصول عقدية ، وإذا كان الله سبحانه قد تكفل بإظهار تلك الدلائل الكونية للخلق ، فيبقى من الواجب على أهل العلم تجلية هذه الدلائل ، وشرحها وتفسيرها ، وتقريبها إلى عقول سائر المكلفين .

ولا شك أن كل شيء في كون الله الواسع الفسيح إذا تأمله الإنسان حق التأمل فسوف يأخذ بيده وقلبه إلى الله ، ويدله على وجوده بل على وحدانيته وتفرده بالملك والتدبير ، كما يدله على أسمائه الحسنى وصفاته العليا ،

---

(١) انظر ابن القيم : الفوائد ص ٢٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢١ .

(٣) وراجع في تفسير الآية الطبري : جامع البيان ٢٥ / ٤ – ٦ ، والقرطبي : الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ٣٧٤ ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٤ / ١٠٦ .

والإنسان نفسه آية فريدة دالة على الله ، فهو وحده عالم خاص ، أجتمع لـه من حسن الصورة ومن قوى الإدراك والشعور والبصيرة ما لم يحظ به غيره[1].

ولهذا كله نجد أن القرآن يوجه العقول إلى النظر في آفاق الكون بعناصره المختلفة أرضا وبحرا وسماء ، كي ينتقل منها إلى ما وراءها من علة وجودها وقد كثرت الآيات الداعية إلى هذا النظر وتنوعت ، بحيث أصبحت تمثل مبدأ قرآنيا ثابتا في المعرفة عموما وفي معرفة الله خصوصا، وهو الأمر الذي لا نجد له نظيرا في أي كتاب من كتب الأديان الأخرى[2].

ومن تلك الآيات قوله تعالى ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذريات: ٢٠ - ٢١] وقوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ [الروم:٨] وقوله تعالى ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس:١٠١] وقوله تعالى

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ([البقرة:١٦٤]

---

(١) انظر د.يوسف القرضاوي : وجود الله ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) انظر د. عبد المجيد النجار : الإيمان بالله وأثره في الحياة ص ٧٣ .

كذلك يتكرر في القرآن القسم ببعض خلائق هذا الكون ومظاهره كالليل والنهار والشمس والقمر والسماء والأرض والنجوم والبحار والشفع والوتر وما نبصر وما لا نبصر ، وكل ذلك كي تستيقظ العقول الغافلة ، وتصحو القلوب المريضة ، كما أن الله سبحانه ينكر على الكافرين أنهم أوصدوا عقولهم ومشاعرهم فلا ينتفعون بآيات الله[1]﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥]

والمتأمل لآيات الله في الأنفس والآفاق يمكن أن يخرج منها بعدد كبير من الأدلة والبراهين القطعية التي تهديه إلى خالق الكون ومدبر أمره سبحانه وتعالى ومن أبرز هذه الأدلة[2]:

---

(١) انظر د٠يوسف القرضاوي : وجود الله ص ٢٧ ٠

(٢) وانظر في الكلام عن هذه الأدلة تفصيلا : أبو الحسن الأشعري : رسالة أهل الثغر ص ٣٤ – ٤١ ، وابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة ص ١٥٠– ١٥٤ ، وابن تيمية : درء التعارض ٣ / ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٩ / ٣٢٩ – ٣٣٢ ، وابن القيم : شفاء العليل ص ٦٦ – ٧٩ ومفتاح دار السعادة ١ / ١٨٧ – ٢١٥ ، وحافظ أحمد حكمي : معارج القبول ١ / ٣٩ – ٤٦ ، وأبو بكر الجزائري : عقيدة المؤمن ص ٤٩ – ٥٣ ، ومحمد قطب : ركائز الإيمان ص ٢٤ – ٣٤ ، ود٠ عبد المجيد النجار : الإيمان بالله وأثره في الحياة ص ٧٤ – ١٠٣ ، ود٠ يوسف القرضاوي : وجود الله ص ٢٥ – ٦٦ ، وسعود العريفي : الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد ص ٢٠٩ – ٢٤٣ ، ود ٠عبد الحميد مدكور : دراسات في العقيدة الإسلامية ص ١٣٠ –١٥١ ، ود٠ محمد الجليند : تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين ص ٥١ – ٥٧ ، ود٠ السيد رزق الحجر : ابن الوزير اليمني ومنهجه الكلامي ص ٢١٥ – ٢٢٥ ، ود٠ عبد الفتاح الفاوي : في العقيدة والفلسفة ص ٧١ – ٧٥ ، ود٠ صلاح الصاوي : فاعلم أنه لا إله إلا الله ص ١٠ ، ود٠ عمر الأشقر : العقيدة في الله ص ٩٨ – ١٠٦ ٠

أ- دليل الخلق :

والمراد بالخلق : الإيجاد والإحداث ، أي إبراز الأشياء من العدم إلى الوجود كما هو الشأن في خلق الإنسان وسائر الأحياء ، وخلق الكون بكل ما فيه من نجوم وكواكب ومجرات وأرض وجبال وبحار وما إلى ذلك .

وتعد ظاهرة الخلق من الظواهر الملموسة للناس جميعا ، ولا يستطيع عاقل التشكيك فيها ، كما أن إثبات خلق هذا الكون بكل ما يشتمل عليه وحدوثه بعد أن لم يكن شيئا ، لا يحتاج إلى كثير نظر واستدلال .

والعلة في ذلك كما يقول ابن تيمية هي أن " نفس حدوث الحيوان والنبات والمعدن والمطر والسحاب ونحو ذلك معلوم بالضرورة ، بل مشهود لا يحتاج إلى دليل ، وإنما يعلم بالدليل ما لم يعلم بالحس وبالضرورة، والعلم بحدوث هذه المحدثات علم ضروري لا يحتاج إلى دليل ، وذلك معلوم بالحس أو بالضرورة إما بإخبار يفيد العلم الضروري ، أو غير ذلك من العلوم الضرورية ، وحدوث الإنسان من المني كحدوث الثمار من الأشجار ، وحدوث النبات من الأرض وأمثال ذلك ، ومن المعلوم بالحس أن نفس الثمرة حادثة كائنة بعد أن لم تكن وكذلك الإنسان وغيره ، كما قال تعالى ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم:٦٧] وقال تعالى ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم :٩] ، ومعلوم أن هذه المخلوقات خلقت من غيرها كما خلق الإنسان من نطفة ، والطائر من بيضة ، والثمر من شجرة والشجرة من نواة ، والسنبلة من حبة "(١) .

(١) ابن تيمية : درء التعارض ٧ / ٢١٩ ، ٢٢٠ .

ولما كان دليل الخلق على هذه الدرجة من الوضوح واشتراك سائر البشر في الإقرار به وعدم إنكاره ، فقد تكرر تذكير الخلق به وتعددت الإشارة إليه في القرآن الكريم في مواضع كثيرة ، حتى بلغ عدد مرات ورود مادة خلق وما اشتق منها أكثر من مائتين وخمسين مرة[1] .

ويكفي أن نشير هنا إلى أن الله سبحانه قد ذكر عباده بهذا المعنى في أول آية نزلت من القرآن في سورة العلق حيث قال سبحانه ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١-٢] لكن من المهم أن نشير إلى أن الآية لم تسق لتذكير العرب والبشرية كلها بمعلومة جديدة أو حقيقة كانت خافية عليهم وهي أن الله هو خالقهم وأنه خلقهم من علق ، فقد كانوا يعرفون الأمرين كما قال سبحانه ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[الزخرف: ٨٧] وقال سبحانه﴿ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج:٣٩]

فالمعلومات إذن لم تكن جديدة ، وإنما الجديد هو طريقة المعرفة والقصد منها فمعلومات العرب في الجاهلية بحقيقة الخلق كانت معلومات باردة ميتة ، لأنها في محيط الذهن وحده ، وهنا يراد لها أن تكون معلومات حية نابضة لأنها لا تستكن في الذهن ، وإنما تنتقل إلى القلب فتنبض في وجدان حي . وتتحول إلى سلوك إيماني ، ومن ثم يتوجه العبد إلى خالقه كي يعبده ويشكره ويوحده[2].

---

(١) انظر محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٢٤١ - ٢٤٥

(٢) انظر محمد قطب : دراسات قرآنية ص ٣٠ ، ٣١ ، ود. محمد السيد الجليند : تأملات حول منهج القرآن في تأسيس اليقين ص ٥٢ ، ٥٣ .

ب- دليل التسوية :

ومعنى تسوية الشيء : إحسان خلقه ، وإكمال صنعته ، وإمداده بأسباب صلاحه وبقائه ، وجعله مستويا معتدلا متناسب الأجزاء دون تفاوت أو خلل بحيث يكون مهيأ لأداء وظيفته على أكمل وجه .

وإذا كان دليل الخلق يدل على الله سبحانه ، فإن التسوية أبلغ في الدلالة وأخص منها ، لأن الشيء يمكن أن يخلق دون أن يكون مسوى على الوجه الأكمل والأتم .

وتسوية المخلوقات أمر ظاهر للعيان في كل ما ذرأه الله وبرأه ، سواء في السماوات أو في الأرض ، وفي الحيوان أو النبات ، وأما الإنسان فهو نسيج وحده في هذا الباب ، ويكفي أن نمثل بأي عضو من أعضائه كالعين أو القلب لنرى عجيب صنع الله ، وإحسان خلقه جل وعلا .

وقد تكررت الإشارة إلى دليل التسوية في القرآن الكريم بعبارات متنوعة وإن كانت متقاربة في الدلالة ، ومنها التسوية كما في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [القيامة:٣٨] وقوله تعالى ﴿الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى:٢] ، ومنها الإتقان كما قال تعالى ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[النمل: ٨٨] ومنها الإحسان كما في قوله تعالى ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[المؤمنون: ١٤] وقوله ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة:٧] وقوله :﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] ومنها نفي التفاوت كما في قوله تعالى ﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَىٰ فِى خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك:٣] .

ج- دليل الهداية :

وكما أن الله سبحانه قد خلق كل شيء في الكون على الصورة التي تناسب وظيفته وتعينه على أدائها ، فهو سبحانه قد هداه أيضا إلى ما خلق لأجله ، وألهمه غاية وجوده ، ويسر له الطريق ليدرك غاية الكمال الذي يناسبه ، وهذه الهداية شيء آخر فوق الخلق والتسوية والتقدير ، إنها الإلهام أو التعليم الذي يتم بها التقدير ويكمل الخلق والتدبير .

وكثيرا ما يجمع الله سبحانه في كتابه بين الخلق والهداية ، كقوله في أول سورة أنزلها على رسوله ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق: ١ -٥] وقوله ﴿**الرَّحْمَنُ ۞عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**)[الرحمن:١ - ٤].

وقوله ﴿ **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ۞إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً** ﴾[الإنسان:٢، ٣] فالخلق إعطاء الوجود العيني الخارجي ، والهدى إعطاء الوجود العلمي الذهني ، فهذا خلقه وهذا هداه وتعليمه .

كذلك ذكر الله سبحانه الهداية في كتابه بعد ذكر صفة الخلق والتسوية والتقدير فقال ﴿ **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى** ﴾ [الأعلى:٢ ، ٣] وقال سبحانه حكاية عن كلام موسى لفرعون ﴿ **قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)** [طه: ٥٠] فإعطاء الخلق إيجاده في الخارج ، والهداية التعليم والدلالة على سبيل بقائه وما يحفظه ويقيمه وهي شاملة لهداية الحيوان كله ناطقه وبهيمه ، طيره ودوابه ، فصيحه ، وأعجمه(١).

---

(١) انظر ابن القيم : شفاء العليل ص ٧٩ .

ومظاهر الهداية في الكون أكثر من أن تحصى أو تحصر ، وهي سمة عامة مبثوثة في كل شيء في الكون من حي أو جامد ، وصامت أو ناطق ، وليست مقصورة على الإنسان وحده ، بل أمثلتها في عالم النبات وعالم الحيوان وعالم الفلك أشهر من أن تذكر .

٢ – دليل النبوات والمعجزات(١)

ومع أن المعجزات ودلائل النبوة إنما تساق في الغالب لإثبات صحة نبوة الرسل ورسالتهم ، إلا أنها تعد أيضا من الأدلة القاطعة على وجود الرب سبحانه وتعالى ، وذلك من عدة وجوه :

الوجه الأول : أن كل رسول أو نبي يأتي من عند الله سبحانه فإن دعوته ورسالته تتضمن عدة أمور ، وهي أنه رسول مبعوث لدعوة الناس إلى الإقرار لله بالربوبية والإلهية ، وأن هناك ربا وإلها هو الذي أرسله ، سواء أكان المخاطب يقر بوجود هذا الإله أم لا .

---

(١) انظر في تفصيل الكلام عن هذا الدليل : البيهقي : الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد ص ٤٥ ، ٤٦ ، وابن تيمية : مجموع الفتاوى ١١ / ٢٧٧ ، ودرء التعارض ٧ / ٢٩٧ – ٣٠٣ وابن القيم : الصواعق المرسلة ٣ / ١١٩٧ ، وأبو بكر جابر الجزائري : عقيدة المؤمن ص ٦٩ – ٧٧ ، وسعود العريفي : الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد ص ٢٩٦ – ٣٠٤ ود. عبد الحميد مدكور : دراسات في العقيدة الإسلامية ص ١٥١ – ١٥٣ ، ود. عبد الفتاح الفاوي : في العقيدة والفلسفة ص ٨٦ ، ود. السيد رزق الحجر : ابن الوزير اليمني ومنهجه الكلامي ص ٢١٠– ٢١٥ ، وخالد بن عبد اللطيف : منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله ١ / ٢٩٢ – ٢٩٥ ، ود. صلاح الصاوي : فاعلم أنه لا إله إلا الله ص ١١ ، ١٢ ، وأحمد قوشتي : حجية الدليل النقلي بين المعتزلة والأشاعرة ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، رسالة ماجستير بكلية دار العلوم ١٤١٩ – ١٩٩٨ م .

وإذا جاء الرسول بمعجزة تدل على صدقه ، فقد ثبت تبعا لذلك كل ما تضمنته رسالته من حقائق ، ومن أولها أن لهذا الكون ربا وإلها ، وليس بلازم أن تتقدم معرفة المكلف بالله حتى يصدق بالرسل ، لأن المعجزة نفسها دليل على وجود الله وربوبيته ، وأما إن كان المكلف مقرا بوجود الله بمقتضى فطرته التي لم تتغير فإن المعجزة تقرر عنده صدق النبوة ، وقبل ذلك وحدانية الله جل وعلا •

ومما يندرج في هذا المسلك الاستدلالي ما جاء في قصة موسى عليه السلام مع فرعون وقومه ، ففرعون كان منكرا للرب جل وعلا ظاهرا ومقرا به باطنا وقد حاجه موسى عليه السلام ، ومن ضمن ما احتج به عليه آية اليد والعصا وقد وصفهما الله بالبرهانين ، ولو لم يكن في المعجزة حجة على وجود الرب وربوبيته ما احتج بهما موسى عليه السلام على دعوى فرعون في جحد الربوبية ولاعترض فرعون على ذلك بأن تلك الآيات ليست بحجة •

الوجه الثاني : أن المعجزات التي أيد الله بها أنبيائه ورسله وجعلها من دلائل صدقهم وصحة رسالتهم تدل بنفسها على وجود الخالق سبحانه شأنها في ذلك شأن سائر المخلوقات ، بل هي أخص منها في الدلالة لأن الحوادث المعتادة ليست كالحوادث العجيبة الخارقة للعادة والتي تفوق قدرة البشر وإمكاناتهم ، بل إنها كانت مثار دهشة بعضهم مثلما حدث لموسى عليه السلام حينما تحولت عصاه إلى حية تسعى ، ولهذا يسبح الرب ويمجد عند حصول تلك الحوادث العجيبة أكثر من غيرها ويحصل بها في النفوس ذلة من ذكر عظمته ما لا يحصل في المعتاد •

ولا أظن أن هناك من يجادل في أن الطوفان الذي عم الأرض عقابا لقوم نوح أو إنقاذ إبراهيم عليه السلام من النار ، أو ناقة صالح

عليه السلام، أو إهلاك عاد وثمود وقوم لوط ، أو آيات موسى عليه السلام التسع لفرعون وقومه ، أو إحياء عيسى عليه السلام للموتى بإذن الله ، أو القرآن المعجز الذي جاء به النبي (ﷺ) أقول إنه لا أحد يجادل في أن ذلك كله خارج عن قدرة البشر وإمكاناتهم ، ولما كانت هذه المعجزات قد وقعت بالفعل مما يحتم أن يكون لها سبب وليس الأنبياء هم سبب وجودها ، فلابد إذن أن يكون خالقها وموجدها هو رب العالمين وخالق البشر سبحانه وتعالى .

الوجه الثالث : حصول العاقبة للأنبياء وأتباعهم والدائرة على أعدائهم : وكل من تتبع قصص الأنبياء وسيرتهم مع أقوامهم يرى أن من سنن الله المطردة نصر الأنبياء وأتباعهم وإهلاك أعدائهم ، وسلامة الأنبياء والمؤمنين ونجاتهم على الدوام من نزول العذاب عليهم .

وقد كثرت الإشارة في القرآن إلى هذه الدلالة ووصفها بأنها آية تستحق الاعتبار والتفكر ، وكل ذلك مما يلفت الأنظار إلى أهميتها ، واعتبارها دليلا من أدلة الربوبية ، فضلا عن دلالتها عن النبوة .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ **أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [التوبة:٧٠] وقال تعالى عن نوح ﴿ **فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ [العنكبوت:١٥] وقال سبحانه عن إبراهيم ﴿ **فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾[العنكبوت:٢٤] وقال تعالى بعد ذكره لقصة قوم لوط ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ** ﴾ [الحجر:٧٥] وقال تعالى لفرعون ﴿ **فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ** ﴾[يونس:٩٢] .

٤- إجابة الدعوات وكشف الكربات[1]

وقد دل على هذا النوع من أدلة وجود الله وربوبيته قوله تعالى ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢] ولا شك أن حصول إجابة دعوة المضطر وكشف الكربة عنه بعد رفع يديه إلى السماء واستعانته بخالقه من أعظم الأدلة على وجود رب قادر سميع بصير رؤوف رحيم ، لأن اقتران الإجابة بالدعاء وحصول عين المدعو به دليل عقلي حسي صريح على وجود السميع المجيب سبحانه .

ولا يعترض على ذلك بعدم حصول الإجابة في بعض الحالات ، لأنه ليس من شرط هذا الدليل اطراد الإجابة في كل حالة استغاثة ، إذ من الممكن أن توجد موانع تمنع الإجابة في بعض الحالات ، كما أن الله بحكمته قد يقضي أحيانا بعدم الإجابة العاجلة .

وظاهرة إجابة الدعاء من الظواهر المطردة والمتواترة والتي يستحيل عدها أو حصرها فضلا عن إنكارها أو التشكيك فيها ، بل إن لكل واحد منا تجربته الخاصة في هذا الصدد ، وما من أحد من المؤمنين أو من غير المؤمنين إلا ومرت عليه فترة فيها شدة وقلق وانكسار واضطرار فتوجه إلى الله بقلب كله رجاء وأمل ، فإذا بالكرب يزول وبالشدة تنجلي .

---

(١) انظر في تفصيل الكلام عن هذه الدليل : ابن عثيمين : شرح أصول الإيمان ضمن الرسائل والمتون العلمية ص ٧٨ ، وسعيد حوى : الله جل جلاله ص ٥٠ - ٥٣ ، وسعود العريفي : الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد ص ٣٠٤ - ٣٠٧، وأحمد فريد : الثمرات الزكية ص ٢٣ ، ٢٤ وسيد سعيد عبد الغني : العقيدة الصافية ص ٥٥ .

ومن المسلم به أنه ما من نفس إلا وتلجأ إلى الله ساعة الخطر ، وقد ذكر الله هذا الأمر كثيرا في كتابه ، فقال سبحانه﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام:٤٠] وقال سبحانه ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس:١٢] وقال سبحانه ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ [الإسراء:٦٧] .

وإذا كان سبحانه يجيب المضطر ، ويكشف الضر ويسمع دعاء من دعاه ، فإن آلهة المشركين المزعومة على العكس من ذلك تماما ، فهم لا يسمعون أو يبصرون أو يعقلون ، ومن ثم فدعاؤهم ضلال وخبل في العقل ، كما قال سبحانه ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾[الأحقاف:٥] وقال سبحانه ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١] .

ومن أبرز نماذج إجابة الدعوات ما حكاه الله سبحانه من قصص الأنبياء وسيرتهم مع أقوامهم واستجابة الله لدعائهم ، فقد استجاب الله دعاء نوح عليه السلام ، كما قال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات:٧٥] وقال سبحانه ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ۞ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾[القمر:١٠، ١١] وأنجى الله إبراهيم عليه السلام من النار ، ووهب له الولد على الكبر .

كذلك أنجى الله سبحانه هودا وصالحا من أقوامهم المشركين الظالمين ، ونجى يونس من بطن الحوت ، ورد على يعقوب بصره وأعاد إليه ولده يوسف واستجاب لدعاء موسى على فرعون وقومه وفرق له البحر ، ونجى عيسى عليه السلام ممن أرادوا قتله وصلبه ، وأما بخصوص نبينا صلى الله عليه وسلم فهناك عشرات الحوادث التي استجاب الله فيها دعاءه ، وقد ذكرت كتب دلائل النبوة ذلك تفصيلا .

ولا تقتصر حالات إجابة الدعوات وكشف الكربات على الأنبياء أو الصالحين وحدهم ، بل هناك نماذج وشواهد كثيرة لا تحصى على ذلك ، وكتب التاريخ والسير حافلة بذلك ، بل إن هناك بعض المؤلفات التي أفردت لهذا الأمر[1].

٥ – إجماع الأمم وشهادة التاريخ[2]:

ومن الأدلة على وجود الخالق جل وعلا إثبات الأمم كلها لتلك الحقيقة العظمى وإجماعهم على ذلك ، بحيث لم يذهب إلى نقيض هذا القول طائفة

---

(١) وهذه الكتب بعضها مطبوع وبعضها لم يطبع بعد ، ومنها كتاب " الفرج بعد الشدة " لابن أبي الدنيا ، وكتاب " مجابي الدعوة " له أيضا ، وكتاب " الفرج بعد الشدة " لأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني ، وكتاب " الفرج بعد الشدة " لأبي القاسم التنوخي وهو كتاب ضخم مطبوع في أكثر من مجلد ، وكتاب " المستصرخين بالله سبحانه وتعالى عند نزول البلاء " لأبي الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث محدث قرطبة والقاضي بها ، وكتاب " المستغيثين بالله عند المهمات والحاجات و لمتضرعين إليه سبحانه بالرغبات والدعوات وما يسر الله الكريم لهم من الإجابات والكرامات " للقاسم بن بشكوال . وانظر كشف الظنون لحاجي خليفة ١ / ٦٢ ، ١٧٠٦ ، ١٧٠٧ ، ١٢٥٢ ، والأعلام للزركلي ٢ / ٣١١ ، ومعجم المؤلفين لكحالة ٣ / ١٣١ ، ٧ / ١٩٦ .

(٢) انظر د. يوسف القرضاوي : وجود الله ص ٧٩ – ٨٢ ، ود. صلاح الصاوي : فاعلم أنه لا إله إلا الله ص ١٢ ، وما لا يسع المسلم جهله ص ٢٢ ، ود. عبد المجيد النجار : الإيمان بالله وأثره في الحياة ص ٣٦ – ٣٨ .

معروفة من بني آدم اللهم إلا شذاذ لا يعتد لمثلهم بخلاف ، ولا يؤبه لهم بقول .

وقد ذكر أرباب المقالات ما جمعوا من مقالات الأولين والآخرين في الملل والنحل والآراء والديانات ، فلم ينقل عن أحد إثبات شريك لله في خلق المخلوقات ولا مماثل له في جميع الصفات ، فضلا عن إنكار الربوبية بالكلية

وكل من يستقرئ التاريخ – منذ عرف الإنسان تاريخا – يرى أن الجماعات البشرية في كافة الأقاليم حارة وباردة ، ومن مختلف الأجناس والألوان بيضاء وسوداء ، وفي شتى المستويات بداة ومتحضرين ، ومن كل الطبقات أغنياء وفقراء ، وفي جميع العصور قديمها ووسيطها وحديثها ، فكل هذه الجماعات المتفرقة عرفوا الله على صورة من الصور .

وكما قال المؤرخ الإغريقي بلوتارك : " لقد وجدت في التاريخ مدن بلا حصون ، ومدن بلا مدارس، ومدن بلا قصور ، ولكن لم توجد مدن بلا معابد "[1] ويقول العقاد " إن تجارب التاريخ تقرر لنا أصالة الدين في جميع حركات التاريخ الكبرى ، ولا تسمح لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شيء تستطيع الجماعة أن تلغيه ، ويستطيع الفرد أن يستغني عنه في علاقته بتلك الجماعة أو فيما بينه وبين سريرته المطوية عمن حوله ولو كانوا من أقرب الناس إليه ، ويقرر لنا التاريخ أنه لم يكن قط لعامل من عوامل الحركات الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين ، وكل ما عداه من العوامل المؤثرة في حركات الأمم فإنما تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة في التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة "[2] .

---

(١) د. محمد عبد الله دراز : الدين ، ص ٧٥ ، ٧٦ وانظر د.يوسف القرضاوي : وجود الله ص ٢٣ .

(٢) عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٥ .

ولا شك أن كل من يحترم نوع الإنسان ويحترم نتائج التاريخ ونتائج عقله فلابد أن يسلم بأن هذا الإجماع التاريخي دليل يؤكد تلك الحقيقة الكبرى وهي وجود الله تعالى ، وتجارب كتجارب الوقائع أيضا كلها تنطق وتشهد بأصالة الإيمان بوجود الله تعالى وضرورته للإنسان ، فهو ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ويزكو ، وهو ضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويرتقي .

ومن ثم فلا عجب أن يحثنا القرآن على السير في الأرض والنظر في تاريخ الغابرين والاعتبار بمصارع المكذبين والتأمل في آثارهم بعقول بصيرة وقلوب مفتحة كما قال سبحانه : ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِى الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [غافر:٨٢] وقال تعالى ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ**﴾ [الحج:٤٦] .

٦ – الدليل الأخلاقي (١)

والمقصود بالدليل الأخلاقي على وجود الله سبحانه عدة أمور :

الأمر الأول : أن في كل نفس إنسانية سوية وازعا أخلاقيا أو ما يسمى بالضمير ، به يفرق الإنسان بين الخير والشر ، ويستحسن فضائل الأخلاق

---

(١) انظر في تفصيل الكلام عن هذا الدليل : د. جعفر شيخ إدريس : الفيزياء ووجود الخالق ص ٥٧ – ٦٥ ، وعباس محمود العقاد : الله ص ٢٣١ ، ٢٣٢ ، والسيد سابق : العقائد الإسلامية ص ٤٤ ، ود. يوسف القرضاوي : وجود الله ص ٧٤ – ٧٦ ، ود. سعد الدين السيد صالح : العقيدة الإسلامية في ضوء العلم الحديث ص ١٤٧ .

ومكارمها كالصدق والأمانة والعدل والعفة والشجاعة ، ويستقبح رذائلها كالكذب والخيانة والظلم والفجور والجبن .

والسؤال المهم هو : من أين استقى الناس تلك المعارف وهذه الأحكام الثابتة ومن الذي غرسها في نفوسهم ، ومن أين تقرر في فطرة الناس أن الواجب الكريه لديهم أولى من إطاعة الهوى المحبب إليهم ، وإن لم يكن هناك من يراقبه أو يطلع على دخيلة سره ؟

والجواب هو أن وجود هذا الوازع الأخلاقي في نفس الإنسان دليل واضح على أن هناك من غرسه في نفسه ، لتستقيم مسيرة الحياة ولينتظم أمر الجماعة ، وذلك هو الله رب العالمين ، الذي فطر النفوس على حب الحق والخير والجمال ووهبها القدرة على التمييز بين الخير والشر ، كما قال سبحانه ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾[الشمس:٧ ، ٨]

وربما يعترض بعض الناس على ذلك بأن وجود الأخلاق أو الضمير أو الشعور بالواجب إنما هو عادة اجتماعية رسخت في النفس بمضي الزمن ، حتى استحالت إلى رغبة مقبولة أو مطلب محبوب ، وينسى هؤلاء أن العادة الاجتماعية ليست بالتفسير الذي يعلل نشأة الأخلاق ، وإنما هي تكرير للمشاهدة كما رأيناها .

فإذا سألهم سائل لم نشأت العادة الاجتماعية ؟ قالوا للمصلحة الاجتماعية ولكنهم لا يسألون أنفسهم لماذا كانت المصلحة الاجتماعية أمرا مفروغا منه ومقضيا بوقوعه ؟ ولا شك أن ترجيح المصلحة الاجتماعية العامة على المصالح والشهوات الفردية الخاصة إنما هو أثر من آثار الوازع أو الضمير الذي أنكروه .

الأمر الثاني : أن وجود الله سبحانه يمثل ضرورة أخلاقية واجتماعية - وبدون الإيمان بالله تتحول المجتمعات الإنسانية إلى غابة حيوانية كبيرة ،

يأكل فيها القوي الضعيف ويفترس فيها الغني الفقير ، وبدون الإيمان بالله لن يوجد من يلزم الإنسان بأن يكون صادقا ، ومن يلزمه بان يكون أمينا ، ومن يلزمه بأن يحسن معاملة الناس ، ومن يلزمه بكل المبادئ الأخلاقيـة التـي تضمن قيام المجتمعات وسلامة أمنها ؟

ولا أظن أن هناك من يجادل في أن القيم الخلقية مثل الصدق والأمانـة والوفاء والعدل وغيرها تعتبر قيما ضرورية لوجود المجتمعـات البشـرية وصلاحها واستمرارها ، وبدونها يصعب بقاء المجتمع أو تماسـكه ، لأنهـا بمثابة ملاط المجتمع الذي يمسك أفراده ، كما يمسك الملاط اللبنـات التـي يتكون منها البناء ·

وبدون هذه القيم لا يتصور وجود علم حتى بأمور الـدنيا ، ولا يكـون اقتصاد ولا تتكون علاقات اجتماعية ، إذ كيف نثق حينئذ فيمن ادعـى أنـه اخترع شيئا جديدا أو توصل إلى حقيقة علمية ، وما الفائدة من قراءة كتـاب لا ندري هل صاحبه صادق أم كاذب ، وقل مثل ذلـك عـن سـائر أفـراد المجتمع من المعلمين ورواة الأخبار والتجار والزراع والصـناع ، وكيـف نتعامل مع هؤلاء جميعا إذا كانت الثقة مفقودة ، والكذب هو الـنمط السـائد والغالب ؟

وهكذا فإن الصدق ليس مجرد فضيلة خلقية فحسب ، بل هو ضـرورة اجتماعية أيضا ، وكلما كثر عدد الصادقين في المجتمع كلما ازداد تماسـكه وازدهرت أحواله ، ومن ثم فالصادقون يسدون للمجتمع خدمة جليلة هي من ضرورات وجوده ، بينما الكاذبون يمثلون معولا من أخطر معاول هدمه·

لكن على الرغم من كل ما قلناه عن ضرورة الأخلاق وقيمتها ، فإن ثمة مشكلة في غاية الأهمية ، وهي أن الصادق قد لا يجد جزاء صدقه في حياتنا الدنيوية ، بل ربما كان صدقه سببا في حدوث خسارة عاجلة لـه أو فقـدان

مكانة اجتماعية ، والكاذب قد لا يعاقب دائما على كذبه ، بل ربما كان كذبه هذا وسيلة إلى كسب مالي أو نيل وجاهة اجتماعية وتفادي أذى حسي أو معنوي ، وهكذا فإن المشكلة هي أن الذين ينفعون المجتمع قد يضارون ماديا ، بينما الذين يضرونه قد ينتفعون ماديا ٠

وإذا لم يكن هناك خالق يرى ويسمع ، وإذا لم يكن هنالك دار آخرة يجازى فيها المحسن على إحسانه ، ويعاقب فيها المسيء على إساءته ، فما الذي يدفع الناس لتحري الصدق وتجنب الكذب ، وفيم التضحية بالنفع العاجل دون انتظار أي ثواب أو جزاء ٠

وقد يقول بعض الملحدين إنه ليس هناك داع لوجود الله والإيمان به ، لأن الضمير الإنساني كاف لحث الإنسان على فعل الحسن والكف عن القبيح ، لكننا نسألهم عمن كون هذا الضمير ، وغرسه في كيان الإنسان ، وألهمه التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح ؟

وقد يزعم البعض أن قوانين الدولة وأنظمتها كافية لحفظ المجتمعات وحسن سيرها ، لكننا نقول لهم : من الذي سيحاسب واضعي القوانين أنفسهم والقائمين على تنفيذها من ذوي الجاه والسلطة ، ومن الذي سيحاسب من أفلت بجريمته وغش وخدع ، أو برأته تلك القوانين الجائرة ، والجواب أنه لا ضامن لذلك كله إلا الإيمان بالله سبحانه الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ٠

الأمر الثالث : أن المؤمنين بالله إيمانا حقيقيا أعلى من غيرهم علما ، وأكثر أدبا وأزكى نفسا ، وأطيب قلبا ، وأكثر تضحية ، وأعظم إيثارا ، وأنفع الناس للناس فما الذي غير طباعهم وغرائزهم وميولهم ووجهها وجهة الحق والخير والجمال والكمال ؟ ولماذا لم يكونوا مثل غيرهم ممن لا

يؤمنون بالله من غلظ الجهل وجفاء الطبع وخبث النفس وظلمة القلب وفساد الخلق وحيوانية في المطالب والمآرب ؟

والجواب هو أنه لابد أن يكون وراء ذلك سر ، وليس هذا السر سوى أن الله يمد المؤمنين به بالقوى التي تصحح إنسانيتهم ، ليصلوا إلى أقصى ما قدر لهم من كمال ، وهذا التغيير في نفوس المؤمنين وأخلاقهم وصفاتهم وميولهم أدل دليل على وجود خالق عليم حكيم سبحانه وتعالى وجل وعلا .

۞ ۞ ۞

ثانيا : الإيمان بربوبية الله تعالى (توحيد الربوبية)

ويقصد بتوحيد الربوبية : الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى رب كل شيء . ولا رب غيره ، ولا يشاركه أحد في فعله ، وأنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير الذي ربى جميع الخلق بالنعم ، وربى خواص خلقه وهم الأنبياء وأتباعهم بالعقائد الصحيحة والأخلاق الجميلة والعلوم النافعة[1].

ويمكننا أن نعرف توحيد الربوبية بتعريف دقيق ومختصر فنقول إنه " إفراد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير "[2] ، لأن هذا النوع من التوحيد يستوجب إفراد الله عز وجل بجميع معاني الربوبية اللغوية والشرعية ، ونفي الشريك عنه في أي منها ، فيشمل بذلك توحيد الله تعالى في أفعاله المتعلقة بمشيئته كالخلق والتدبير ، كما يشمل صفات الربوبية الذاتية كالملك والقيومية والصمدية[3].

والربوبية لغة نسبة لاسم الله " الرب " ويطلق لفظ الرب على عدة معان من أشهرها[4]: أن الرب بمعنى المربي : من التربية والتعهد والإصلاح ،

---

(١) انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١١ / ٥١ ، و ابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ١ / ٢٤ ، وسليمان بن عبد الوهاب : تيسير العزيز الحميد ١ / ٣٣ ، وعبد العزيز المحمد السليمان : الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية ص ٤١ .

(٢) انظر سليمان بن عبد الوهاب : تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد ص ٣٣ ، وابن عثيمين : شرح العقيدة الواسطية ١/ ٢١ ، والقول المفيد على كتاب التوحيد ١ / ٢ ، و فتاوى مهمة لابن باز وابن عثيمين ص ٤ .

(٣) انظر سعود العريفي : الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد ص ٣٠٨

(٤) انظر ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ٢ / ٣٨١ - ٣٨٢ ، والفيروز آبادي : القاموس المحيط ١ / ٧٠ ، والرازي : مختار الصحاح ص ٩٦ ، وابن منظور : لسان العرب ١ / ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

والرب بمعنى المالك ، والرب بمعنى السيد أو الحاكم ، كقول يوسف عليه السلام للرسول الذي جاءه بالسجن ﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾[يوسف : ٥٠] ولا يطلق الرب بالألف واللام إلا على الله عز وجل ، ويجوز إطلاق هذا اللفظ مقيدا بالإضافة على غيره فيقال رب الدار ٠

وكل هذه المعاني المذكورة ثابتة لله عز وجل على التمام والكمال[1]، فهو سبحانه رب الناس أي المربي لهم بنعمه ، كما قال سبحانه ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] وقال سبحانه ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود:٦] وهو سبحانه مالك الناس ومالك المخلوقات كما في قوله ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۞ مَلِكِ النَّاسِ ﴾[الناس:١، ٢] وقوله ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[النمل:٢٦] أي مالكه وهو سبحانه الرب بمعنى السيد والحاكم كما في قوله ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[يوسف: ٤٠] ٠

ومن هذه المعاني الكثيرة للفظ الرب اشتق اسم الربوبية ، والتي تعني الخلق والرزق والملك والسيادة والتربية والإصلاح والتدبير ، ولما كان الله سبحانه هو الرب الحق للعالمين ، فقد اختص بالربوبية دون سواه ، ووجب توحيده فيها وامتنع عن الشريك فيها ، بحيث لا تصلح الربوبية لغيره ٠

---

(١) انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١ / ٨٩ ، ١٠ / ٣٣١ ، و د٠ محمد خليل هراس : دعوة التوحيد ص ٢٩، وأحمد فريد : الثمرات الزكية ص ١٨

ومن ثم فمعنى توحيد الربوبية يعني نفي الشريك عنه تعالى في صفات الربوبية الحقة ، والتي هي الخلق والرزق والملك والتدبير الذي من لوازمه الإحياء والإماتة والعطاء والمنع والضر والنفع والإعزاز والإذلال[١]، فلا خلق ولا رزق ، ولا عطاء ولا منع ، ولا قبض ولا بسط ، ولا موت ولا حياة ، ولا إضلال ولا هدى ، ولا سعادة ولا شقاوة إلا بعد إذن الله ، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه ، إذ لا مالك غيره ولا مدبر سواه ولا رب غيره[٢]، كما قال تعالى ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[القصص:٦٨] وقال سبحانه ﴿ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾[الحج:٥] وقال ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٨] وقال ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۞ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى:٤٩، ٥٠].

ولا يتحقق توحيد الربوبية من المؤمن على وجهه الصحيح إلا إذا أفرد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير[٣]:

١ - فإفراده تعالى بالخلق : أن يعتقد الإنسان أنه لا خالق إلا الله ، كما قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف: ٥٤] فهذه الجملة تفيد الحصر لتقديم الخبر؛ إذ إن تقديم ما حقه التأخير يفيد

(١) انظر أبو بكر جابر الجزائري : عقيدة المؤمن ص ٨٩ .

(٢) ابن القيم : شفاء العليل ص ٤٤ .

(٣) انظر ابن عثيمين : شرح العقيدة الواسطية ١ / ٢١ - ٢٤ ، والقول المفيد على كتاب التوحيد ١ / ٢ - ٤ ، ود. سالم محمود عبد الجليل : الإيمان بالله تعالى ص ٣٩ - ٤٨ .

الحصر، وقال تعالى: ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[فاطر: ٣]؛ فهذه الآية تفيد اختصاص الخلق بالله ، لأن الاستفهام فيها مشرب معنى التحدي.

والآيات الدالة على تفرد الله تعالى بالخلق كثيرة ، ومنها مثلا قوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤] ولم يملك المشركون على مدار الزمن إنكار حقيقة أن الله تعالى وحده هو الخالق ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١] وما زال التحدي وسيظل قائما ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:٦٠] .

والجواب لابد أن يكون لا إله إلا الله ، فمن قال بغير ذلك مع وضوح الآيات وكثرة البراهين فهو أحمق لا يستحق أن يكون من عداد البشر ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾(الفرقان:٤٤)

أما ما ورد من إثبات خالق غير الله ؛ كقوله تعالى:﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[المؤمنون:١٤] ، وكقوله (ﷺ) في المصورين: " يقال لهم

أحيوا ما خلقتم "[1] فهذا ليس خلقاً حقيقة ، وليس إيجاداً بعد عدم ، بل هو تحويل للشيء من حال إلى حال ، كما أنه ليس شاملاً ، بل محصور بما يتمكن الإنسان منه ، ومحصور بدائرة ضيقة ؛ فلا ينافي قولنا: إفراد الله بالخلق.

٢ – وأما إفراد الله بالملك : فأن نعتقد أن الله تعالى مالك كل شيء ولا مالك غيره ، ولا يملك الخلق إلا خالقهم ؛ كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:١٨٩]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[المؤمنون :٨٨] كما حمد الله نفسه على تفرده بالملك فقال ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ [الإسراء:١١١] وقد نفى الله سبحانه أن يكون له شريك في ملكه ولو بمقدار الذرة فقال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾[فاطر: ١٣] .

ولما كان الله سبحانه هو المالك للكون كله ، والذي يملك النفع والضر ، فقد نعى على المشركين الذين يعبدون ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعا، فقال سبحانه ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلا نَفْعاً وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة:٧٦] ولما زعم النصارى أن المسيح ابن مريم هو الله ، رد الله تعالى عليهم زعمهم هذا بأن أحدا من الخلق لا يملك دفع الضر عن ابن مريم ولا أمه ولو كان المسيح إلها لدفع الضر عن نفسه ، فلما لم يفعل دل ذلك على أنه عبد من عباد الله تعالى ، كما قال سبحانه

(١) رواه البخاري (٢١٠٥ ، ٣٢٢٤) ومسلم (٢١٠٨).

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٧]

ولا يملك النفع ولا الضر إلا الله تعالى وحده ، وتلك عقيدة المسلم حتى رسل الله تعالى ، وعلى رأسهم سيد الرسل محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد حكى الله عنه قوله﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨]

وأما ما ورد من إثبات الملكية لغير الله تعالى كقوله تعالى:﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾(النساء:٣) وقوله تعالى: ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ ﴾ [النور: ٦١] فهو ملك محدود لا يشمل إلا شيئاً يسيراً من هذه المخلوقات ؛ فالإنسان يملك ما تحت يده ولا يملك ما تحت يد غيره ، وكذا هو ملك قاصر من حيث الوصف؛ فالإنسان لا يملك ما عنده تمام الملك ، ولهذا لا يتصرف فيه إلا على حسب ما أذن له فيه شرعاً ، فمثلاً: لو أراد أن يحرق ماله أو يعذب حيوانه ؛ فذلك لا يجوز، أما الله سبحانه فهو يملك ذلك كله ملكاً عاماً شاملاً.

كذلك لا يتنافى توحيد الربوبية مع ما جاء من تسمية المالك للشيء المتصرف فيه ربا ، كأن نقول فلان رب الدار أو رب البيت ، فإن هذا يعني أنه هو صاحب هذا الشيء الذي جعل الله تعالى له حق التملك والتصرف في ذلك الشيء المملوك ، وهو يصلحه وينميه ويتعهده ويقوم برعايته ، ولا

يتنافى ذلك مع أن الله سبحانه هو رب كل شيء ومليكه ، فهو إطلاق بمعنى خاص لا بأس به في الشرع ولا العقل[1].

٣ – وأما إفراد الله بالتدبير : فهو أن يعتقد الإنسان أنه لا مدبر إلا الله وحده؛ ولا يملك أحد التصرف في الكون غيره ، وكل شيء بتدبيره سبحانه لا غير وقد أثبت الله التدبير لنفسه فقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾[يونس:٣] وقال تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾[الرعد:٢] وقال سبحانه ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾[السجدة:٥] وأما تدبير الإنسان فمحصور بما تحت يده ، ومحصور بما أذن له فيه شرعاً .

وقد دلت الفطرة[2]على توحيد الربوبية كما دلت على وجود الله تعالى وذلك أن اتجاه النفوس حال الاضطرار إنما يكون إلى جهة واحدة وملجأ واحد لا تلوي على غيره ولا ترجو الإغاثة عند سواه ، وفي هذا أكبر دلالة على أن النفوس مفطورة على أن ربها ومدبر شؤونها والقادر على أمرها إنما هو رب واحد لا شريك له ، كما قال سبحانه ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ

---

(١) انظر أبو بكر جابر الجزائري : عقيدة المؤمن ٨٩ ، ود . عثمان جمعة ضميرية : المدخل لدراسة العقيدة ص ٢٣٠ .

(٢) انظر ابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٢٦ – ٢٨ ، ٤٠ ، ٩ ، ود. محمد خليل هراس : دعوة التوحيد ص ٢٩ ، وأبو بكر جابر الجزائري : عقيدة المؤمن ص ٩٠ ، ٩١ ، وسعود العريفي : الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد ص ٣٠٩ ، ٣١٠ .

الإنسان كفوراً﴾ [الإسراء: ٦٧] ومن دأب عقلاء الناس في كل زمان ومكان أنهم يتحاشون أن ينسبوا شيئاً من صفات الربوبية لغير الله تعالى الرب الحق الذي لا رب غيره ولا إله سواه ، وذلك لما يعلمه الإنسان العاقل ذو الفطرة السليمة من عدم صلاحية المخلوقين للاتصاف بصفات الربوبية وعجزهم عنها ، لأن المخلوق لا يخلق والمملوك لا يملك ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧].

ويكفي شاهدا على تلك الحقيقة اعتراف مشركي العرب حين نزول القرآن – وهم يدعون إلى عبادة الله وحده – بعدم صلاحية آلهتهم لشيء من صفات الربوبية وحقائقها ، مع شدة تعصبهم لتلك الآلهة وتقديسهم لها وتعظيمهم إياها ، فإنهم كانوا لا يترددون في الاعتراف بعدم صلاحية الإنسان فضلا عن غيره من التماثيل والأصنام للاتصاف بصفات الربوبية ، فلم يكونوا ينتحلونها لأفرادهم ولا لآلهتهم ، ولا يدعونها لهم بحال ، وذلك لما وقر في نفوسهم بحكم الفطرة البشرية من عجز المخلوقين عن الخلق والرزق والتدبير .

وقد أخبر الله في محكم التنزيل عن اعترافهم وعجزهم هذا في أكثر من آية كقوله تعالى ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:٣١] وقوله تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩]



ثالثا : الإيمان بألوهية الله (توحيد الألوهية)

ويقصد به الاعتقاد الجازم بأن الله عز وجل هو – وحده – المستحق للعبادة وإفراده بجميع أنواع العبادات الظاهرة والباطنة ، والبراءة من كل معبود من دونه ، فلا يعبد إلا الله ولا يتوكل إلا عليه ولا يتحاكم إلا إليه ولا يتلقى الهدى إلا منه ولا يتوجه بالعمل إلا إليه ، وأن يكون الله وحده أحب إلى العبد من كل ما سواه ، وأخوف عنده من كل ما سواه ، وأرجى له من كل ما سواه ، فيعبده بمعاني الحب والخوف والرجاء بما يحبه هو ويرضاه ، وهو ما شرعه على لسان رسوله لا بما يريده العبد ويهواه ، وتلخيص ذلك في كلمتين إياك أريد بما تريد ، فالأولى توحيد وإخلاص ، والثانية اتباع للسنة وتحكيم للأمر[1].

وتوحيد الألوهية مبني على إخلاص العمل كله لله ، والتوجه به إليه سبحانه دون غيره ، سواء كان هذا العمل من أعمال القلوب أو من أعمال الجوارح مما يستلزم تعلق القلب بالرب تعالى خوفا ورجاء ورهبة وطمعا ، وإسلام الوجه له ، ووقف الحياة كلها والمخلوق بأكمله ابتغاء مرضاة الله ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢]

والألوهية لغة نسبة للإله ، والإله هو المألوه ، أي المعبود المحبوب الذي تألهه القلوب بحبها وتخضع له ، وتذل له ، وتخافه وترجوه ، وتنيب

(١) انظر ابن القيم : مدارج السالكين ٣ / ٣٩٨ ، و ابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ١ / ٢٤، وحافظ أحمد حكمي : معارج القبول ١ / ٢١٩ ، ود. محمد خليل هراس : دعوة التوحيد ص ٣٤ ، وابن عثيمين : القول المفيد على كتاب التوحيد ١ / ٤ ، وشرح العقيدة الواسطية ١ / ٢٤ .

إليه في شدائدها وتدعوه في مهماتها ، وتتوكل عليه في مصالحها ، وتلجأ إليه ، وتطمئن بذكره وتسكن إلى حبه ، وليس ذلك إلا الله وحده الذي يستحق أن يعبد لما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب ، المخضوع له غاية الخضوع[1].

وهناك عدد من الأسماء التي أطلقت على هذا النوع من التوحيد[2]: منها تسميته بتوحيد الألوهية أو توحيد العبادة ، فباعتبار إضافته إلى الله يسمى توحيد الألوهية ، لأنه مبني على إخلاص التأله وهو أشد المحبة لله وحده ، وباعتبار إضافته إلى العابد يسمى توحيد العبادة ، كما سماه بعض العلماء بالتوحيد الإرادي الطلبي أو التوحيد العملي ، وجعله قسيما للنوعين الآخرين من التوحيد – أي توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء الصفات – واللذين يطلق عليهما التوحيد العلمي أو الاعتقادي الخبري .

وإنما سمي بتوحيد الإرادة لأنه مبني على إرادة وجه الله بالأعمال ، وسمي بتوحيد القصد لأنه مبني على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده وسمي بتوحيد العمل لأنه مبني على إخلاص العمل لله وحده ، كما قال تعالى﴿ **فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ** ﴾[الزمر:٢] وقال ﴿ **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ**﴾ [الزمر:١١] .

---

(١) انظر ابن القيم : طريق الهجرتين ص ٤٧٣ .

(٢) انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١ / ٢٣ ، ١٠ / ٢٧٣ ، ٣٧٤ ، والاستقامة ٢ / ٣١ ، والصفدية ٢ / ٣١٥ ، وبيان تلبيس الجهمية ١ / ٤٧٩ ، وابن القيم : مدارج السالكين ١ / ١٥ ، وبدائع الفوائد ١ / ١٤٦ ، وابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ١ / ٤٢ ، ٤٣ ، وسليمان بن عبد الوهاب : تيسير العزيز الحميد ١ / ٣٨ .

ولن نطيل في بيان أهمية توحيد الألوهية ، ومنزلته العظيمة ، ويكفي أن نشير[1] إلى أنه أول الدين وآخره ، وباطنه وظاهره ، وهو أول دعوة الرسل وآخرها وهو معنى قول لا إله إلا الله ، فإن الإله هو المألوه المعبود بالمحبة والخشية والإجلال والتعظيم وجميع أنواع العبادة ، وهو أول واجب على المكلف وآخر واجب ، وأول ما يدخل به الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا ، كما قال (ﷺ) " من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة "[2] وقال" أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله (ﷺ)"[3] وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح وأبدأ فيه وأعاد ، وضرب لذلك الأمثال بحيث أن كل سورة في القرآن ففيها الدلالة على هذا التوحيد .

ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة ، وأرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار ، وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار ، وهو أول أمر في القرآن ، كما قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١] .

---

(١) وانظر تفصيلا مهما لذلك عند ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١ / ٣٦٨ ، و ١٥ / ١٦٤ وابن القيم : زاد المعاد ١ / ٣٤ ، ومدارج السالكين ٣ / ٤٥٠ ، وابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ١ / ٢١ - ٢٤، ٤٢ ، وسليمان بن عبد الوهاب : تيسير العزيز الحميد ١ / ٣٦- ٣٩ ، وحافظ أحمد حكمي : معارج القبول ١ / ٢٢٦ - ٢٣٣ ، ود. محمد خليل هراس : دعوة التوحيد ص ١٤ ، ٣٤ ، ود. صالح الفوزان : معنى لا إله إلا الله ص ١٠ .

(٢) رواه أبو داود (٣١١٦) وأحمد (٢١٥٢٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٩).

(٣) رواه البخاري (٢٥) ومسلم (٢١).

كما أن هذا التوحيد هو مفتاح دعوة الرسل ، ومقصد رسالتهم ، ومحط اهتمامهم الأول ، ومحك الخلاف بينهم وبين أممهم ، وتتبع قصص الأنبياء في القرآن يدل على هذا الأمر بوضوح ، فقد قال تعالى مخبرا عن نوح عليه السلام ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:٢٣] وقال عن هود عليه السلام ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:٦٥] وتكررت هذه الكلمة وتلك الدعوة على لسان صالح وشعيب وسائر الأنبياء والرسل عليهم السلام ، كما أن الله سبحانه ذكر قاعدة عامة في دعوة كل الرسل فقال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل: ٣٦] وقال سبحانه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] .

وأما رسالة نبينا محمد (ﷺ) ، فقد كانت الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله هي أول ما بدأ به صلى الله عليه وسلم ، وبقي ثلاثة عشر عاما في مكة لا هم له بالليل أو النهار إلا غرس التوحيد في القلوب ، وإخلاص العبادة لله وحده ، امتثالا لأمر الله ، كما قال سبحانه عن نبيه ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر:١١] وقال ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ [الزمر:١٤] .

وحينما بعث (ﷺ) أصحابه إلى البلاد معلمين ودعاة إلى الله كان أول وأهم ما أمرهم به هو الحرص على دعوة الناس إلى التوحيد ، ففي قصة بعث معاذ رضي الله عنه إلى اليمن قال له النبي (ﷺ) : " إنك تأتي قوما أهل

كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله "[١] وفي مرض موته صلى الله عليه وسلم كان من أهم ما يشغله صيانة جانب التوحيد وسد الذرائع المؤدية إلى الشرك ، ففي حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حضرته الوفاة جعل يلقي على وجهه طرف خميصة له ، فإذا اغتم كشفها عن وجهه وهو يقول : " لعنة الله على اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . تقول عائشة يحذر مثل الذي صنعوا "[٢] .

مفهوم العبادة وأنواعها :

تبين لنا من كلامنا السابق عن توحيد الألوهية أن المكلف لا يحققه على وجهه الصحيح إلا إذا أفرد الله تعالى بالعبادات كلها ، وتوجه بها إلى الله وحده دون سواه ، مما يستلزم منا أن نتعرف على مفهوم العبادة ، وأنواعها ، وأركانها ، وشروط صحتها .

وأصل معنى العبادة لغة هو الخضوع والذل ، يقال بعير معبد أي مذلل وطريق معبد إذا كان مذللا قد وطئته الأقدام ، والعبادة تجمع أصلين وهما غاية الحب وغاية الذل والخضوع ، والتعبد هو التذلل والخضوع ، فمن أحببته ولم تكن خاضعا له لم تكن عابدا له ، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدا له حتى تكون محبا خاضعا[٣] .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية نظرة عميقة لمفهوم العبادة حلل فيه المعاني التي يشتمل عليها هذا المفهوم مبرزا إلى جوار المعنى الأصلي في اللغة وهو

(١) رواه البخاري (١٤٥٨، ٧٣٧٢) ومسلم (١٩) .

(٢) رواه البخاري (٤٣٦) ومسلم (١٩) .

(٣) انظر ابن تيمية . مجموع الفتاوى ١٠ / ١٥٢ ، ١٥٣، وابن القيم : مدارج السالكين ١ / ٧٤ ، و زاد المعاد ١ / ٢٣٦ ، والجواب الكافي ص ١٣٢ ، وروضة المحبين ص ٥٢ .

– غاية الطاعة والخضوع – عنصرا جديدا له أهمية كبرى في الإسلام ، ولا تتحقق العبادة إلا به وهو عنصر الحب[1]ومن ثم فالعبادة " تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له ، فإن آخر مراتب الحب هو التتيم وأوله العلاقة ، لتعلق القلب بالمحبوب ، ثم الصبابة لانصباب القلب إليه ، ثم الغرام وهو الحب اللازم للقلب ثم العشق ، وآخرها التتيم ، يقال تيم الله أي عبد الله ، فالمتيم المعبد لمحبوبه ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدا له ،ولو أحب شيئا ولم يخضع له لم يكن عابدا له ، كما قد يحب ولده وصديقه ، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى ، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شئ ، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شئ ، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله ، وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة ، وما عظم بغير أمر الله كان تعظيمه باطلا "[2] .

أما مفهوم العبادة اصطلاحا[3]فتطلق على أمرين ، وهما الفعل والمفعول فتطلق على الفعل الذي هو التعبد ، فيقال عبد الرجل ربه عبادة وتعبدا ، ويقصد بها حينئذ التذلل لله عز وجل حبا وتعظيما بفعل أوامره واجتناب نواهيه ، أو هي غاية الحب وغاية الذل .

كذلك تطلق العبادة على المفعول أي المتعبد به ، ومن أجمع تعريفاتها بهذا الإطلاق أنها " اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الامانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف

(١) انظر عبد البديع غازي : في أضواء التوحيد ص ٣٧ .
(٢) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١٠ / ١٥٣ .
(٣) انظر حافظ أحمد حكمي : معارج القبول ١ / ٢٤٨ ، وابن عثيمين : شرح العقيدة الواسطية ١ / ٢٥ ، ٢٦ ، والقول المفيد على كتاب التوحيد ١ / ٤ .

والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك "[1] .

والعبادة هي الغاية المحبوبة والمرضية لله ، والتي خلق الخلق من أجلها كما قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذريات:٥٦) وبها أرسلت جميع الرسل كما قال نوح لقومه ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[الأعراف: من ٥٩] وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم ، وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل:٣٦] وقال تعالى ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:٥٢] .

وقد جعل الله العبادة لازمة لرسوله إلى الموت فقال سبحانه ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] كما وصف بها ملائكته وأنبياءه فقال تعالى ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء:١٩] وقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٦] وذم سبحانه المستكبرين عنها بقوله ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠] ونعت صفوة

(١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١٠ / ١٤٩ ، ١٥٠ .

خلقه بالعبودية له فقال تعالى ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾ [الإنسان:٦] وقـال ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾ [الفرقان:٦٣]

شروط قبول العبادة وأركانها[١]:

ولا تكون العبادة صحيحة مقبولة ومحققة للمقصد منهـا إلا بشـرطين ضروريين وهما :

أولا : الإخلاص أي أن تكون العبادة خالصة لوجه الله تعالى دون رياء ولا سمعة ، ولا يقصد من فعلها إلا التقرب إلى الله وابتغاء مرضاته ، كمـا قال سـبحانه ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[الكهف: ١١٠] وقال (ﷺ) " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى "[٢] .

ثانيا : الاتباع أي أن تفعل العبادة على منهج النبي صلى الله عليه وسلم دون زيادة أو نقصان ، فلا يعبد الله إلا بما شرع ، ووفقا لما جاء به الرسول (ﷺ) الذي صح عنه أنه قال " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " وفي رواية " من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد "[٣] .

---

(١) انظر ابن تيمية : مجموع الفتـاوى ١٠ / ٢١٣ – ٢١٥ ، وابـن القـيم : مـدارج السالكين ١ / ٨٣ ، وحافظ أحمد حكمي : معارج القبـول ١ / ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ود. عمر الأشقر : العقيدة في الله ص ٢٦٠ ، ٢٦١ ، وسيد سعيد عبد الغنـي : العقيـدة الصافية ص ٢٥٣ ، و د. عثمان جمعة ضميرية : مدخل لدراسة العقيدة الإسـلامية ص ٢٩٧ ، ود. البريكان : المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ص ١٣٥ – ١٤٠ .

(٢) رواه البخاري (١ ، ٥٤ ، ٢٥٢٩) ومسلم (١٩٠٧)

(٣) رواه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨)

وكل عبادة لم يحقق صاحبها الشرطين المذكورين فهي مردودة عليه لأن " جماع الدين أصلان : أن لا نعبد إلا الله ، ولا نعبده إلا بما شرع ، لا نعبده بالبدع ، كما قال تعالى ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾[الكهف: ١٠] وذلك تحقيق الشهادتين شهادة أن لا إله إلا الله ، وشهادة أن محمدا رسول الله ، ففي الأولى أن لا نعبد إلا إياه ، وفى الثانية أن محمدا هو رسوله المبلغ عنه ، فعلينا أن نصدق خبره ونطيع أمره ، وقد بين لنا ما نعبد الله به ونهانا عن محدثات الأمور ، وأخبر أنها ضلالة "[١] .

أما أركان العبادة التي تقوم عليها فهي ثلاثة : المحبة والخوف والرجاء والعبادة الحقة هي التي يتقلب صاحبها بين حب الله والخوف منه ورجائه والطمع في رحمته ، والعابد دون حب وخوف ورجاء إنما يؤدي حركات جوفاء لا معنى لها ، والخوف دون رجاء ربما أدى لليأس ، والرجاء دون خوف ربما أدى إلى الجرأة على المعاصي والأمن من مكر الله .

ولا بد للعبد أن يجمع بين تلك الأركان الثلاثة كلها ، فيعبد الله حبا ويقرن إلى ذلك الخوف والرجاء ، كما قال سبحانه ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾[الإسراء: ٥٧] وقال سبحانه ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾[الزمر: ٩] وقال سبحانه (إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾[الأنبياء: ٩٠] .

(١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١٠ / ٢٣٤ .

والسبب في ضرورة الجمع بين الحب والخوف والرجاء معا هو أن " القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر ، فالمحبة رأسه ، والخوف والرجاء جناحاه ، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران ، ومتى قطع الرأس مات الطائر ، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر ، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء ، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف هذه طريقة أبي سليمان وغيره قال ينبغي للقلب أن تكون الغالب عليه الخوف ، فإن غلب عليه الرجاء فسد وقال غيره أكمل الأحوال اعتدال الرجاء والخوف وغلبة الحب ، فالمحبة هي المركب ، والرجاء حاد ، والخوف سائق ، والله الموصل بمنه وكرمه "(١) .

أنواع العبادة(٢):

وأنواع العبادة كثيرة ومتنوعة ويصعب علينا حصرها أو ذكرها تفصيلا لكننا نكتفي بالإشارة إلى أقسامها الأساسية ، وبعض نماذج لكل قسم منها :

---

(١) ابن القيم : مدارج السالكين ١ / ٥١٧ .

(٢) انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١٠ / ١٤٩ ، ١٥٠ ، وابن القيم : مدارج السالكين ١ / ١٠٧ – ١٢٢ ، وسليمان بن عبد الوهاب : تيسير العزيز الحميد ١ /٣٩ – ٤٢، وحافظ أحمد حكمي : معارج القبول ١ / ٢٥١ – ٢٦٠ ، ود. محمد خليل هراس : دعوة التوحيد ص ٤١ – ٥٨ ، ود. عمر الأشقر : العقيدة في الله ص ٢٦٣ ، ود. صلاح الصاوي : فاعلم أنه لا إله إلا الله ص ٢٦ – ٤٠ ، وسيد سعيد عبد الغني : العقيدة الصافية ص ٢٦٩ ، ٣١٤ ، و د. عثمان جمعة ضميرية : مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ص ٢٩٢ – ٢٩٦ ، ود. البريكان : المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية ص ١٤١ ، ١٤٢ .

١- **عبادات اعتقادية** : وهي أساس العبادات كلها ، فلابد للعبد أن يعتقد أن الله هو الرب الواحد الأحد الذي له الخلق والأمر وبيده النفع والضر الذي لا شريك له ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، وأنه لا معبود بحق غيره ٠

ويندرج في هذا النوع أيضا وجوب الاعتقاد والتصديق بكل ما أخبر الله تعالى عنه من الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر ، كما قال سبحانه ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيداً** ﴾ [النساء:١٣٦]

٢- **عبادات قلبية** : وهي الأعمال القلبية التي لا يجوز أن يقصد بها إلا الله تعالى وحده ، ومن ذلك :

أ- المحبة : فيجب على العبد أن يحب الله ، ويحب كل من يحبه الله من العباد والعقائد والأقوال والأعمال ، ومحبته سبحانه بتأله وذل هي أصل دين الإسلام الذي يقوم عليه قطبه ورحاه ، وهي تستلزم الخوف والتعظيم والإجلال ولا تصلح إلا لله تعالى ، فمن أحب من دونه شيئا كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ أندادا من دون الله كما قال سبحانه ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ** ﴾[البقرة:١٦٥] وقال سبحانه ﴿ **فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** ﴾[المائدة:٥٤] وقال سبحانه ﴿ **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران:٣١] ٠

ب- الخوف والخشية : والخوف والخشية من أفضل مقامات الدين وأجلها وهما عبوديتان قلبيتان لا تصلحان إلا لله ، كما قال سبحانه ﴿ إِنَّمَا

ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥] وقال سبحانه ﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾[المائدة:٤٤] وقال سبحانه ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [النحل:٥١] .

وخوف العبادة الذي نقصده هو خوف السر أو الخشية بالغيب كما قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢] وقال سبحانه ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق:٣٣] ومن الواجب إخلاص الخوف لله ، وعدم صرفه إلى غيره مثلما يفعل المشركون مع آلهتهم أو عباد القبور والأضرحة مع الأولياء والمشايخ ، حيث يخافونهم في المشهد والمغيب وفي الحضر والسفر ، أما الخوف الطبيعي من سبع أو عدو مشاهد فهذا أمر جبلي يتفاوت الناس فيه وليس مذموما على إطلاقه ، وقد وقع لبعض الأنبياء كما قال تعالى عن موسى عليه السلام﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ﴾[القصص:٢١] وقال سبحانه ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾[طه:٦٧]

ج – التوكل : وهو الاستسلام لله ، وسكون القلب إلى كفايته ، وتفويض الأمر إليه اعتمادا ووثوقا به ، وقد أمر الله به رسوله وأمر المؤمنين في مواضع كثيرة من كتابه فقال سبحانه ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [الأحزاب:٣] وقال سبحانه (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[المائدة:٢٣] وقال سبحانه ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[الطلاق:٣] .

د – الإنابة : وهي الإقبال على الله تعالى والرجوع إليه ، وقد أمر الله عباده بها فقال سبحانه ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾[الزمر:٥٤] كما توعد بالثواب الجزيل عليها فقال سبحانه ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾[ق:٣٢] ووصف بها خليله إبراهيم عليه السلام فقال سبحانه ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود:٧٥] .

٣- **عبادات لفظية** : وهي كثيرة ومتنوعة ومنها : النطق بكلمة التوحيد إذ لا يكفي اعتقاد معناها بل لابد من النطق بها ، ومنها الذكر والتسبيح وقراءة القرآن والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومن العبادات اللفظية المهمة الدعاء والاستغاثة والاستعاذة ، وكل ذلك مما يجب أن يخلص لله ولا يصرف لغيره ، وقد تعددت الآيات القرآنية التي تأمر بذلك وتحذر من دعاء غير الله أو الاستغاثة بسواه – فيما لا يقدر عليه إلا الله – ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[غافر:٦٠] وقال سبحانه ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن:١٨] وقال سبحانه ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:١٠٦].

وأما الاستعاذة فقد أمر الله أن يستعاذ به فقال سبحانه ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾[الأعراف:٢٠٠] وقال ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق:١] وقال ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس:١] وذم من استعاذ بغيره فقال ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦]

٤-عبادات بدنية : ولها أنواع كثيرة منها الصلاة والركوع والسجود ، كما قال سبحانه﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢] وقال سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج:٧٧] ومنها الطواف بالبيت حيث لا يجوز الطواف بغيره ، كما قال سبحانه ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾[الحج:٢٩]ومنها الزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك الكثير ٠

ومن العبادات البدنية التي لا يجوز صرفها لغير الله الذبح ، وهو شعيرة من الشعائر وعبادة من العبادات ، وقد أمر الله نبيه أن يكون ذبحه لله فقال سبحانه ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢] وقال سبحانه ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢] كما حرم الله الذبح لغيره من الأصنام والأوثان ، ومنع المسلمين من أكل تلك الذبائح فقال سبحانه ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾[النحل:١١٥] وقال سبحانه ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾[الأنعام: ١٢١] ٠

عبادات مالية : ومنها الزكاة ، وأنواع الصدقات والكفارات ، والأضحية والعقيقة والنفقة والنذور المالية ، وغيرها الكثير ٠

الانحراف في مفهوم العبادة :

وبعد أن تبين لنا مما سبق المفهوم الصحيح للعبادة لغة وشرعا واصطلاحا وأنواع العبادة وصورها المتعددة ، نجد لزاما علينا أن ننبه إلى

الانحراف الخطير الذي وقعت فيها الأجيال المتأخرة من المسلمين في تصورهم لمفهوم العبادة ومجالاتها ومقاصدها[1]:

وكل من يعقد مقارنة بين المفهوم الشامل الواسع العميق الذي كانت الأجيال الأولى من المسلمين تفهمه من أمر العبادة ، والمفهوم الهزيل الضئيل الذي تفهمه الأجيال المعاصرة ، فلن يستغرب كيف هوت الأمة من عليائها لتصبح في هذا الحضيض الذي تعيشه اليوم ، وكيف هبطت من مقام القيادة والريادة للبشرية كلها ، لتصبح ذلك الغثاء الذي تتداعى عليه الأمم تنهشه من كل جانب كما تنهش الفريسةَ الذئابُ . ويعلم الإنسان في الوقت ذاته الطريق الذي ينبغي أن تسلكه الأمة الإسلامية وهي تجاهد لرفع هذا الغثاء من حضيضه الذي تعيش فيه ، لتعود كما أرادها الله أن تكون ﴿ **خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾[آل عمران : ١١٠] .

وقد ترسخ في حس الأجيال الأولى أن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني كله ، كما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذاريات : ٥٦] وهذه الآية الكريمة كانت تمثل في حسهم معنى هائلا جدا وعميقا جدا ، وشاملا لكل حياة الإنسان ، فالقرآن نازل بلغتهم ، وهم يفهمون إيحاءات تلك اللغة ، ويدركون أسرار بلاغتها . فيدركون من معنى الآية أن غاية الوجود الإنساني كله محصورة في العبادة

---

(١) وقد لخصنا الكلام عن هذه المسألة من كتاب محمد قطب : مفاهيم ينبغي أن تصحح ص ١٢١ – ١٧٩ ، وهناك كتابات كثيرة لابن تيمية وابن القيم عن هذه المسألة ، ولا سيما رسالة العبودية لابن تيمية ، وانظر أيضا سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ص ١٣٠ ، ١٣١ ، ومحمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق ص ٢١ ، ٢٢ ، ود. عثمان جمعة ضميرية : مدخل لدراسة العقيدة ص ٢٨٧- ٢٩١ ، ود. ياسر برهامي : العبودية وظيفة العمر ص ٣٧ – ٤٠ .

لا تتعداها إلى شيء غيرها على الإطلاق ، فالنفي والاستثناء هما أقوى صور الحصر والقصر في اللسان العربي ومعناهما النفي البات من جهة والحصر الكامل من الجهة الأخرى : نفي أي غاية للوجود البشري غير عبادة الله ، وحصر غاية هذا الوجود كله في عبادة الله ! ومن ثم لم ينحصر مفهوم العبادة في حسهم في نطاق الشعائر التعبدية وحدها ٠

ومن الواضح أن شعائر التعبد لا يمكن بداهة أن تكون هي كل " العبادة " المطلوبة من الإنسان . فما دامت غاية الوجود الإنساني كما تنص الآية الكريمة محصورة في عبادة الله ، فأنّى يستطيع الإنسان أن يوفي العبادة المطلوبة بالشعائر التعبدية فحسب ؟! فكم تستغرق الشعائر من اليوم والليلة ؟ وكم تستغرق من عمر الإنسان ؟ وبقية العمر ؟ وبقية الطاقة ؟ وبقية الوقت ؟ أين تنفق وأين تذهب ؟ تنفق في العبادة أم في غير العبادة ؟ وإن كانت في غير العبادة فكيف تتحقق غاية الوجود الإنساني التي حصرتها الآية حصرا كاملا في عبادة الله ؟ وكيف يجوز للإنسان – من عند نفسه – أن يجعل لوجوده – أو لجزء من وجوده – غاية لم يأذن بها الله ؟

إن الإنسان لا يستطيع – مهما حاول – أن يقضي واجب العبادة المفروض عليه نحو الله من خلال الشعائر التعبدية وحدها ، من صلاة وصيام وزكاة وحج وليس الإنسان ملَكاً ولا يستطيع أن يعبد الله على طريقة الملائكة التي تسبح الليل والنهار لا تفتر ، ولا تنشغل عن التسبيح ولو شاء الله أن يكلف الإنسان العبادة على طريقة الملائكة لمنحه طاقة الملائكة في التسبيح الدائم بغير فتور ، ولركبه منذ البدء تركيبا آخر ، لا يفتر ولا يكل ولا يمل ، لأن الله من رحمته لا يكلف نفسا إلا وسعها ، ويجعل العبادة المفروضة على كل كائن من خلقه متناسبة مع طبيعة ذلك الكائن ، ومع حدود طاقاته ٠

وقد فهم الجيل الأول من الصحابة – رضوان الله عليهم – معنى العبادة ولم يحصروها قط في داخل الشعائر التعبدية ، بحيث تصبح اللحظات التي يقومون فيها بأداء الشعائر التعبدية هي وحدها لحظات العبادة ، وتكون بقية حياتهم خارج العبادة ! إنما كان في حسهم أن حياتهم كلها عبادة ، كما كانوا يقومون بالعبادة وهم يمارسون الحياة في شتى مجالاتها ، وكانت عبادتهم الكبرى هي العمل في شتى مجالات الحياة ، كانوا يذكرون الله فيسألون أنفسهم : هل هم في الموضع الذي يرضى الله عنه أم فيما يسخط الله ؟ فإن كانوا في موضع الرضى حمدوا الله ، وإن كانوا على غير ذلك استغفروا الله وتابوا إليه ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾ [آل عمران : ١٣٥]

وكانوا يذكرون الله فيسألون أنفسهم : ماذا يريد الله منا في هذه اللحظة ؟ أي ما التكليف المفروض علينا في هذه اللحظة ؟ فإذا كان التكليف : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ [النساء : ٧٤] كان ذكر الله مؤديا إلى القيام بالجهاد في سبيل الله ، وإذا كان التكليف : ﴿ **وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ [النساء : ١٩] كان ذكر الله مؤديا إلى القيام بهذا الواجب الذي أمر به الله تجاه الزوجات ، وإذا كان التكليف ﴿ **قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا** ﴾ [التحريم : ٦] كان ذكر الله مؤديا إلى القيام بتربية الأهل والأولاد على النهج الرباني الذي يضبط سلوكهم بالضوابط الربانية ، ويوجه مشاعرهم وأفكارهم وأعمالهم إلى ما يرضى الله ، وإذا كان التكليف : ﴿ **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾ [الملك : ١٥] كان مقتضى ذكر الله هو المشي في مناكب الأرض وابتغاء رزق الله في

حدود الحلال الذي أحله الله ، لأنه إليه النشور ، فيحاسب الناس على ما اجترحوا في الحياة الدنيا .

وإذا كان التكليف " طلب العلم فريضة "[1] كان مقتضى ذكر الله هو السعي إلى طلب العلم من أجل عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني ، سواء كان العلم هو العلم الشرعي الذي يعرف به الإنسان الحلال والحرام ، والمباح والمندوب المكروه ، أو العلم بما في الكون من طاقات لتحقيق التسخير الرباني الذي سخر الله به ما في السماوات والأرض للإنسان : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ ﴾[الجاثية ١٣] وهو تسخير لا يتم إلا بجهد علمي يبذله الإنسان في التعرف على خواص المادة ومدخرات الطاقة في الكون ، وجهد بدني يبذله في تحويل الخامات والطاقات إلى عمران يحقق حاجات الناس في الأرض .

ومن مثل هذه التوجيهات المبثوثة في كتاب الله ، ومن تعليم الرسول (ﷺ) فهم المؤمنون من الجيل الأول والأجيال التالية له ، أن العبادة المطلوبة لا تنحصر في الشعائر التعبدية ، وأنها أوسع من ذلك وأشمل ، وفهموا أن الصلاة والنسك – أي الشعائر – إنما هي المنطلق الذي ينطلق منه الإنسان ليقوم ببقية العبادة ، التي تشمل الحياة كلها ، بل الموت كذلك ! والموت في حد ذاته لا يمكن أن يكون عبادة بطبيعة الحال لأنه لا خيار للإنسان فيه . ولكن المقصود في قوله تعالى : ﴿ وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الأنعام: ١٦٢] هو أن يموت الإنسان غير مشرك بالله ، وذلك هو الحد الأدنى الذي يكون به الإنسان – في موته – عابداً لله . أما الحد الأعلى فهو أن يكون موته استشهاداً في سبيل الله .. وتلك قمة العبادة .

(١) رواه البيهقي ، والطبراني في الكبير والأوسط ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩١٣) .

رابعا : الإيمان بأسماء الله وصفاته (توحيد الأسماء والصفات)

ويقصد بتوحيد الأسماء والصفات الإقرار والاعتراف الجازم بكل مـــا ورد في كتاب الله تعالى ، وما ورد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحة من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى ، والإيمان بذلك كله علـــى الوجه الذي يليق بالله سبحانه وتعالى ، دون تحريف ولا تعطيل ولا تكييــف ولا تمثيل .

وباب الأسماء والصفات من أعظم الأبواب التي يتعرف بها العباد على ربهم ويزدادون له محبة ورجاء وخشية وخوفا وإنابة وتوكلا ، ومن المسلم به أن المرء لا يستطيع أن يعبد العبادة الحقة ، ولا يخلص القصد والنية ، إذا كان لا يعرف من يعبده ومن يتوجه إليه .

ولما كان إدراك الذات الإلهية أو الإحاطة بها متعذرا ، فـــإن الطريـــق الوحيد والصحيح لتحقيق المزيد بالمعرفة بالله سبحانه هـــو الوقـــوف علـــى أسمائه وصفاته والإيمان بها وفهم معانيها ، والتعبد لله سبحانه بها .

وقد تكرر ذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العلى فـــي كتـــاب الله فيمـــا لا يحصى من المواضع ، ويكفي في التدليل على ذلك أن نشير إلى أنه مـــا من سورة من سور القرآن إلا وجاء في صدرها ذكـــر لـــبعض أســـماء الله الحسنى ، فجميع سور القرآن باستثناء سورة التوبة صدرت بالبسملة (بِسْــمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) وهي تشتمل على ثلاثة أسماء من أسمائه سبحانه ، وأما سورة التوبة فقد ذكر لفظ الجلالة في أول آية منها .

وفي آية الكرسي وحدها خمسة أسماء من أسماء الله الحسنى مـــذكورة صراحة إضافة إلى الصفات المذكورة في الآية صراحة أو ضـــمنا ، وفـــي سورة الحشر اجتمع أكبر عدد من الأسماء الحسنى في سياق واحد ، وذلـــك في قوله تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ

الرَّحِيمُ ۞ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢ – ٢٤].

وإجمالا فلا يخلو موضوع من موضوعات القرآن الكريم إلا وهو ممتزج بذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ، لا فرق في ذلك بين العقائد أو الشرائع أو الأحكام ، وما من موضوع تناوله القرآن إلا ويفتتحه أو يختمه أو يتخلله ذكر اسم من أسماء الله أو صفة من صفاته[1].

ولا شك أن العبد حين يقرأ القرآن بحس منفتح ، وعقل واع ، وقلب حاضر ويجد ما فيه من تعريف بالله وأسمائه وصفاته ، فإن قلبه سوف يمتلئ بالخشوع لله والخشية منه والرغبة إليه[2]، وحين يعلم العبد أن الله رحيم ، وأنه يقول ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣] ويقول سبحانه ﴿ فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: ١٦٠] أفلا يجعله ذلك متطلعا لرحمة الله وطامعا في مغفرة الذنوب وتكفير السيئات ، وحين يعلم أنه العليم الخبير المحيط بكل شيء ، فسوف يزداد له مراقبة وخشية ، وإذا علم أنه القوي المتين فلن يخاف إلا منه ولن يتوكل إلا عليه .

وهكذا فكلما علم العبد من أسماء الله وصفاته المزيد ، ازداد معرفة به وطاعة له ، ولذلك تكرر في القرآن ذكر أسماء الله وصفاته ، وأمرنا سبحانه

---

(١) انظر د. جيب الله حسن أحمد : في أسماء الله الحسنى ، تعظيما للذات وردا على الشبهات ص ٦ ، ٧ .

(٢) انظر محمد قطب : ركائز الإيمان ص ١٠٣ .

أن ندعوه بها فقال ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾(الأعراف: ١٨٠) وقال النبي (ﷺ) " إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة "[١]

وقد فهم الجيل الفريد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المعنى وآمنوا بأسماء الله وصفاته كلها دون أن يثيروا الخلاف والشقاق حولها أو يؤولوها ويحرفوها عن معانيها ؟ ورغم أن الصحابة قد اختلفوا في بعض المسائل الفقهية ، إلا أنهم بحمد الله لم يختلفوا مطلقا في باب الأسماء والصفات .

وكما يقول ابن القيم رحمه الله فقد " تنازع الصحابة في كثير من مسائل الأحكام ، وهم سادات المؤمنين ، وأكمل الأمة إيمانا ، ولكن بحمد الله لم يتنازعوا في مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال ، بل كلهم على إثبات ما نطق به الكاتب والسنة كلمة واحدة من أولهم إلى آخرهم ، لم يسوموها تأويلا ، ولم يحرفوها عن مواضعها تبديلا ، ولم يبدوا لشيء منها إبطالا ولا ضربوا لها أمثالا ولم يدفعوا في صدورها وأعجازها ، ولم يقل أحد منهم يجب صرفها عن حقائقها وحملها على مجازها ، بل تلقوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالإيمان والتعظيم ، وجعلوا الأمر فيها كلها أمرا واحدا ، وأجروها على سنن واحد ، ولم يفعلوا كما فعل أهل الأهواء والبدع حيث جعلوها عضين وأقروا ببعضها وأنكروا بعضها من غير فرقان مبين ، مع أن اللازم لهم فيما أنكروه كاللازم فيما أقروا به وأثبتوه "[٢] .

لكن للأسف الشديد فقد نبتت خلوف بعد جيل الصحابة والتابعين ، تأثروا بالأفكار الوافدة ، والفلسفات البشرية المتهافتة والمتضاربة ، وحولوا قضية الأسماء والصفات من باب عظيم لمعرفة الله ومحبته والتعلق به ، إلى ساحة

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣٦، ٦٤١٠) ومسلم (٢٦٧٧)

(٢) ابن القيم : إعلام الموقعين ١ / ٤٩ .

اختلاف وشقاق وبدع وضلالات ، وأحدثوا مقالات وآراء غريبة ، وابتدعوا قواعد وأصولا ما أنزل الله بها من سلطان ٠

وقد ترتب على ذلك أن انقسمت الأمة تجاه هذه القضية العظيمة – أي قضية الأسماء والصفات – إلى عدة اتجاهات نجملها فيما يلي[1]:

١ – **اتجاه التشبيه، والتجسيم :** ويقصد به المبالغة في إثبات الصفات إلى درجة تسويتها بصفات المخلوقين ، وهو نزعة يهودية الأصل، وكان أول ظهوره على يد أصناف من غلاة الروافض أشهرهم هشام بن الحكم الرافضي ووجد أيضا عند عدد من الفرق كالسبئية، والبيانية، والمغيرية، والحلولية والمفوضية وغيرهم الكثير، وهؤلاء إما ممثلون للخالق بالمخلوق، فيجعلون ذاته أو صفاته (ﷻ) كما هو الحال عند المخلوقين ، وإما ممثلون للمخلوق بالخالق فيثبتون للمخلوق شيئا مما يختص به الخالق ، من الأفعال ، أو الحقوق، أو الصفات.

٢– **اتجاه التعطيل:** ويراد به نفي الصفات وتعطيل النصوص الواردة بشأنها عن طريق تفريغها وإخلائها من دلالتها الحقيقية على ما تضمنته من معان وينقسم إلى نوعين: الأول: تعطيل محض، وهو الذي قال به الفلاسفة والقرامطة صراحة، حيث نفوا الصفات مطلقا عن الله ﷻ ، ولعل أول من قال به من المسلمين جهم بن صفوان، والجعد بن درهم، والتعطيل المحض درجات متفاوتة، فهناك غلاء الغلاة الذين لا يصفون الله بالنفي ولا بالإثبات،

---

(١) انظر في تعداد هذا الاتجاهات ومحاولة حصرها مع شيء من التفاوت في التسمية والعدد: ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٥/١١٣-١١٧، وابن القيم مختصر الصواعق المرسلة ٣/٩١٧-٩٢٥، وابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١٣/١٨؛، ١٩؛، والمقريزي الخطط ٣/٣١٦، وأحمد القاضي: مذهب أهل التفويض ص ٧٤-١٣٨، والبريكان: القواعد الكلية ص ٢٦ – ٤٥ ٠

ويسلبون عنه النقيضين، وهناك الغلاة الذين يصفونه بالسلوب والإضافات دون صفات الإثبات وهناك صنف ثالث ، وهم الذين يثبتون الأسماء الحسنى دون ما تتضمنه من صفات.

٣- **اتجاه التأويل:** وأصحاب هذا الاتجاه يثبتون الصفات التي لا يرونها مخالفة للعقل أو موهمة لمشابهة الله بالمخلوقين، وما عدا ذلك يصرفونه عن ظاهره بأوجه التأويل المتعددة ، وقد اختلفوا في الصفات التي تثبت أو تأول كل تبعا لمذهبه، كما اختلفوا في التعيين التفصيلي لكل تأويل من تلك التأويلات.

٤- **اتجاه التوقف:** وأصحابه قوم أحسوا بالحيرة والتردد أمام الخلافات المتعددة في هذه المسألة ، فرأوا أن الأسلم التوقف عن اعتناق رأى، أو اتخاذ موقف معين تجاهها، وهم طائفتان: طائفة تقول بجواز أن يكون ظاهر النصوص صفة لائقة بالله وكماله، ويجوز ألا يكون المراد صفة لله، وطائفة أخرى تمسك عن هذا كله، ولا تزيد على تلاوة القرآن والحديث، معرضين بقلوبهم وألسنتهم عن هذه التقديرات، والفرق بين الطائفتين، أن توقف الأولى قائم على الحكم بجواز الأمرين: الإثبات، والنفى دون ميل إلى أحدهما، وتوقف الثانية قائم على عدم الحكم بشيء مطلقا، فتوقف الأولى من جهة الإيجاب، والثانية من جهة السلب، وكلاهما توقف وعدم جزم برأى.

وليس في التوقف أي حل للمشكلة، بل هو نوع من الهروب ويلزم منه الشك والحيرة والجهل، ومن المعلوم قطعا أن الله لا يحب الجهل ولا الحيرة ولا الشك وإنما يحب العلم، واليقين، والرشاد ، وقد ذم الحيرة وأصحابها فقال سبحانه ﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾[الأنعام: ٧١] وذم التذبذب والتردد فقال: ﴿ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ﴾[النساء: ١٤٣] ثم إنه

(ﷻ) وصف لنا نفسه بهذه الصفات لنعرفه بها، فوقوفنا عن إثباتها ونفيها عدول عن المقصود ، وبعد عن الغاية التى أنزل القرآن من أجلها ، وصحيح أن هؤلاء حاولوا قطع الخلاف الدائر حول المسألة، لكن التوقف السلبى لم يكن أبداً حلا مقنعا للنفس والعقل، وقاطعاً للتساؤل والاستفسار.

٥- اتجاه التفويض: ويمكن وصفه بأنه محاولة أرادت التوسط بين اتجاهي الإثبات والتأويل، فهو يشترك مع الإثبات في رفضه للتأويل، وتعيين معنى باجتهاد بشرى تحمل عليه النصوص، لكنه يتفق مع التأويل من جهة أخرى فى القول بأن الظاهر من النصوص غير مراد لإيهامه مشابهة المخلوقين، ثم يسكت المفوض فلا يحدد معنى بينما المؤول يبحث عن هذا المعنى ويجتهد في تعيينه، كما يلاحظ أن التفويض يختلف عن التوقف، فالمتوقف لا يجزم بشيء مطلقا ولا يستفيد أى معنى من النصوص، مكتفيا بتلاوتها ومجوزاً كافة الاحتمالات أو ساكتاً عنها كلها، فموقفه سلبي في كل مراحله، أما المفوض فيتخذ رأيا بالنسبة لظاهر النصوص، وينفى إرادتها، فهو هنا إيجابي الموقف ثم يشابه اتجاه التوقف في المرحلة التالية، فيسكت عن تحديد أي معنى من المعاني.

وبازاء هذه الاتجاهات المخالفة كليا أو جزئيا للكتاب والسنة يبقى الموقف الصحيح الموافق للكتاب والسنة والذي يجب على كل مسلم اعتقاده والاحتذاء على منواله ، وهو موقف سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم من الأئمة المشهود لهم بالعلم والفضل ، ويمكن تسميته باتجاه الإثبات مع التنزيه ، وهو الموقف الوسط الخيار، المنبثق من قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الشورى:١١] .

وخلاصة هذا الموقف هو إثبات كل اسم أو صفة وردت في الكتاب أو السنة، على ظاهرها اللائق بجلال الله وكماله، مع التنزيه التام والمباينة

الكاملة عن مشابهة صفات المخلوقين ، وقطع الطمع عن إدراك كنه الصفة أو كيفيتها، فهو إثبات دون تشبيه أو تجسيم، ووصف لله دون تحريف أو تعطيل أو توقف وكما يقول ابن تيمية رحمه الله فإن " القول الشامل في جميع هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ، وبما وصفه به السابقون الأولون ، لا يتجاوز القرآن والحديث ، قال الإمام أحمد رضي الله عنه لا يوصف الله الا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله لا يتجاوز القرآن والحديث "

ومجمل اعتقاد السلف في هذه المسألة هو " أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، ونعلم أن ما وصف الله به من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي ، بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه ، لا سيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول ، وأفصح الخلق في بيان العلم ، وأفصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد ، وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ، ولا في أفعاله ، فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقة ، وله أفعال حقيقة ، فكذلك له صفات حقيقة ، وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، وكل ما أوجب نقصا أو حدوثا فإن الله منزه عنه حقيقة "[1] .

وثمة عدد من الأسس المنهجية المهمة التي يقوم عليها موقف أهل السنة والجماعة في قضية الأسماء والصفات ، وهي ما يلي[2]:

---

(١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٥ / ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) انظر محمد الأمين الشنقيطي : منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات ص ٣، ٤ ، ٢٤، ٢٥ .

الأول : الإيمان بكل ما سمى أو صف الله به نفسه ، لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾[البقرة:١٤٠] والإيمان بكل ما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأنه لا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي قال الله في حقه: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم:٣، ٤]

الثاني : تنزيه الله جل وعلا عن أن يشبه شيء من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين. وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾(الشورى:١١) وقوله ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ) [الإخلاص:٤] وقوله تعالى ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤] ومن الواجب على كل مكلف أن يؤمن بما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله (ﷺ) ، وينزه الله جل وعلا عن أن تشبه صفته صفة الخلق. وحيث أخل بأحد هذين الأصلين وقع في هوة ضلال .

الثالث : قطع الطمع عن إدراك حقيقة كيفية ذات إله أو صفاته ، لأن إدراك حقيقة الكيفية مستحيل ، وقد ذكر الله سبحانه ذلك في سورة (طـه) حيث قال: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [طـه:١١٠] ومن الواجب أن يعلم أن الصفات والذات من باب واحد ، فكما أننا نثبت ذات الله جل وعلا إثبات وجود وإيمان لا إثبات كيفية محددة ، فكذلك نثبت لهذه الذات الكريمة المقدسة صفات إثبات إيمان ووجود ، لا إثبات كيفية وتحديد.

الرابع : أن جميع الصفات من باب واحد ، إذ لا فرق بينها ألبتة ، لأن الموصوف بها واحد ، وهو جل وعلا لا يشبه الخلق في شيء من صفاتهم وكما أننا نثبت له سمعا وبصرا لائقين بجلاله ، لا يشبهان شيئا من أسماع الحوادث وأبصارهم ، فكذلك يلزم أن نجري هذا المسلك في سائر صفات الجلال والكمال التي أثنى الله بها على نفسه ، لا فرق بين صفة وأخرى أو بين نوع وآخر ، ومن ذلك الصفات الخبرية كالاستواء والمجيء والعين والوجه واليدين وغيرها .

الخامس : الواجب في نصوص القرآن والسنة إجراؤها على ظاهرها دون تحريف ولا تأويل ، لا سيما نصوص الأسماء الصفات ، حيث لا مجال للرأي فيها ، ودليل ذلك السمع والعقل ، أما السمع : فقوله تعالى﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢] وقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف:٣] وهذا يدل على وجوب فهمه على ما يقتضيه ظاهره باللسان العربي ، إلا أن يمنع منه دليل شرعي ، وقد ذم الله تعالى اليهود على تحريفهم ، وبين أنهم بتحريفهم من أبعد الناس عن الإيمان فقال ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥] وقال تعالى : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ﴾[النساء: ٤٦] وأما العقل : فلأن المتكلم بهذه النصوص أعلم بمراده من غيره ، وقد خاطبنا باللسان العربي المبين ، فوجب قبوله على ظاهره ، وإلا لاختلفت الآراء وتفرقت الأمة .

ثمرات الإيمان بأسماء الله وصفاته :

ولا شك أن للإيمان بأسماء الله وصفاته العديد من الآثار والثمرات الجليلة التي تنفع العبد في دينه ودنياه ،وتزيده قربا من ربه ومحبة له ومعرفة به وإنابة وإخباتا له ، وثقة وتوكلا عليه .

والعلم بأسماء الله وصفاته من أشرف العلوم وأجلها ، وأحقها بوصف العلم النافع ، لأن العلم النافع – كما يقول ابن رجب الحنبلي رحمه الله – " يدل على أمرين : أحدهما : على معرفة الله وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الباهرة ، وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه وخشيته ومهابته ومحبته ورجاءه والتوكل عليه والرضا بقضائه والصبر على بلائه، والأمر الثاني : المعرفة بما يحبه ويرضاه ، وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة والأقوال ، فيوجب ذلك لمن علمه المسارعة إلى ما فيه محبة الله ورضاه والتباعد عما يكرهه ويسخطه ، فإذا أثمر العلم لصاحبه هذا ؛ فهو علم نافع ، فمتى كان العلم نافعاً ، ووقر في القلب ؛ فقد خشع القلب لله ، وانكسر له وذل هيبة وإجلالاً وخشية ومحبة وتعظيماً ، ومتى خشع القلب لله وذل وانكسر له ؛ قنعت النفس بيسير الحال من الدنيا ، وشبعت به ، فأوجب لها ذلك القناعة والزهد في الدنيا ، وكل ما هو فان لا يبقى ، من المال والجاه وفضول العيش الذي ينقص به حظ صاحبه عند الله من نعيم الآخرة وإن كان كريماً على الله "[1] .

ويزداد الأمر وضوحا إذا علمنا أن " إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم ، فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقا له تعالى أو أمرا ، إما علم بما كونه أوعلم بما شرعه ، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه ، فالأمر كله

(١) ابن رجب الحنبلي : فضل علم السلف على الخلف ص ٦٤ ، ٦٥ .

مصدره عن أسمائه الحسنى ..... وكما أن كل موجود سواه فبإيجاده ، فوجود من سواه تابع لوجوده تبع المفعول المخلوق لخالقه ، فكذلك العلم بها أصل للعلم بكل ما سواه فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم ، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم ، إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها "(١) .

ولكل اسم من أسماء الله تعالى ، ولكل صفة من صفاته جل وعلا عبودية خاصة يتعبد بها ويتقرب بها إلى الله تعالى ، فله سبحانه العبودية المطلقة على عباده ، وهو يحب أن يعبده عباده ويتقربوا إليه بأسمائه الحسنى ويدعوه بها كما قال سبحانه " ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها " وكلما أثنى العبد على الله باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته كلما كان على مقربة من ربه جل وعلا .

وقد ثبت عن النبي (ﷺ)أنه قال " إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة " وقد تنوعت عبارات أهل العلم في تفسير معنى الإحصاء الوارد في الحديث ، ومن أجمع ما قيل في معناه إن الإحصاء يشمل أربعة مراتب :

المرتبة الأولى : إحصاء ألفاظها وعددها ، المرتبة الثانية : فهم معانيها ومدلولها ، المرتبة الثالثة : دعاؤه تعالى بها ، وهو مرتبتان إحداهما دعاء ثناء وعبادة ، والثاني دعاء طلب ومسألة فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلي ، وكذلك لا يسأل إلا بها ، فلا يقال يا موجود أو يا شيء أو يا ذات اغفر لي وارحمني ، بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيا

---

(١) ابن القيم : بدائع الفوائد ١ / ١٧٠ ، ١٧١ .

لذلك المطلوب فيكون السائل متوسلا إليه بذلك الاسم ، ومن تأمل أدعية الرسل ولا سيما خاتمهم وإمامهم وجدها مطابقة لهذا[1].

وسوف نذكر فيما يلي بعض الصفات الإلهية ، والثمرات والفوائد العظيمة التي يجنيها العبد من كل صفة منها[2]:

١ - فمن ثمرات الإيمان بصفات الله عَزَّ وجَلَّ : أن العبد يسعى إلى الاتصاف والتحلِّي بها على ما يليق به ؛ لأنه من المعلوم عند أرباب العقول أن المحب يحب أن يتصف بصفات محبوبه ؛ كما أن المحبوب يحب أن يتحلَّى مُحبُّهُ بصفاته ؛ فهذا يدعو العبد المحب لأن يتصف بصفات محبوبه ومعبوده كلٌّ على ما يليق به ، فالله كريم يحب الكرماء ، رحيم يحب الرحماء ، رفيق يحب الرفق، فإذا علم العبد ذلك ؛ سعى إلى التحلي بصفات الكرم والرحمة والرفق، وهكذا في سائر الصفات التي يحب الله تعالى أن يتحلَّى بها العبد على ما يليق بذات العبد.

٢ - ومن ثمرات الإيمان بصفات الله عَزَّ وجَلَّ أن يظل العبد دائم السؤال لربه ، فإن أذنب ؛ سأله بصفات (الرحمة ، والتَّوب ، والعفو ، والمغفرة) أن يرحمه ويتوب عليه ويعفوَ عنه ويغفر له ، وإن خشي على نفسه من عدو متجهم جبار ؛ سأل الله بصفات (القوة ، والغلبة ، والسلطان ،

---

(١) انظر ابن القيم : بدائع الفوائد ١ / ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) انظر ابن القيم : مفتاح دار السعادة ٢ / ٩٠ – ٩٠ ، وبدائع الفوائد ١ / ١٧٠ ، ١٧١ وعلوي بن عبد القادر السقاف : صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة ص ٣٠ – ٣٦ ، ود. محمد أمان الجامي : الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية ص ٣٧٣- ٣٨٢ ، ومحمد قطب : ركائز الإيمان ص ١٠٣- ١٠٦ ، ود. عمر الأشقر : العقيدة في الله ص ١٧٢ ، ود. عبد الحميد مدكور : دراسات في العقيدة الإسلامية ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، وسيد عبد الغني : العقيدة الصافية ص ٣٨١- ٣٨٦ .

والقهر ، والجبروت) ؛ رافعاً يديه إلى السماء ، قائلاً : يا رب! يا ذا القوة والسلطان والقهر والجبروت! اكفنيه. فإن آمن أن الله (كفيل ، حفيظ ، حسيب ، وكيل) ؛ قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وتوكل على (الواحد ، الأحد ، الصمد) ، وعلم أن الله ذو (العزة ، والشدة ، والمحال ، والقوة ، والمنعة) مانعه من أعدائه ، ولن يصلوا إليه بإذنه تعالى ، فإذا أصيب بفقر ؛ دعا الله بصفات (الغنى ، والكرم ، والجود والعطاء) ، فإذا أصيب بمرض ؛ دعاه لأنه هو (الطبيب ، الشافي ، الكافي) فإن مُنع الذُرِّيَّة ؛ سأل الله أن يرزقه ويهبه الذرية الصالحة ؛ لأنه هو (الرَّزَّاق الوهَّاب) ... وهكذا فإنَّ من ثمرات العلم بصفات الله والإيمان بها دعاءه بها.

٣ - ومنها : أن العبد إذا آمن بصفة (الحب والمحبة) لله تعالى ، وأنه سبحانه (رحيم وَّدود) استأنس لهذا الرب ، وتقرَّب إليه بما يزيد حبه ووده له ، وسعى إلى أن يكون ممن يقول الله فيهم : (يا جبريل إني أُحبُ فلاناً فأحبَّه ، فيُحبُّه جبريل ، ثم ينادي في السماء : إن الله يحبُ فلاناً فأحبوه ، فيُحبُّه أهلُ السماء ثم يوضع له القبول في الأرض) و من آثار الإيمان بهذه الصفة العظيمة أن من أراد أن يكون محبوباً عند الله اتبع نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ وحبُ الله للعبد مرتبطٌ بحبِ العبدِ لله ، وإذا غُرِست شجرةُ المحبة في القلب ، وسُقيت بماء الإخلاص ، ومتابعة الحبيب صلى الله عليه وسلم ، أثمرت أنواعَ الثمار ، وآتت أُكُلَها كلَّ حينٍ بإذن ربها .

٤ - ومنها : أنه إذا آمن العبد بصفات (العلم ، والإحاطة ، والمعية) ؛ أورثه ذلك الخوف من الله عَزَّ وجَلَّ المطَّلع عليه الرقيب الشهيد ، فإذا آمن بصفة (السمع) ؛ علم أن الله يسمعه ؛ فلا يقول إلا خيراً ، فإذا آمن بصفات

(البصر ، والرؤية ، والنظر ، والعين) ؛ علم أن الله يراه ؛ فلا يفعل إلا خيراً ؛ فما بالك بعبد يعلم أن الله يسمعه ، ويراه ، ويعلم ما هو قائله وعامله ، أليس حريٌّ بهذا العبد أن لا يجده الله حيث نهاه ، ولا يفتقده حيث أمره؟! فإذا علم هذا العبد وآمن أن الله (يحبُّ ، ويرضى) ؛ عمل ما يحبُّه معبوده ومحبوبه وما يرضيه ، فإذا آمن أن من صفاته (الغضب ، والكره ، والسخط ، والمقت ، والأسف ، واللعن) ؛ عمل بما لا يُغْضب مولاه ولا يكرهه حتى لا يسخط عليه ويمقته ثم يلعنه ويطرده من رحمته ، فإذا آمن بصفات (الفرح ، والبشبشة ، والضحك) ؛ أنس لهذا الرب الذي يفرح لعباده ويتبشبش لهم ويضحك لهم ؛ ما عدمنا خيراً من ربٍّ يضحك.

٥- ومنها : أن العبد إذا تدبر صفات الله من (العظمة ، والجلال ، والقوة ، والجبروت ، والهيمنة) ؛ استصغر نفسه ، وعلم حقارتها ، وإذا علم أن الله مختص بصفة (الكبرياء) ؛ لم يتكبَّر على أحد ، ولم ينازع الله فيما خصَّ نفسه من الصفات ، وإذا علم أن الله متصف بصفة (الغنى ، والملك ، والعطاء) استشعر افتقاره إلى مولاه الغني ، مالك الملك ، الذي يعطي من يشاء ويمنع من يشاء.

٦- ومنها : أنه إذا علم أن الله يتصف بصفة (القوة ، والعزة ، والغلبة)، وآمن بها ؛ علم أنه إنما يكتسب قوته من قوة الله ، وعزته من عزة الله ؛ فلا يذل ولا يخنع لكافر ، وعلم أنه إن كان مع الله ؛ كان الله معه ، ولا غالب لأمر الله.

٩ - ومن ثمرات الإيمان بصفات الله : أن لا ينازع العبدُ اللهَ في صفة (الحكم ، والألوهية ، والتشريع ، والتحليل ، والتحريم) ؛ فلا يحكم إلا بما أنزل الله ، ولا يتحاكم إلا إلى ما أنزل الله . فلا يحرِّم ما أحلَّ الله ، ولا يحل ما حرَّم الله.

الفصل الثاني

الإيمان بالملائكة

والإيمان بالملائكة هو الأصل الثاني من أصول الإيمان ، كما أنه ركن أساسي من أركان العقيدة ، لا يصح إيمان المكلف بدونه ، ومن الواجب على كل مسلم أن يصدق تصديقا جازما بوجود الملائكة ، وأنهم مخلوقون من نور ، وأنهم كما وصفهم الله عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله بالقيام بها ٠

وقد تضافرت آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة الصحيحة[1]على إثبات وجوب الإيمان بالملائكة ، وإدراج ذلك ضمن أصول الاعتقاد الكبرى كما في قوله تعالى ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾[البقرة: ٢٨٥] وفي قوله تعالى ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾[البقرة: ١٧٧] وقال رسول الله (ﷺ) " الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر "[2] .

---

(١) ويكفي أن نشير إلى أن لفظ الملائكة ذكر صراحة في القرآن الكريم أكثر من سبعين مرة (انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٦٧٥ ، ٦٧٦) وهذا فضلا عن المواضع الأخرى التي ذكرت فيها الملائكة بصفاتهم أو أعمالهم دون التصريح باسمهم ، وأما في السنة فيصعب أن نحصر المواضع التي ورد فيها ذكر الملائكة ، وقد عقد الإمام البخاري فصلا عن الملائكة في كتاب بدء الخلق أورد فيه أكثر من ثلاثين حديثا ، كما قمت بإحصاء مرات ورود لفظة الملائكة في صحيحي البخاري ومسلم فقط عن طريق أحد برامج الحاسب الآلي فبلغت أكثر من مائة وتسعين مرة.

(٢) رواه البخاري (٥٠ ، ٤٧٧٧) ومسلم (٩ ، ١٠)٠

وكما يرد الإيمان بالملائكة مقترنا بالإيمان بالله وسائر أصول الاعتقاد فكذلك الحال في التحذير من الكفر بهم أو معاداتهم ، فمنكر وجود الملائكة كافر وضال ، كما في قوله تعالى ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾[النساء: من الآية١٣٦] وعدو الملائكة أو عدو أي واحد منهم هو من الكافرين أعداء الله ورسله ، كما في قوله تعالى ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة:٩٨]

وقبل أن نسترسل في الكلام عن هذا الركن تفصيلا نود أن نشير إلى أن كل ما يتعلق بالملائكة من حيث وجودهم وطبيعتهم وخصائصهم وأسماؤهم ووظائفهم وأعدادهم ، من أمور الغيب التي لا يعول فيها إلا على النص الصحيح من القرآن والسنة .

والقاعدة العامة التي سوف نستصحبها في هذا الباب هي أنه طالما ثبت النص وفهم على وجهه الصحيح ، فالواجب على المكلف التصديق الجازم بكل ما تضمنه ، حتى لو كان خارج مجال إدراك الحواس أو تصور العقل ، مع التيقن التام أنه لا يوجد في ذلك مطلقا ما يتناقض مع العقل أو يتعارض معه والنصوص الشرعية وإن تضمنت بعض محارات العقول – أي ما يفوق إدراكها – فإنها لا تأتي مطلقا بشيء من محالات العقول[1].

تعريف الملائكة لغة

الملائكة جمع مفرده ملك ، وهو يجمع على ملائكة وملائك ، وقد اختلف في أصل المادة التي اشتق منها هذا اللفظ وهل هي " ملك " أو " ألك " وأيا ما كان الأمر فهناك صلة واضحة بين المعنى اللغوي والمعنى

(١) انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٢ / ٣١٢ ، والجواب الصحيح ٢ / ٤١٤ .

الشرعي والاصطلاحي فمادة ألك تدل على تحمل الرسالة ومادة ملـك تـدل على قوة في الشيء وصحة[1] وكلا المعنيين متحققان في الملائكة ويعبـران عن أبرز خصائصهم ووظائفهم ٠

تعريف الملائكة اصطلاحا

الملائكة عالم غيبي كريم خلقهم الله عز وجل من نور ، وحباهم بالعديد من القوى والصفات الحميدة ، وجعلهم مجبولين على طاعته والتـذلل لـه وعدم عصيان أوامره ، ولكل منهم وظائف خصه الله بها ٠

صفات الملائكة الخَلْقية والخُلُقية [2]

أولا : صفاتهم الخَلْقية

تعددت النصوص الشرعية التي تخبر عن صفات الملائكـة الخلقيـة ، ونعنى بذلك الجوانب المتعلقة بطبيعة المادة التي خلقوا منهـا ، وهيئـتهم ، وأشكالهم الظاهرة ، وهل يأكلون ويشربون أم لا ، وهل يتصفون بالذكورة والأنوثة أم لا وغير ذلك من مسائل ٠

---

(١) انظر ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ١ / ١٣٢ ، ٥ / ٣٥١ ، ٣٥٢ ، والفيـروز آبادي : القاموس المحيط ٣ / ٣١٠ ، والرازي : مختار الصحاح ص ٢٦٤ ، وابـن منظور : لسان العرب ١ / ٥٣٥ ، ١٠ / ٣٩٤ ، ٤٨٢ ، ٤٩٦ ، والزبيدي : تـاج العروس ٧ / ١٠٣ والمعجم الوسيط ٢ / ٩٢١ ٠

(٢) إضافة لما ورد في كتب السنة الصحيحة عـن الملائكـة انظـر السـيد سـابق : العقائد الإسلامية ص ٩٩ – ١١٤ ، وأبو بكر الجزائري : عقيدة المؤمن ص ١٩٦ ، ٢٠٧ ، وحافظ أحمد حكمي : معارج القبول ١ / ٤٨ وابن عثيمين : شرح العقيـدة الواسطية ١ / ٦٤ ، و د٠ عمر الأشقر: عالم الملائكة الأبـرار ٩ – ٢٥ ، ومحمـد قطب : ركائز الإيمان ص ١٧٣ – ١٧٧ ، ود٠ عبد الحميد مدكور : دراسات فـي العقيدة الإسلامية ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ود٠ عبد اللطيف العبد : رد مزاعم المبطلـين عن أصول الدين ص ٣٠ ٠

وقد سبق أن أشرنا إلى أن الطريق الوحيد والصحيح لمعرفة هذه الأمور هو الأدلة النقلية من قرآن وسنة ثابتة ، لأن الملائكة عالم غيبي لا مدخل للحس أو العقل في كل أمر متعلق بهم ، وغاية ما يمكن للعقل أن يفعله هو الحكم بجواز ما أخبر به الشرع وعدم امتناعه ، وانطلاقا من هذه القاعدة المنهجية المهمة فسوف نعرض لبعض الحقائق التي جاءت بها النصوص الشرعية الثابتة عن الملائكة :

١- مادة الخلق التي خلق منها الملائكة هي النور ، كما أن مادة خلق الجن النار ، ومادة خلق الإنسان الطين ، ويدل على ذلك قول الرسول (ﷺ) " خُلِقَتْ الْمَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ "[١] .

وليس بوسعنا أن نحدد كنه هذا النور الذي خلقت منه الملائكة ، حيث لم يذكر لنا النبي (ﷺ) أي نور هذا الذي خلقوا منه ، ومن ثم فلا نستطيع أن نخوض في هذا الأمر لمزيد من التحديد ، لأنه غيب لم يرد فيه ما يوضحه أكثر من هذا الحديث[٢] .

أما رواه إسحاق بن راهويه في مسنده[٣]وعبد الله بن الإمام أحمد في كتاب السنة[٤]عن عكرمة أن الملائكة خلقت من نور العزة ، وأن إبليس خلق من نار العزة ، وكذلك الأثر الذي رواه عبد الله بن أحمد في كتاب السنة[٥]أن

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦) وأحمد (٢٤٨٢٦).

(٢) انظر د. عمر الأشقر: عالم الملائكة الأبرار ص٩ .

(٣) مسند إسحاق بن راهويه حديث رقم (٧٨٨).

(٤) السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل رقم ١٠٨٣ ، وقد نقل الأثر أيضا القرطبي في تفسيره ١/٢٩٧ .

(٥) السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل رقم (١٠٨٤ ، ١١٩٥).

الملائكة خلقت من نور الذراعين ، فهذه الآثار لا تثبت سندا ، وعلى فرض صحتها فالظاهر أنها من الإسرائيليات التي لا يجوز الأخذ بها ، لأنها لم ترد عن الصادق المصدوق (ﷺ)(١).

٢- لم يرد في النصوص الشرعية ما يدل على تحديد الوقت الذي خلق فيه الملائكة ، وكل ما نعلمه من نصوص القرآن والسنة أن خلقهم سابق على خلق أبينا آدم عليه السلام ، حيث أعلم الله الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة ، فقال سبحانه ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[البقرة: ٣٠] كما أمرهم بالسجود لآدم حين خلقه ونفخ الروح فيه فقال سبحانه ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [الحجر:٢٩] وفي الصحيحين من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أن النبي (ﷺ) قال " خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ فَقَالُوا السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ فَلَمْ يَزَلْ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الْآنَ "(٢) .

٣- وخلق الملائكة خلق عظيم جدا من حيث القوة ، وجمال الشكل ، وقد وصف الله ملائكة النار بأنهم غلاظ شديد فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦] ووصف جبريل عليه السلام فقال ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ

(١) انظر الشيخ الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة حديث رقم ٤٥٩ .

(٢) رواه البخاري (٣٣٢٦ ، ٦٢٢٧) ومسلم (٢٨٤١).

مَكِينٍ﴾ [التكوير : ١٩ ، ٢٠] ووصفه بأنه (شَدِيدُ الْقُوَى) (النجم:٥) وحينما جاء ملك الجبال إلى النبي (ﷺ) عندما آذاه أهل الطائف استأذنه أن يطبق عليهم الأخشبين ، ولكنه صلى الله عليه وسلم أبى ذلك[1]، وقد أخبرنا الله تعالى أن للملائكة أجنحة وأنهم متفاوتون في عدد تلك الأجنحة فقال في أول سورة فاطر ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر:١] ومن الملائكة من لهم ستمائة جناح ، وقد روى البخاري ومسلم أن النبي (ﷺ) رأى جبريل وله ستمائة جناح[2].

أما عن جمال منظرهم وحسن هيئتهم فيكاد هذا الأمر أن يكون من الحقائق المقررة في أذهان البشر ، ومما يشهد لذلك ما حكاه الله عن النسوة اللاتي دعتهن امرأة العزيز لرؤية يوسف عليه السلام ، حيث قلن عندما بهرن بحسنه وجماله الفائق ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾(يوسف:٣١) كذلك فسر بعض أهل العلم قوله تعالى في حق جبريل عليه السلام ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ [النجم:٦] أي ذو منظر حسن .

٤- وقد وهب الله الملائكة القدرة على التشكل في صور مغايرة لهيئتهم الأصلية ومنها الصورة البشرية ، وقد ورد في القرآن والسنة نماذج كثيرة لذلك منها مجيئهم لإبراهيم عليه السلام على هيئة أضياف فبادر لإكرامهم . كما جاءوا إلى لوط عليه السلام في صورة شباب حسان الوجوه فضاق بهم ذرعا وخشي عليهم من قومه الفاسقين ، وتمثل جبريل عليه السلام لمريم رضي الله عنها في صورة بشر كما في ورد ذلك في سورة مريم ، وكثيرا

---

(١) وهذا الحديث رواه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥).

(٢) رواه البخاري (٣٢٣٢ ، ٤٨٥٦) ومسلم (١٧٤).

ما كان جبريل عليه السلام يأتي النبي (ﷺ) في صورة بشرية وكان أشبه ما يكون حينئذ بالصحابي دحية الكلبي[1].

وحينما تتشكل الملائكة في الهيئة البشرية فيمكن أن يراهم البشر العاديون من غير الأنبياء ، وقد رأى الصحابة جبريل عليه السلام كما في الحديث المشهور الذي رواه عمر رضي الله عنه حيث قال : " بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه "[2] ثم أخذ يسأل النبي (ﷺ) عن الإيمان والإسلام والإحسان .

كذلك ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي (ﷺ)" أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى ، فأرصد الله له على مدرجته ملكا ، فلما أتى عليه قال أين تريد ؟ قال أريد أخا لي في هذه القرية ، قال هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال لا غير أني أحببته في الله عز وجل ، قال فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه"[3] .

أما الهيئة الحقيقية للملائكة فلا يستطيع أن يراها أحد سوى الأنبياء لعظم تلك الهيئة ، وعدم استطاعة البشر أن يتحملوها بل ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رجلا سألها عن قوله تعالى " وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ " وقوله " وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى " فَقَالَتْ : أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ " إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى

---

(١) انظر ما رواه البخارى (٣٦٣٤ ، ٤٩٨٠) ومسلم (٢٤٥١).

(٢) رواه مسلم (٨) والترمذي (٢٦١٠).

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٧) وأحمد (٧٨٥٩ ، ٩٠٣٦).

صُورَته الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنْ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ "(١) .

٥- والأصل أن مساكن الملائكة ومنازلهم في السماء ، وإن كانوا يتنزلون منها تنفيذا لما يأمرهم الله تعالى به ، ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[الشورى: ٥] وقوله ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾[فصلت: ٣٨] وقال النبي (ﷺ) " إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ "(٢) .

وهم حينما يتنزلون من السماء إلا الأرض فلا يفعلون ذلك إلا بإذن الله ، كما قال سبحانه ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم:٦٤] وثبت أن النبي (ﷺ) قالَ لِجِبْرِيلَ أَلَا تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا قَالَ فَنَزَلَتْ وَمَا نتنزل إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا الْآيَةَ "(٣) ويكثر نزول الملائكة في بعض الليالي الفاضلة مثل ليلة القدر ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۞ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٣ ، ٤]

٦ – والملائكة يختلفون عن الإنس والجن في أنهم لا يأكلون ولا يشربون ، ويدل على ذلك ما ورد في قصة مجيئهم لابراهيم عليه السلام

---

(١) رواه البخاري (٣٢٣٤) ومسلم (١٧٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٣١٢) وابن ماجه (٤١٩٠) وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٤٩).

(٣) رواه البخاري (٣٢١٨ ، ٤٧٣١).

كي يبشروه بغلام عليم ، حيث قرب إليهم الخليل عليه السلام طعاما لكن أيديهم لم تقترب منه مما أثار عنده شيئا من التوجس نحوهم حتى كشفوا له عن حقيقتهم والمقصد من إرسالهم ، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٠] .

ومن المهم أن نشير هنا إلى التحريف والخطأ الموجودين في التوراه عند رواية هذه القصة إذ ذكرت أن الرب – سبحانه وتعالى عما افترى عليه الظالمون – جاء ومعه ملكان إلى إبراهيم عليه السلام فقدم لهم طعاما فأكلا منه ، ونص القصة كما جاء في سفر التكوين " ثم ظهر الرب لإبراهيم وهو جالس عند بلوطات ممرا عند وقت اشتداد حر النهار فرفع عينيه ، وإذا به يرى ثلاثة رجال ماثلين لديه ...... فأسرع إبراهيم إلى داخل الخيمة إلى زوجته سارة وقال هيا أسرعي واعجني ثلاث كيلات من أفضل الدقيق واخبزيها ، ثم أسرع إبراهيم نحو قطيعه واختار عجلا رخصا طيبا وأعطاه لغلام كي يجهزه ، ثم أخذ زبدا ولبنا والعجل الذي طبخه ومدها أمامهم وبقي واقفا في خدمتهم تحت الشجرة **وهم يأكلون** "[١] .

ويختلف الملائكة عن البشر والجن أيضا في أنهم لا يملون ولا يتعبون ولا يصيبهم الضجر أو السآمة ، بل يقومون بعبادة الله وطاعته وامتثال أوامره دون كلل أو ملل ، وقد وصفهم الله بذلك فقال سبحانه ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠] وقال تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: من الآية٣٨] .

(١) سفر التكوين (١٨ : ١- ٨).

كذلك لا توصف الملائكة بالذكورة أو الأنوثة ، كما هو الحال عند الجن والإنس ، وقد أكذب الله مشركي العرب الذين جعلوا الملائكة إناثا وزعموا أنهم بنات الله ، مع أن الواحد منهم كان يستنكف إذا رزق بأنثى ويظل وجهه مسودا وهو كظيم كما قال تعالى ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف:١٩] وقال سبحانه ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾[الصافات: ١٤٩ ،١٥٠]

وإذا كانت الملائكة تختلف عن الأنس والجن فيما تقدم من صفات كالأكل والشرب والتعب والملل والذكورة والأنوثة ، فهم يتفقون معهم ومع سائر المخلوقات في أنهم يموتون ، وأن كل شيء هالك إلا وجه الله تعالى ، قال سبحانه ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾[الزمر:٦٨] وقال سبحانه ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[القصص:٨٨]

٧- وأما عدد الملائكة فهو كثير جدا ولا يعلمه أو يحيط به إلا خالقهم سبحانه وتعالى القائل ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾(المدثر:٣١) ومما يعطينا فكرة تقريبية عن عددهم الضخم جدا قول النبي (ﷺ) في وصف البيت المعمور الذي في السماء السابعة " يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه "[1]

كذلك وصف (ﷺ) مجيء الملائكة بجهنم في الآخرة فقال " يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٢).

يَجْرُّونَهَا "(١) أي أربعة آلاف وتسعمائة مليون ملك ، وهذا كله فضلا عن الملائكة الموكلين بالقطر والجبال والرعد والبرق والجنين وكتابة أعمال العبد وغير ذلك الكثير .

ثانيا : صفات الملائكة الخُلُقية

الملائكة عباد مكرمون ، اصطفاهم الله تعالى وخصهم بالكثير من الصفات الحميدة والسجايا الجليلة ، وقد أثنى الله تعالى عليهم ثناء عظيما ويكفي أنه سبحانه قرن شهادتهم بشهادته على أجل المطالب وأعظم المقاصد مثل وحدانيته وصدق الرسول وأن القرآن كلام الله تعالى فقال سبحانه : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٨] وقال تعالى : ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [النساء : ١٦٦] .

وقد ورد في القرآن والسنة طرفا من أخلاقهم ومن ذلك :

١ - وصف الله الملائكة بأنهم عباد مكرمون وبأنهم كرام بررة ، وأنهم سفرة بين الله ورسله وأنبيائه ، فقال سبحانه عنهم ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾[الانبياء: ٢٦] ووصف القرآن بأنه ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾[عبس: ١٥ ، ١٦] وقيل في تفسير هذه الآية " كرام " أي كرام على ربهم ، وقيل كرام عن المعاصي، فهم يرفعون أنفسهم عنها ، وقيل كرام : أي يؤثرون منافع غيرهم على منافع أنفسهم، ولا إشكال في أن تكون تلك المعاني كلها واردة وأما " بررة " فجمع بار يقال: بر وبار إذا كان أهلاً

(١) رواه مسلم (٤٨٤٢).

للصدق، ومنه بر فلان في يمينه: أي صدق، وفلان يبر خالقه ويتبـررره: أي يطيعه، فمعنى (بررة) مطيعون لله، صادقون لله في أعمالهم[1].

٢- والملائكة طائعون لله طاعة تامة ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون ﴾[التحريم:٦]ولا يمكن لأحد منهم أن يسبق الله بقـول أو فعـل، أو يتقدم بين يديه مقترحا أو معترضا على أمر من أوامره، كما قال سبحانه ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۞ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٦، ٢٧] وفي صحيح البخاري[2]أن رسـول الله (ﷺ) قال لجبريل " مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا فَنَزَلَتْ (وَمَـا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا) ولا يتكلم الواحـد مـنهم إلا بإذن الله وأمره ﴿ لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً ﴾[النبأ:٣٨] كما لا يشفعون إلا لمن ارتضى سـبحانه ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء:٢٨] وهم خائفون من الله أشد الخوف كما قال سـبحانه ﴿ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾[الأنبيـاء:٢٨] وقـال تعـالى ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾[النحل:٥٠] .

٣- والملائكة في عبادة دائمة وتسبيح لا ينقطع دون أن يصيبهم سأم أو ملل كما قال سبحانه ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء :٢٠] وقال سبحانه :﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت:٣٨] .

---

(١) انظر القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ٢١٧ ، وابن الجـوزي : زاد المسـير ٩ / ٣٠ ، وابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٤ / ٤٧٢ .

(٢) رواه البخاري (٣٢١٨ ، ٤٧٣١).

وعبادات الملائكة متنوعة وكثيرة ، منها التسبيح كما قال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [غافر:٧] وقال تعالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾[الشورى: ٥] . ولكثرة تسبيحهم فإنهم هم المسبحون على الحقيقة كما أخبر الله عنهم : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ [الصافات:١٦٦] ومن عباداتهم أيضا الصلاة كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ [الصافات:١٦٥] وكما قال النبي ﷺ " أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ "

وهم يتراصون ويصطفون في صلاتهم على أحسن ما يكون الاصطفاف كما قال النبي (ﷺ) " أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا قَالَ يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ "(١) ومن عباداتهم أيضا الحج ولهم كعبة في السماء السابعة بحيال كعبة الدنيا وهم يحجون إليها كل يوم وقد ورد في الحديث " أن البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ولا يعودون أبدا "(٢) .

٤- والملائكة منظمون في كل شئونهم من عبادة وغيرها ، وهم لا يتقدمون ولا يتأخرون عن الموضع أو المقام الذي أمرهم الله به كما قال سبحانه حاكيا عنهم ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ . وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ [الصافات:١٦٤، ١٦٥] وفي مجيء الملائكة يوم القيامة يأتون صفوفا منتظمين كما قال سبحانه ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾[الفجر:٢٢] وقال

(١) رواه مسلم (٤٣٠ ، ٨١٦).

(٢) رواه البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٤).

سبحانه ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ [النبأ:٣٨] .

٥- ومن صفات الملائكة التي وردت بها النصوص تأذيهم من كل ما هو كريه من الأصوات أو الروائح غير الطيبة والتي يتأذى منها بنو آدم ، ويدل على ذلك حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال نَهَى رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَكْلِ الْبَصَلِ وَالْكُرَّاثِ فَغَلَبَتْنَا الْحَاجَةُ فَأَكَلْنَا مِنْهَا فَقَالَ مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْمُنْتِنَةِ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ الْإِنْسُ "[1] كذلك من صفات الملائكة أنها تستحي استحياء يليق بحالها ، وقد ثبت عن النبي (ﷺ) أنه قال عن عثمان بن عفان " ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة "[2] .

٦ – ومع أن جميع الملائكة في طاعة دائمة وعبادة مستمرة بحيث لا يمكن أن يقع من أحدهم معصية إلا أنهم متفاوتون في درجاتهم وقربهم من الله تعالى فهو سبحانه يخلق ما يشاء ويختار ، وقد أخبر أنه يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس فقال : ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج:٧٥] كما أخبر سبحانه أن هناك ملائكة مقربين فقال ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾[النساء:١٧٢] وأفضل الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل وحملة العرش المذكورون في قوله تعالى ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧] وكذلك من شهد بدرا من الملائكة فهم أفضل ممن لم

(١) رواه مسلم (٥٦٤) والنسائي (٧٠٧).

(٢) رواه مسلم (٢٤١٠) وأحمد (٥١٦).

يشهدها ، ففي البخاري أن جبريل جاء إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ قَالَ مِنْ أَفْضَلِ الْمُسْلِمِينَ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا قَالَ وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنْ الْمَلَائِكَةِ "[1]

أسماء الملائكة الذين أخبرنا الله بهم

يجب على المسلم أن يؤمن بوجود الملائكة إجمالا سواء أعرف أسماءهم أم لا كما يجب عليه الإيمان التفصيلي بمن ذكر الله أسماءهم تحديدا ، ومع أن الظاهر أن للملائكة أسماء يختص بها كل واحد منهم ، غير أنه لا يجوز لنا أن نعين أو نحدد اسما لأحد الملائكة إلا إذا وردت النصوص الشرعية بذلك .

ومن الملائكة الذين وردت أسماؤهم في القرآن أو السنة الصحيحة : جبريل وميكال (أو ميكائيل) عليهما السلام ، حيث قال سبحانه :﴿ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٩٨] وكذلك إسرافيل عليه السلام حيث كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في قيامه بالليل " اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم "[2] .

ومنهم أيضا : مالك خازن النار ، والذي ورد ذكره في قول الله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧]ومنكر ونكير وهما الملكان الموكلان بسؤال القبر ، وهاروت

---

(١) رواه البخاري (٣٩٩٢).

(٢) رواه مسلم (٧٧٠).

وماروت الملكان اللذان ورد ذكرهما في قوله تعالى ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة:١٠٢] وهؤلاء – تقريبا – هم من صرحت النصوص الشرعية بأسمائهم ، أما تسمية ملك الموت بعزرائيل أو عبد الرحمن فلا يثبت شيء من ذلك ٠

وظائف الملائكة[1]: استفاضت النصوص الشرعية في بيان الوظائف التي يقوم بها الملائكة عليهم السلام بأمر الله سبحانه ، وهي من التنوع والكثرة ، والتعلق بعالم الروح وعالم المادة ، والكون والإنسان ، حتى ليمكن القول بأن " ما يشاهد من تدبير العالم العلوي والسفلي ومالا يشاهد إنما هو على أيدي الملائكة، فالرب تعالى يدبر بهم أمر العالم، وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم ، فوكل بالشمس والقمر والنجوم والأفلاك طائفة منهم ، ووكل بالقطر والسحاب طائفة، ووكل بالنبات طائفة ، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة، ووكل بالموت طائفة، وبحفظ بني آدم طائفة، وبإحصاء أعمالهم وكتابتها طائفة، وبالوحي طائفة، وبالجبال طائفة، وبكل شأن من شئون العالم طائفة، هذا مع ما في خلق الملائكة من البهاء والحسن ، وما

(١) انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٤ / ٢٥٢ ، ابن القيم : إغاثة اللهفان ٢ / ١٢٥ – ١٣١ ، والتبيان في أقسام القرآن ص ٨٣ ١٧٨ ، ١٧٩ ، والسيد سابق : العقائد الإسلامية ص ١٠٣- ١١٢ ، وأبو بكر الجزائري : عقيدة المؤمن ص ١٩٧- ٢٠٣ ، وحافظ أحمد حكمي : معارج القبول ١ / ٤٩ – ٥٦ وابن عثيمين : شرح العقيدة الواسطية ١ / ٥٩- ٦٤ ، ود٠ عمر الأشقر: عالم الملائكة الأبرار ص ٣٩- ٦٧، ٧٧- ٨١ ، ومحمد قطب : ركائز الإيمان ص ١٧٩ – ١٨٢ ، ود٠ عبد الحميد مذكور : دراسات في العقيدة الإسلامية ص ٢٣٣- ٢٣٦ ٠

فيهم من القوة والشدة، ولطافة الجسم، وحسن الخلقة، وكمال الانقياد لأمره، والقيام في خدمته، وتنفيذ أوامره في أقطار العالم "(١) .

ولا يفهم من هذا الكلام نفي ما أثبته العلم وأقرت به العقول والحواس من وجود قوانين وأسباب يرتبط بعضها ببعض " لأن هذه القوانين والأسباب إنما هي مخلوقات لله ، والملائكة موكلة بها أيضا وموكلة برعايتها كما ترعى المخلوقات الأخرى ، ولولا إرادة الله في حفظ هذه الأسباب والقوانين ، ولولا قدره في تسخير الملائكة للحفاظ عليها ، فإن العقل لا يستلزم أبدا بقاءها على هذه الآماد الطويلة في انتظامها وتناسقها "(٢) .

وقد تكرر الإقسام بعمل الملائكة وما يقومون به من وظائف في صدر أكثر من سورة من سور القرآنية ، كما سميت تلك السور بواحد من هذه الأعمال ومنها سورة الصافات وسورة المرسلات وسورة النازعات ، وسوف نكتفي بالإشارة إلى نماذج من تلك الأعمال ، مع ملاحظة أن الله سبحانه وكل كل طائفة من الملائكة بعمل معين .

١- وأعظم وظائف الملائكة وأجلها شأنا السفارة بين الله ورسله ، والنزول بالوحي ورسالة الله إلى أهل الأرض ، كما قال تعالى ﴿ **يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ** ﴾[النحل:٢] والملك الموكل بهذه المهمة هو أفضل الملائكة وأمين الوحي جبريل عليه السلام والذي ذكر في القرآن باسمه تصريحا في قوله تعالى ﴿ **مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ** ﴾[البقرة:٩٧] كما وصف بالكثير من الأوصاف العظيمة كما في قوله تعالى ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ**

---

(١) ابن القيم : التبيان في أقسام القرآن ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٢) د.محمد نعيم ياسين : الإيمان ص ٢٩ .

الْأَمِينُ﴾[الشعراء:١٩٣] وفي قوله ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:١٩ -٢١] وقوله ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥] ٠

وإضافة لنزول جبريل عليه السلام بالقرآن فقد كان ينزل على النبي (ﷺ) في مواقف عدة منها تعليمه الصلاة ، ومنها مدارسته القرآن ، ومنها رقيته لما اشتكى ، ومنها قتاله المشركين إلى جانب المصطفى (ﷺ) ٠

٢- ومن أصناف الملائكة حملة العرش ، وهم ثمانية كما قال تعالى ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾[الحاقة: ١٧] وحملة العرش دائمو التسبيح بحمد ربهم والاستغفار للمؤمنين والدعاء لهم بدخول الجنة والنجاة من النار كما قال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر:٧] وحملة العرش هؤلاء على قدر كبير من القوة ، وعظم الخلقة ، ويدل على ذلك قول النبي (ﷺ) : " أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله تعالى حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة "(١) ٠

٣- خزنة جهنم وهم الملائكة الذين وكلهم الله تعالى بحراسة جهنم والقيام عليها وتعذيب الكافرين حينما يدخلونها ، وقد أخبر الله تعالى أن هؤلاء الخزنة يوبخون الكافرين على استمرارهم في الكفر بعد مجيء الرسل ، ويأمرونهم بدخول جهنم التي يستحقونها لأنهم استكبروا عن الإيمان بربهم ، قال تعالى ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا

(١) رواه أبو داود (٤٧٢٧) وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٨٥٤)٠

فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر:٧١] وفي آية أخرى يخبر سبحانه أن أهل النار يطلبون من الخزنة أن يسألوا الله تخفيف العذاب عنهم فلا يظفرون من وراء ذلك بطائل ، قال تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩] وقد ورد في القرآن اسم رئيس هؤلاء الخزنة وهو مالك عليه السلام كما في قوله تعالى : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧]

كذلك أخبر سبحانه أن خزنة النار غلاظ شديد ممتثلون لأمر ربهم ولا يعصونه سبحانه في أي شيء مما يأمرهم به ﴿ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦] وأما عدد خزنة النار فهم تسعة عشر ، وقد جعل الله هذا العدد فتنة للاختبار والامتحان ، إذ ربما ظن الكافرون أو المنافقون ضآلة هذا العدد وقلته ، مع أن الملك الواحد من القوة بحيث يكفي لإهلاك العالم بأسره ، كما قال تعالى ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾(المدثر:٣٠) وقال سبحانه ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [المدثر:٣١]

٣- خزنة الجنة وهم القائمون على أمرها واستقبال الموحدين فيها وتحيتهم بأحسن تحية كما قال تعالى ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣] وقال سبحانه عن أهل الجنة أيضا ﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾[الرعد: ٢٣] .

٤- ملك الموت ومن معه من الملائكة الموكلين بقبض الأرواح ، وقد ذكر في القرآن ملك الموت وحده تارة ، كما في قوله تعالى ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[السجدة: ١١] وذكرت الملائكة بصيغة الجمع تارة أخرى كما في قوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾[الأنعام: ٦١] ويجمع بين الأمرين بأن ملك الموت له أعوان يقبضون مه أرواح العباد .

٥ – الملك الموكل بالنفخ في الصور وهو إسرافيل عليه السلام، وقد جاء في القرآن أن هناك نفختين في الصور ، يصعق الخلق على إثر النفخة الأولى ثم يبعثون على إثر الثانية ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨]

وسمى النبي (ﷺ)إسرافيل بصاحب القرن فقال : " كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقَرْنِ قَدْ الْتَقَمَ الْقَرْنَ وَاسْتَمَعَ الْإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ فَكَأَنَّ ذَلِكَ ثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُمْ قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا "(١) .

٦- الملائكة الموكلون بالظواهر الكونية المختلفة مثل تدبير أمر المطر والرياح والسحاب والنبات والجبال وسائر أمور الكون ، وقد تكرر ذكرهم في القرآن على سبيل الإجمال في مطلع سورة الصافات والمرسلات والنازعات .

(١) رواه الترمذي (٢٤٣١) وأحمد (٣٠٠١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥٩٢)

علاقة الملائكة بالبشر[1] .

والعلاقة بين الملائكة والبشر علاقة وثيقة وممتـدة ، بحيـث لا يخلـو الإنسان في أي مرحلة من مراحل وجوده من نوع ارتباط بالملائكة ، ابتداء من كونه جنينا في بطن أمه ، ثم خروجه إلى معترك الحياة بكل ما فيها ، ثم قبض روحه وانتقاله إلى عالم البرزخ بما فيه من سؤال ونعيم أو عـذاب . ثم اليوم الآخر ودخول الجنة أو النار .

وكما يقول ابن القيم رحمه الله " والملائكة الموكلة بالإنسان من حـين كونه نطفة إلى آخر أمره لهم وله شأن آخر ، فإنهم موكلون بتخليقه ونقله من طور إلى طور ، وتصويره ، وحفظه في أطباق الظلمات الثلاث ، وكتابـة رزقه وعمله وأجله وشقاوته وسعادته ، وملازمتـه فـي جميـع أحوالـه ، وإحصاء أقواله وأفعاله وحفظه في حياته ، وقبض روحـه عنـد وفاتـه ، وعرضها على خالقه وفاطره وهم الموكلون بعذابه ونعيمه فـي البـرزخ وبعد البعث ، وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب ، وهم المثبتون للعبد المؤمن بإذن الله والمعلمون له ما ينفعه والمقاتلون الذابون عنه ، وهم أولياؤه في الدنيا والآخرة ، وهم الذين يرونه في منامه ما يخافه ليحذره وما يحبـه ليقوى قلبه ويزداد شكرا ، وهم الذين يعدونه بالخير ويدعونه إليه وينهونـه عن الشر ويحذرونه منه ، فهم أولياؤه وأنصاره وحفظته ومعلموه وناصحوه والداعون له والمستغفرون له ، وهم الذين يصلون عليه ما دام فـي طاعـة ربه ، ويصلون عليه ما دام يعلم الناس الخير ، ويبشرونه بكرامة الله تعالى في منامه وعند موته ويوم بعثه ، وهم الذين يزهدونه في الدنيا ويرغبونه في

---

(1) انظر ابن القيم : إغاثة اللهفان ٢ / ١٣٠ ، ١٣١ ، والسيد سابق : العقائد الإسـلامية ص ١٠٥- ١١١ ، ود. عمر الأشقر : عالم الملائكة الأبرار ص ٣٧ - ٧٥ ، ود. عبد الحميد مدكور : دراسات في العقيدة الإسلامية ص ٢٣٣- ٢٣٦ .

الآخرة ، وهم الذين يذكرونه إذا نسي وينشطونه إذا كسل ويثبتونه إذا جزع ، وهم الذين يسعون في مصالح دنياه وآخرته "(١) .

١- وقد بدأت علاقة الملائكة ببني الإنسان قبل خلق أبي البشر الأول آدم عليه السلام، فحينما أعلم الله الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة سألوا عن الحكمة من ذلك وقالوا ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٣٠] ثم أمر الله الملائكة بالسجود لآدم حين يتم خلقه وتنفخ فيه الروح ، فاستجابوا جميعا وأطاعوا الأمر وقد أبان الله لهم عن فضل آدم وما خصه به من العلم والفهم فقال سبحانه ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة:٣١]

وبعد أن خلق الله آدم قامت الملائكة بإرشاده وتعليمه كيفية السلام ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال " خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا ثُمَّ قَالَ اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ مِنْ الْمَلَائِكَةِ فَاسْتَمِعْ مَا يُحَيُّونَكَ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ فَقَالُوا السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ فَزَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ فَلَمْ يَزَلْ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ "(٢) ولما مات آدم عليه السلام لم يعرف أولاده كيف يغسلونه فقامت الملائكة بتغسيله ، ففي الحديث أنه (ﷺ) قال : " لما توفي آدم غسلته الملائكة بالماء وترا و ألحدوا له و قالوا : هذه سنة آدم في ولده "(٣) .

---

(١) ابن القيم : إغاثة اللهفان ٢ / ١٣٠ .

(٢) رواه البخاري (٣٣٢٦) ومسلم (٢٨٤١)

(٣) رواه الحاكم في المستدرك وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٢٠٧)

٢ – وأما ذرية آدم فإن الملائكة موكلة بأمورهم في كل مراحل حياتهم الدنيوية والأخروية ويبدأ ذلك بالمرحلة الجنينية ، حيث يؤمر الملك بنفخ الروح في الجنين وكتابة رزقه وأجله وسعادته أو شقاوته كما في الحديث المشهور المتفق عليه ٠

٣– والملائكة تحرس ابن آدم من كل سوء وأذى وتحفظه من كل ما لم يقدره الله عليه كما قال تعالى﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾[الرعد:١١] " وقال تعالى ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١] وهم مع ذلك مكلفون بكتابة كل ما يفعله العبد من حسنات أو سيئات وحفظ ذلك كله دون إغفال صغيرة أو كبيرة ، كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَاماً كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار:١٠، ١١] وقال سبحانه﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾[يونس: ٢١] وقال سبحانه ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠] ٠

٣– وللملائكة دور عظيم في دعوة العباد إلى الصالحات وتحريك بواعث الخير فيهم وقد وكل الله تعالى بكل عبد قرينا من الملائكة وقرينا من الجن كما قال (ﷺ) " ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن قالوا وإياك يا رسول الله قال وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير "[١] وفي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة قال قال رسول الله (ﷺ) : " ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان

(١) رواه مسلم (٢٨١٤) وأحمد (٢٣١٩)

فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا "[1] .

٤- وعلاقة الملائكة بالمؤمنين هي علاقة ملؤها الحب والود والنصرة والحرص على كل ما ينفع المسلم في دينه ودنياه ، وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلانا فأحببه فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض "[2] وهم يستغفرون للمؤمنين ويدعون الله أن يدخلهم الجنة وينجيهم من النار كما قال تعالى (**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ** ﴾ [غافر:٧] .

كما أنهم يصلون على المؤمنين - بمعنى الدعاء والاستغفار لهم - وصلاتهم هذه منها ما هو عام للمؤمنين جميعا كما في قوله تعالى ﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾[الأحزاب:٤٣] ومنها ما يختص بمن يقومون ببعض الأعمال الصالحة التي حث عليها النبي (ﷺ) ومن ذلك صلاتهم على معلمي الناس الخير وعلى من يمكثون في المسجد وعلى من يصلون في الصف الأول وعلى المتسحرين وصلاتهم على من صلى على النبي (ﷺ) .

٥- أما الكافرون والفاسقون فإن الملائكة لا تحبهم ، بل تبغضهم وتعاديهم وتلعنهم ، كما في قوله تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ**

(١) رواه البخاري (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠)

(٢) رواه البخاري (٣٢٠٩) ومسلم (٢٦٣٧)

كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ [البقرة: ١٦١]

وكثيرا ما كانت الملائكة تنزل عذاب الله بالأمم الكافرة كما حدث مع قوم لوط عليه السلام .

وهناك الكثير من المعاصي والذنوب التي تجلب على أصحابها لعنة الملائكة كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة ، ومنها إشارة المؤمن لأخيه بحديدة وعصيان المرأة لزوجها وعدم إجابة رغبته إذا دعاها إلى الفراش ، و من أحدث حدثا أو آوى محدثا ولا سيما في المدينة ، ومن حال دون تنفيذ شرع الله أو حد من حدوده .

ثمرات الإيمان بالملائكة

ولا شك أن للإيمان بالملائكة ثمرات عظيمة ، وآثارا مهمة في حياة المسلم وسلوكه ، والله سبحانه لم يطلعنا على شيء من أمور الغيب إلا وفيه منة عظيمة على الخلق ، ومن ثمرات الإيمان بالملائكة[1]:

١ – عصمة المؤمن من الوقوع في الخرافات والأوهام ، فقد جنبنا الله سبحانه بما أطلعنا من أمر هذه الأرواح المؤمنة وأفعالها أن نقع في الأباطيل والخرافات التي وقع فيها من لا يؤمنون بالغيب ولا يتلقون معارفهم عن الوحي الإلهي .

---

(١) انظر الشيخ السيد سابق : العقائد الإسلامية ص ١٢٢ – ١١٤ ، والشيخ ابن عثيمين : شرح أصول الإيمان ضمن مجموع الرسائل والمتون العلمية ٣ / ٨٨ ، ٨٩ ، وأحمد فريد : الثمرات الزكية ص ١٦٣ ، ١٦٤ ، ود. محمد نعيم ياسين : الإيمان : أركانه ، حقيقته ، نواقضه ص ٣٥ ، ٣٦ ، ومحمد قطب : ركائز الإيمان ص ١٨٣ ود. حسن عبد الغني حسان : عالم الملائكة والجن في ضوء القرآن والسنة ص ١١٣ – ١١٥

٢ – العلم بعظمة الله تعالى وقوته وسلطانه ، فإن عظمة المخلوق من عظمة الخالق ، والملائكة بما هم عليه من قوة الخلق وجميل الأخلاق دليل واضح على صفات خالقهم سبحانه وعظمته وقوته وقدرته على كل شيء ٠

٣ – شكر الله تعالى على عنايته ببني آدم ، حيث وكل من هؤلاء الملائكة من يقوم بحفظهم ورعايتهم في كافة مراحل حياتهم وإرشادهم إلى الخير وتثبيتهم والدعاء والاستغفار لهم ، وغير ذلك الكثير من الوظائف التي أشرنا إليها سابقا ٠

٤ – الاستقامة على منهج الله عز وجل ، فإن من يستشعر بقلبه وجود الملائكة ومراقبتهم لأعماله وأقواله وشهادتهم على كل ما يصدر عنه ، فلا بد أن يمتلأ قلبه بالحياء من الله وجنوده ، ويمتنع عن اقتراف المعاصي في السر والعلانية إذ كيف يقدم على ذلك وهو يعلم أن كل شيء محسوب ومكتوب ومشهود عليه كما قال تعالى ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [الكهف:٤٩] ٠

٥– الإحساس بالمسئولية والجزاء ، فالمؤمن بالملائكة حينما يوقن بوجود هؤلاء العباد المكرمين وجند الله الذين لا يعلمهم إلا هو ، فسوف يزداد إحساسه بأنه ليس وحده في الكون ، بل هناك مخلوقات أخرى تشاهده وتراقبه ، وقد كلفوا بتسجيل أعماله ، وكل ذلك مما يعمق من الإحساس بالمسئولية نحو كل ما يصدر عن العبد من أعمال ، كما أن الإيمان بالملائكة يزيد من استشعار القلب البشري بعظمة القدرة الربانية المعجزة التي تخلق من النور ملائكة ذوي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ٠

٦ – الصبر والثبات والجهاد في سبيل الله ، وعدم تسرب اليأس أو القنوط وهذه المعاني كلها من لوازم الإيمان بالملائكة ، ومعرفة ما أخبر الله من أفعالها وأحوالها ٠

فالركب حينما يضل عن الطريق " وتسود الجاهلية الجهلاء ، ويصبح المؤمن غريبا في وطنه وبين أهله وقومه ، ويجد منهم الصدود والاستهزاء والتخذيل والتثبيط عن طاعة الله والاستقامة على أمره ، في هذه الغربة يجد المؤمن أنيسا ورفيقا يصحبه ويرافقه ويواسيه ويصبره ويطمئنه ويشجعه على مواصلة السير على درب الهدى ، فهذه جنود الله معه ، تعبد الله كما يعبد ، وتتجه إلى خالق السماوات والأرض كما يتجه وتبارك خطواته وتشد من أزره وتذكره بالخير عند ربه ، فهو إذا ليس وحده في الطريق إلى الله ، ولكنه يسير مع الركب العظيم ومع الأكثرية من مخلوقات الله عز وجل ، مع الملائكة الكرام ، ومع الأنبياء عليهم السلام ، ومع السماوات والأرض ، فهو الأكثر رفيقا ، وهو الأقوى سندا فتجعله هذه المشاعر الصادقة صابرا مطمئنا لا يزيده صدود الناس إلا ثباتا وجهادا "(١) ٠

ويؤيد ذلك أن الملائكة كثيرا ما تسوق البشارات للمؤمنين في صورة رؤيا يرونها ، وهم أولياء المؤمنين في الدنيا والآخرة ، يثبتونهم ويبشرونهم ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠]

۞ ۞ ۞

(١) د٠ محمد نعيم ياسين : الإيمان : أركانه ، حقيقته ، نواقضه ص ٣٥ ، ٣٦ ٠

الفصل الثالث

الإيمان بالكتب

والإيمان بالكتب والرسالات هو الركن الثالث من أركان الإيمان وأصول العقيدة التي لا يصح إيمان المكلف إلا إذا حققها على وجهها الصحيح والمقصود بهذا الركن هو التصديق الجازم بأن لله كتبا أنزلها على أنبيائه ورسله وهي من كلامه حقيقة ، وأنها نور وهدى ، وكل ما تضمنته حق وصدق ولا يعلم عددها إلا الله ، والواجب الإيمان بها إجمالا إلا ما ورد منها مفصلا فيجب الإيمان بها على التفصيل(1).

وقد ورد الإيمان بالكتب في النصوص الشرعية مقدما على الإيمان بالرسل في الترتيب رغم التلازم بين هذين الركنين في الوجود ، إذ إن الكتب لا تنزل إلا على رسول من رسل الله ، لكن ربما كان في هذا التقديم – والله أعلم – دلالة على أن الإيمان بالكتب ليس موقوفا على شخص الرسول ، فالرسول بمقتضى كونه بشرا سوف يموت لكن رسالته تبقى من بعده ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ [آل عمران:144] والإيمان بالقرآن واتباعه والعمل بما فيه فرض على كافة المكلفين ممن عاصروا النبي وشاهدوه عيانا ، أو من أتوا بعده إلى قيام الساعة .

ويضاف لما سبق أنه ليس من اللازم أن ينزل على كل نبي كتابا مستقلا ، بل قد يكلف الله جما غفيرا من الأنبياء باتباع كتاب واحد ، مثلما هو الحال مع التوراة ، والتي كلف جل أنبياء بني إسرائيل باتباعها ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا

---

(1) انظر عبد العزيز السلمان : الأسئلة والأجوبة الأصولية ص 26 .

لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾[المائدة :٤٤] .

والكتب لغة جمع كتاب ، وهو اسم لما كتب ، أو هو مصدر للفعل كتب ، وأصل هذه المادة يدل على جمع شيء إلى شيء[١]، ومنه الكتاب الذي يجمع بين الجمل التي تكون كلاما مفيدا ذا أغراض متعددة ، وكتب الله التي يجب الإيمان بها هي الصحف[٢]التي حوت كلام الله تعالى الذي أوحاه إلى رسله عليهم السلام ، فكونت كتبا أو بقيت صحفا لم تجمع ولم يتكون منها كتاب خاص فالصحف مثل صحف إبراهيم وموسى ، والكتب كالتوراة والزبور والإنجيل والقرآن العظيم[٣].

أدلة وجوب الإيمان بكتب الله ورسالاته .

تضافرت أدلة القرآن ، والسنة الصحيحة ، وإجماع أصحاب الديانات السماوية الثلاث ، والعقل الصحيح على وجوب الإيمان بكتب الله ورسالاته ، وأن ذلك من أصول الإيمان الأساسية .

---

(١) انظر ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ١ / ١٥٨ ، ١٥٩ ، والرازي : مختار الصحاح ص ٢٣٤ ، وابن منظور : لسان العرب ١ / ٦٩٨ ، ٦٩٩ .

(٢) والصحف في اللغة جمع صحيفة ، وهي تأتي بمعنى الكتاب أي كل شيء كتب فيه ، ومنه قوله تعالى : ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر :٥٢] أي يريد كل واحد من مشركي مكة أن ينزل الله عليه صحيفة مكتوبة تخبره أن محمدا رسول من عند الله فإذا أضيفت إلى رسول من رسل الله صارت تعني الكتاب المنزل على هذا الرسول ، كما تسمى كتب الأنبياء السابقين بالصحف ومنه قول الله تعالى " او لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى " انظر عصام الدين الهنامي : أركان العقيدة الإسلامية في القرآن الكريم ص ٨٣ .

(٣) انظر أبو بكر جابر الجزائري : عقيدة المؤمن ص ٢٣٤ .

أ - فأما أدلة القرآن فقد جاءت على وجوه متنوعة ، حيث يجيء ذكر الإيمان بالكتب السماوية في صيغة الأمر تارة ، وباعتباره صفة للمؤمنين تارة أخرى كما يجيء عدم الإيمان بالكتب المنزلة أو الإيمان ببعضها دون البعض الآخر علامة على الكفر تارة ثالثة[1].

ومن أمثلة الأمر قوله تعالى ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦]

كما يجيء الأمر أحيانا في صيغة مجملة مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦] أما وصف المؤمنين بأنهم هم الذين يؤمنون بالكتب المنزلة كلها فقد ورد في قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:٤] وقوله تعالى ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[البقرة: ٢٨٥] " وقوله تعالى ﴿ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾[آل عمران: ١١٩].

أما وصف الذين لا يؤمنون بالكتب كلها أو الذين يؤمنون ببعضها ويكفرون ببعض بأنهم كفار وضلال وخاسرون فقد ورد في عدة آيات منها قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ

(١) انظر محمد قطب : ركائز الإيمان ص ١٩٠- ١٩٢ .

ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾[النساء:١٣٦] وقوله ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٩٠] وقوله ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة:١٢١] كما توعد سبحانه من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر بالآخر بأشد العذاب والخزي في الدنيا والآخرة فقال﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[البقرة: ٨٥] .

ويتكرر في كتاب الله الإشارة إلى أن تكذيب الرسالات وعدم الانصياع لما جاء فيها من أعظم أسباب هلاك الأمم وحلول نقمة الله وتعذيبه لها ، وقد أخبر الله عما قاله نبيان كريمان من أنبياء الله بعدما نزل العذاب بقومهما ، ففي سياق الكلام عن صالح عليه السلام قال تعالى ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٩] وفي قصة شعيب قال تعالى ﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف:٩٣] .

ويفهم من هذه الآيات وأمثالها سواء كانت أمرا مباشرا أو وصفا للمؤمنين أو وصفا للكافرين الذين يكذبون بالكتب ، هو أن الإيمان بالكتب السماوية كلها أمر واجب لا يتم إيمان المرء إلا به ، وذلك أمر بدهي بالنسبة للمؤمن بالله ورسالاته ، فما دام الله سبحانه قد أخبره أنه أنزل كتبا سابقة على الأنبياء والرسل ، فكيف يكذب خبر الله أو يؤمن ببعض الكتب ويكفر ببعض ؟!

ب – وأما أدلة السنة فمن أشهرها حديث جبريل المعروف والذي تكرر معنا مرارا وفيه أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال : " الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته **وكتبه** ورسله واليوم الآخر " وثبت عنه (ﷺ) أنه قال " إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك اللهم آمنت **بكتابك** الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة واجعلهن آخر ما تتكلم به "(١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا إذا أخذ أحدنا مضجعه أن يقول اللهم رب السموات ورب الأرضين وربنا ورب كل شيء وفالق الحب والنوى **ومنزل التوراة والإنجيل والقرآن** أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء والظاهر فليس فوقك شيء والباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين وأغنني من الفقر "(٢) .

ج – وأما إجماع أصحاب الديانات السماوية الثلاثة على وجوب الإيمان بالكتب الموحى بها من الله ، فهو أمر لا يحتاج إلى كثير استدلال ، وكل تلك الديانات قائمة في أصولها وفروعها وأحكامها على ما ورد في كتبها المنزلة ، مع ضرورة التنبيه إلى ما حدث في التوراة والإنجيل من تأويل وتحريف أصاب الألفاظ والمعاني ومن ثم الأحكام المستنبطة من تلك الكتب ، بحيث لم يبق كتاب على الوجه الصحيح الذي أنزله الله تعالى سوى القرآن الكريم ، كما سنعرض لذلك فيما بعد إن شاء الله ٠

(١) رواه البخاري (٢٤٧ ، ٦٣١١) ومسلم (٢٧١٠)٠

(٢) رواه مسلم (٢٧١٣) والترمذي (٣٤٠٠)٠

د – وأما دلالة العقل[1] فإنها مبنية على ثلاثة أمور أساسية : أولها احتياج الرسول في إثبات رسالته إلى كتاب من ربه يكون حجة له على قومه ، وثانيها افتقار التشريع الإلهي إلى كتاب يحويه ويتضمنه ويثبت بين دفتيه ، وثالثها عدم إعطاء الناس الحجة على الله إذا ضاع شيء من التشريع الإلهي .

وتفصيلا لهذا الاستدلال[2] نقول إن كل رسول يأتي قومه ليبلغ شرائع الله وأحكامه ، يحتاج غالبا في إثبات رسالته إلى كتاب من الله تعالى تقوم به الحجة على تلك الأمة التي أرسل إليها ، حتى يؤمنوا به ويصدقوه ويتبعوه ويعملوا بما جاءهم به ، كما أن التشريع الإلهي يستلزم وجود كتاب يحويه ويتضمنه ويثبت فيه ليبقى بعد وفاة الرسول شرعا محفوظا تعمل به الأجيال إلى المدى الذي حدد له بنسخه برسالة أخرى أو نسخ بعض ما جاء فيه ، كما حصل مع نسخ بعض أحكام التوراة بالإنجيل ، ثم نسخهما معا بكتاب الله الخاتم ورسالته الأخيرة وهي القرآن الكريم ، ولولا بقاء الكتاب بعد الرسول الذي جاء به لضاع الدين أو ضاع أكثره ولتعلل بعض الناس بذلك واحتجوا به ، والله سبحانه إنما بعث الرسل لئلا يكون للناس حجة أصلا ، كما قال سبحانه : ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾[النساء:١٦٥] .

---

(١) ومن المهم أن نشير إلى توقف كثير من مقدمات الدليل المذكور على إثبات وجود الأنبياء وصدقهم وحاجة العباد الضرورية إليهم ، وهو ما سنتكلم عنه إن شاء الله في الركن القادم من أركان الإيمان .

(٢) انظر أبو بكر جابر الجزائري : عقيدة المؤمن ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ .

الكتب الإلهية الواجب الإيمان بها

يدل ظاهر عدد من آيات القرآن الكريم على أن جل الرسل قد بعثوا إلى أقوامهم ومعهم كتاب فيه وحي الله إلى تلك الأقوام ، ومن تلك الآيات قوله تعالى ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[الحديد: ٢٥] وقوله سبحانه : ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[البقرة: ٢١٣] وقد بلغ الرسل جميعا رسالات الله سبحانه وامتدحهم الله على صنيعهم هذا فقال : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ [الأحزاب:٣٩].

لكننا مع ذلك لا نعلم تحديدا عدد الكتب التي أوحاها الله إلى رسله ولا أسماء كل كتاب منها ، والمصدر الوحيد الذي يصح الرجوع إليه في معرفة الكتب الإلهية بالتفصيل هو القرآن الكريم ، لأنه الكتاب الوحيد المحفوظ حفظا قاطعا فلا يتطرق إليه الزيادة ولا النقص ولا التحريف ولا التبديل بحال من الأحوال .

والكتب السماوية التي ورد ذكرها في القرآن هي بحسب ترتيبها التاريخي :

١ – **صحف إبراهيم** عليه السلام، وقد جاءت الإشارة إليها في موضعين من كتاب الله تعالى وهما قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۝ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ [الأعلى:١٨، ١٩] وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ۝ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم:٣٦ ، ٣٧] كما جاء في

الحديث أنه (ﷺ) قال : " أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان و أنزلت التوراة لست مضت من رمضان ، و أنزل الإنجيل لثلاث عشرة مضت من رمضان ، و أنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان ، و أنزل القرآن لأربع و عشرين خلت من رمضان "[1] .

وأما مضمون هذه الصحف ، فلا نعرف عنها الكثير سوى ما ورد في الآيات السابقة من إشارة إلى شيء مما تضمنته ، وكلها من المعاني التي اتفقت عليها سائر الرسالات السماوية ، كذلك ورد في حديث لا يصح إسناده نوع تفصيل لما ورد فيها ، ونص هذا الحديث أن أبا ذر رضي الله عنه قال " قلت يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : كانت أمثالا كلها ، أيها الملك المسلط المبتلى المغرور ، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم ، فإني لا أردها وإن كانت من كافر ، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوبا على عقله أن يكون له ساعات ، فساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها في صنع الله عز وجل وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب "[2] .

٢- **التوراة** وهي كتاب الله الذي أوحاه إلى موسى عليه السلام ، وقد تكرر ذكرها في القرآن الكريم بعدة أسماء أو أوصاف ، منها التوراة وهي أكثر الأسماء ورودا ، حيث تكرر ذكره في القرآن ثماني عشرة مرة مقرونا بالقرآن أو الإنجيل أو مستقلا بالذكر ، ومن ذلك مثلا قوله تعالى ﴿ نَزَّلَ

(١) رواه الطبراني وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١٤٩٧ .

(٢) رواه ابن حبان ١ / ٨١ حديث رقم (٣٦١) وانظر كنز العمال حديث رقم (٤٤١٥٨) وقد حكم الشيخ الألباني على هذا الحديث بأنه ضعيف جدا ، كما في ضعيف الترغيب والترهيب (١٣٥٢)

عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران:٣] وقوله تعالى

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾[المائدة:٦٨].

ومن الأسماء الأخرى التي أطلقت على التوراة : الكتاب والفرقان كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:٥٣] والذكر كما في قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥] وكتاب موسى كما في قوله تعالى :﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧] وصحف موسى – والظاهر أنها هي التوراة – كما في قوله تعالى :﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ۞ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ [الأعلى:١٨، ١٩] .

٣– الزبور : وهو كتاب الله الذي أوحاه إلى داود عليه السلام وقد ورد ذكره في كتاب الله في ثلاثة مواضع ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾[النساء: ١٦٣] وقوله ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾[الإسراء: ٥٥] وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ[1] مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥]

---

(١) ومن المهم أن ننبه إلى خلاف المفسرين في تفسير المراد بالزبور في هذه الآية وهل هو الكتاب الذي أوحي إلى داود عليه السلام ام هو جنس الكتب المنزلة من الله تعالى إلى أنبيائه ورسله انظر تفسير القرطبي ١١ / ٣٤٩ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٥ / ٣٩٧ ، وتفسير ابن كثير ٣ / ٢٠٢ .

٤ – الإنجيل : وهو كتاب الله الذي أنزله على عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام ، وقد ورد ذكره في القرآن في اثني عشر موضعا ، جاء مقرونا بالتوراة في معظمها ، ومن ذلك قوله تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ آل عمران" وقوله تعالى " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ [المائدة: ٦٨] .

٥ – القرآن الكريم : وهو كتاب الله الخاتم ووحيه الأخير إلى أهل الأرض الذي أنزله على عبده ورسوله محمد (ﷺ) ، وجعله ناسخا ومهيمنا على ما سبقه من الكتب ، وقد سماه الله تعالى ووصفه بأعظم الأسماء وأجل الصفات ، مما يضيق المقام عن ذكره تفصيلا ، فقد سمي بالقرآن والكتاب والفرقان والذكر وغير ذلك .

وأما الصفات التي وصف بها فهي تأتي " لتعبر عن أمور معينة يمتاز بها القرآن عن غيره من صور الكلام فهناك صفات تكشف عن حقيقة القرآن وأخرى تحدد تركيبه ، وثالثة تبين مدى صدقه ، ورابعة تصف سمو بيانه وخامسة تصف إرشاده للعباد ، وسادسة تعبر عن بركته ، فأما لغة القرآن فإنه نص عربي وهو في إعجازه أحسن الحديث ، وأما حقيقته فهي أنه كتاب وتنزيل ووحي وصحف مطهرة وروح ، وأما صدقه فهو أنه حق ولا ريب فيه وأنه برهان محكم وحكيم وغير ذي عوج وأنه مصدق لما بين يديه وهو قيم ومهيمن وأما من حيث البيان فهو فرقان ونور وهدى ومبين ويهدي إلى الرشد وآيات بينات ، وأما من حيث أنه يرشد فهو موعظة وبصائر وذكر وتذكرة ، وأما من حيث اليمن والبركة فإنه رحمة وشفاء ومبارك وبشرى ويبشر المؤمنين "[1]

(١) د. تمام حسان : البيان في روائع القرآن ص ٤٦٩ .

ومن اليسير على كل قارىء لكتاب الله تعالى أن يقف على أكثر من ثلاثين وصفا للقرآن[1] منها أنه هدى ، وموعظة ، ورحمة ، ولاريب فيه ، ومصدق وذكر ، وذكرى ، وتذكرة ، وعربي ، ومحكم وحكيم وحق و مبين وقيم وغير ذي عوج وتنزيل وفرقان وأحسن الحديث ونور وشفاء وبصائر ومبارك وروح ومهيمن وبرهان ومبارك ٠

موقف المسلم من الكتب السماوية السابقة

وقبل أن نخوض تفصيلا في هذه المسألة نود أن نشير إلى أننا حينما نتكلم عن موقف المؤمن من أي قضية أو مسألة عقدية فإننا نقصد بذلك موقفه المنطلق والمؤسس وفقا لما تقتضيه الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة ، غاضين الطرف عن أية مواقف أو آراء أخرى لا تلتزم بذلك المنهج ، ومن ثم نطرح جانبا تلك المواقف المبنية على الهوى والعاطفة أو الصادرة عن ضغوط الواقع البئيس الذي يعيشه العالم الإسلامي اليوم والتي تؤدي بأصحابها إلى تبني المنهج الدفاعي بكل ما يترتب عليه من أخطاء منهجية خطيرة مثل لي أعناق النصوص وتأويلها لتوافق ما يريدون الوصول إليه من آراء أو الجبن عن التصريح بما تقتضيه الأدلة الشرعية خوفا من هذا الهاجس أو ذاك ٠

وإذا تأملنا نصوص القرآن والسنة كي نقف على ركائز الموقف الصحيح الذي يجب أن يعتقده المسلم تجاه الكتب السماوية السابقة على نزول القرآن الكريم – ونعني بذلك في المقام الأول التوراة والإنجيل لأنهما الكتابان الموجودان حتى يومنا هذا – فيمكننا أن نخلص بالأمور التالية :

(١) المصدر السابق ص ٤٦٩ ٠

١- يجب على المؤمن أن يصدق تصديقا جازما بهذين الكتابين وبسائر ما أنزل الله على رسله من كتب ورسالات ، معتقدا أنها - بصورتها الصحيحة قبل أن تلحقها أيدي المحرفين والمبدلين - وحي الله وكلامه ، وأنها نزلت نورا وهدى للناس كي تخرجهم من الظلمات إلى النور ، وأنها تضمنت المعتقد الصحيح عن الله ورسله واليوم الآخر وغير ذلك من أصول الاعتقاد وإخلاص العبادة الله وحده وتنزيهه عن النقائص والمعائب وكل ما يخل بكماله وجلاله .

٢- ويؤمن المسلم أيضا بأن كتب الله ورسالاته - في صورتها الصحيحة قبل التحريف والتبديل - يصدق بعضها بعضا ولا تختلف أو تتعارض في أي أصل من أصول الاعتقاد ومكارم الأخلاق وكليات الدين وجانب الإخبار عن الحوادث السابقة أو اللاحقة .

وقد وصف الله القرآن بأنه نزل مصدقا لما بين يديه من الكتب السابقة فقال سبحانه : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران : ٣] وجعل ذلك حجة على من كفر من أهل الكتاب بالقرآن إذ كيف يكفرون بكتاب نزل مصدقا لما عندهم من الحق ، فقال سبحانه ﴿ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ [البقرة : ٤١] وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ [النساء : ٤٧] والإنجيل أيضا جاء مصدقا للتوراة كما قال الله تعالى عن عيسى عليه السلام ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ

يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة : ٤٦]

٣- وقد أمر الله سبحانه الأقوام الذين أرسلت إليهم الكتب السماوية السابقة بطاعة رسلهم ، والحكم بما أنزل الله عليهم في تلك الكتب من أوامر وتشريعات وتكرر أمر الرسل لأقوامهم بعبادة الله وتقواه وطاعة الرسل كما حكى الله عنهم قولهم ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء:١٠٨] وقال نوح عليه السلام ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾[نوح : ٣] وقال عيسى عليه السلام: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[آل عمران : ٥٠]

كما أمر أهل التوراة والإنجيل بالعمل بما فيهما ، واتباعهما ، وتحكيمهما في أمور حياتهم ، فقال سبحانه عن التوراة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾[المائدة : ٤٤] وقال عن الإنجيل ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة:٤٧] وقال سبحانه عن أهل الكتابين من اليهود والنصارى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة : ٦٦] .

٤- لكن من المهم أن نعلم أن وجوب اتباع كل سماوي من الكتاب السابقة والعمل بما تضمنه من أحكام يظل مستمرا حتى يأتي كتاب آخر ينسخ الكتاب السابق جملة أو ينسخ بعض ما فيه من أحكام ·

والنسخ بين الشرائع أو داخل الشريعة الواحدة أمر واقع لا يستطيع منصف أن ينكره ، فقد أحل الله لآدم تزويج بناته من بنيه ثم نسخ هذا ، والجمع بين الأختين في الزواج كان جائزا وفعله يعقوب عليه السلام ثم نسخ ، وسائر الأطعمة كانت حلالا لبني اسرائيل إلا ما حرم يعقوب عليه السلام على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ، كما قال تعالى ﴿ **كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاً لِبَنِى إِسْرَاءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَاءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ** ﴾[آل عمران:٩٣] ثم جاءت التوراة فحرمت على بني اسرائيل أنواعا عديدة من الأطعمة كما قال تعالى ﴿ **فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً** ﴾ [سورة النساء : ١٦٠] وقال سبحانه ﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**) [سورة الأنعام : ١٤٦] وعندما جاء عيسى عليه السلام أحل لبني اسرائيل بعض ما كان محرما عليهم كما قال تعالى مخبرا عنه : ﴿ **وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** ﴾[سورة آل عمران : ٥٠]

وبنزول كتاب الله الخاتم ورسالته الأخيرة إلى أهل الأرض - القرآن الكريم - نسخت الكتب والشرائع السابقة كلها ، وجاء هذا الكتاب مهيمنا على كل ما تقدمه من الكتب كما قال تعالى : ﴿ **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً**

لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عليه ﴾ [المائدة : ٤٨] وقال سبحانه ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧]

وبذلك تعين على كل من بلغه القرآن وسمع بدعوة المصطفى (ﷺ)أن يتبع القرآن ويعمل بما فيه وإلا فالنار عاقبته وهو من الخاسرين كما قال تعالى﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥] وقال النبي (ﷺ) " والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة – أي أمة الدعوة وهم البشرية كلها – يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار "(١) وثبت أن عمر بن الخطاب أتى النبي (ﷺ) بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب فقرأه النبي صلى الله عليه وسلم فغضب فقال " أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليه وسلم كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني "(٢) .

أما من آمن بنبيه الذي أرسل إليه ثم آمن بالنبي (ﷺ) حينما سمع بدعوته فله أجران كما قال (ﷺ) في خطابه لهرقل عظيم الروم " أسلم تسلم يؤتك الله

(١) رواه مسلم (١٥٣) وأحمد (٢٧٤٢٠).
(٢) رواه أحمد (١٤٧٣٦) والدارمي (٤٣٥).

أجرك مرتين "[1] وقال أيضا " ثلاثة لهم أجران رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد (ﷺ) والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران ثم قال عامر أعطيناكها بغير شيء قد كان يركب فيما دونها إلى المدينة "[2] .

٥- وأخيرا فإن على المسلم أن يجزم بأن القرآن هو كتاب الله الوحيد المحفوظ حفظا تاما والموجود بين أيدينا الآن أما سائر الكتب السماوية الأخرى فإما أنها فقدت بالكلية ولم يصلنا منها شيء – باستثناء ما ذكره القرآن عنها – كصحف إبراهيم وإما أنها وصلت إلينا لكن أيدي التحريف والتزوير والتبديل قد امتدت إليها بحيث صارت مختلفة تماما عن الصورة الأولى التي كانت عليها .

وهناك الكثير من الدراسات التي كتبها باحثون مسلمون وغير مسلمين – حتى من اليهود والنصارى أنفسهم – في إثبات تحريف التوراة والإنجيل بما يغنينا عن الإطالة في هذا الأمر وقد أخبر الله وأخبر رسوله صلى الله عليه وسلم عن تحريف اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل سواء بكتمان البعض منها أو تحريفه عن مواضعه أو اختلاق كلام أو أحكام بشرية ونسبتها إلى الله تعالى .

ومن أدلة القرآن على هذا الأمر قوله تعالى ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾[النساء:٤٦]وقوله تعالى ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا

(١) رواه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣).

(٢) رواه البخاري (٥٠٨٣) ومسلم (١٥٤).

ذُكِّرُوا بِهِ﴾[المائدة: ١٣] وقوله سبحانه ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾[المائدة: من الآية٤١] وقوله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٨]

وثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن اليهود جاءوا إلى رسول الله (ﷺ) فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله (ﷺ) " ما تجدون في التوراة في شأن الرجم فقالوا نفضحهم ويجلدون فقال عبد الله بن سلام كذبتم إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها فقال له عبد الله بن سلام ارفع يدك فرفع يده فإذا فيها آية الرجم فقالوا صدق يا محمد فيها آية الرجم فأمر بهما رسول الله (ﷺ) فرجما قال عبد الله فرأيت الرجل يجنأ – أي ينحني ليقيها ويحميها – على المرأة يقيها الحجارة "(١) .

كذلك يثبت النظر المنصف في متن التوراة والإنجيل الموجودين بين أيدينا الآن أنهما تعرضا لكثير من التحريف والتبديل حيث تضمنا نصوصا يقطع كل منصف استحالة صدورها عن الله سبحانه أو عن رسله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم نظرا لما فيها من نسبة القبائح إلى الله أو إلى رسله صلوات الله وسلامه عليهم أو اشتمالها على الخرافات والأساطير التي أثبتت حقائق العلم التجريبي وأدلة العقل والبداهة بطلانها وكذبها وتناقضها أو إيرادها لأخطاء تاريخية تتناقض مع ما ذكرته تلك الكتب نفسها في مواضع أخرى أو تتعارض مع الحقائق التاريخية الثابتة .

(١) رواه البخاري (٣٦٣٥ ، ٤٥٥٦) ومسلم (١١٩٩).

وأخيرا يبقى سؤالان مهمان ربما تطرقا إلى الأذهان بعد كل ما أسلفناه من أدلة على تطرق التحريف إلى التوراة والإنجيل ، السؤال الأول : أنه إذا كان التحريف في التوراة والإنجيل ثابتا ثبوتا حقيقيا لا ريب فيه بنص القرآن من جهة ، وبالأدلة الحسية من جهة أخرى ، فما معنى أن القرآن جاء مصدقا لما تقدمه من الكتب الإلهية ؟

والجواب هو أن معنى ذلك " أن القرآن جاء مؤيدا للحق الذي ورد فيها من عبادة الله وحده ، والإيمان برسله ، والتصديق بالجزاء ، ورعاية الحق والعدل والتخلق بالأخلاق الصالحة ، وهو في الوقت ذاته مهيمنا عليها ومبينا ما وقع فيها من أخطاء وأغلاط وتحريف وتصحيف وتغيير وتبديل ، وإذا انتفت هذه الأخطاء التي أدخلها رجال الدين على الكتب السماوية وزوروها على الناس باسم الله ظهر الحق واستبان والتقى القرآن مع التوراة والإنجيل ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[المائدة: ٦٨] وإقامتهما لا تتحقق إلا بعد تطهيرهما من الزيف "(١) .

وأما السؤال الثاني فهو عن كيفية التعامل مع نصوص التوراة والإنجيل الموجودين بين أيدينا الآن ، مع علمنا الجازم بما طرأ عليهما من تحريف وتغيير ، وهل يقبل ما فيهما كله ، أم يرفض كله ، أم يقبل البعض ويرفض البعض ، وعلى أي أساس يتم ذلك ؟

والجواب هو أن نصوص التوراة والإنجيل الموجودة الآن تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

---

(١) السيد سابق : العقائد الإسلامية ص١٤٩ .

الأول : ما علمنا بطلانه وكذبه وتحريفه لمصادمته الصريحة لما ثبت في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولتضمنه نسبة القبائح إلى الله أو إلى رسوله ، أو ذكر شيء من الخرافات والأساطير التي يقطع الحس والعقل والبداهة ببطلانها ، وهذا النوع لا يجوز أن يقال إنه من كلام الله الذي أوحاه إلى موسى أو عيسى عليهما السلام ، كما لا تجوز حكايته وذكره إلا مقرونا بالتفنيد والرد ٠

الثاني : ما علمنا صحته لموافقته للكتاب أو السنة ، وهذا النوع يجوز قبوله وحكايته ، لكن يتوقف في نسبته إلى الله تعالى نظرا لأن نسبة الخبر إلى الله أو رسله يتوقف على ثبوت السند وصحة المتن ، وهذا النوع رغم صحة متنه إلا أن انقطاع أسانيد التوراة والإنجيل عموما واضطرابها يوجب على المسلم الاحتياط إذا أراد نسبة شيء منها إلى الله تعالى ٠

الثالث : ما هو مسكوت عنه في الكتاب والسنة ، فلا نستطيع أن نجزم بصدقه أو بكذبه ، وهذا النوع لا يمكن تصديقه أو تكذيبه ، كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم الآية "[1] .

أما نقل هذا النوع الثالث وحكايته ، فقد اختلف العلماء في ذلك وذهب ابن تيمية ، وتابعه ابن كثير إلى أننا لا نؤمن به ولا نكذبه ، وتجوز حكايته " وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني ، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيرا ، ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك ، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعدتهم ، وعصا

(١) رواه البخاري (٤٤٨٥ ، ٧٣٦٢)٠

موسى من أي الشجر كانت ، وأسماء الطيور التي أحياهـا الله لإبـراهيم ، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة ، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى ، إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن ، مما لا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم ولا دينهم "[1] .

مقارنة بين الكتب والرسالات السماوية

تقدم معنا أن الإيمان بالكتب والرسالات ركن أساسي من أركان عقيـدة المؤمن وأن من الواجب على المكلف أن يؤمن برسالات الله جميعـا دونمـا تفرقة بين رسالة وأخرى ، فكل هذه الرسالات وحي من الله ونـور وهـدى للناس ، لكن هذا الاتفاق بين الكتب والرسالات من حيث مصدرها ووجـوب الإيمان بها لا ينفي وجود تفاوت أو اختلاف بينها في أمور أخـرى ، ولـذا فسوف نحاول فيما يلي أن نعقد مقارنة سريعة بين جوانب الاتفاق والاختلاف في الرسالات السماوية[2] .

١ – مصدرها والمقصد من إنزالها :

تتفق الكتب والرسالات جميعا في مصدرها وأصلها فهـي كـلام الله ووحيه إلى أهل الأرض ، والله سبحانه هو منزلها والمتكلم بها ، كمـا قـال سـبحانه :﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾[آل عمران:٣]

(١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١٣ / ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، وانظر ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ١ / ٥ .

(٢) وراجع تفصيلا مهما لهذه المسألة عند د. عمر سليمان الأشقر في كتابـه : الرسـل والرسالات ص ٢٣٥ – ٢٥٦ .

وقال تعالى ﴿ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ﴾[الشورى: ١٥] كما تضاف هذه الكتب إلى الله ﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾[البقرة: ٢٨٥]

كذلك تتفق جميع الكتب والرسالات في المقصد أو الغاية من إنزالها ، فقد أنزلها الله سبحانه لتكون هدى للناس ورحمة ، وروحا ونورا يحيي النفوس وينيرها ويرشد العقول ويهذب النفوس ، ولتصير منهجا لحياة البشر الذين يعيشون في هذه الأرض ، تقودهم بما فيها من تعاليم وتوجيهات وهداية .

وقد بينت آيات سورة المائدة في سياق واحد المقصد من إنزال التوراة والإنجيل والقرآن وهي أعظم الكتب المنزلة من عند الله حيث قال سبحانه ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ثم قال سبحانه ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة : ٤٦- ٤٨]

ويخلص المتدبر لهذه الآيات – كما يقول صاحب الظلال – إلى أن كل دين نزل من عند الله فإنما جاء " ليكون منهج حياة ، منهج حياة واقعية جاء الدين ليتولى قيادة الحياة البشرية وتنظيمها وتوجيهها وصيانتها ، ولم يجيء دين من عند الله ليكون عقيدة في الضمير ، ولا ليكون مجرد شعائر تعبدية تؤدى في الهيكل والمحراب ، فهذه وتلك – على ضروريتهما للحياة البشرية وأهميتهما في تربية الضمير البشري – لا يكفيان وحدهما لقيادة الحياة وتنظيمها وتوجيهها وصيانتها ما لم يقم على أساسهما منهج ونظام وشريعة تطبق عمليا في حياة الناس ويؤخذ الناس بها بحكم القانون والسلطان ويؤاخذ الناس على مخالفتها ويؤخذون بالعقوبات........ من اجل هذا جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة وسواء جاء هذا الدين لقرية من القرى أو لأمة من الأمم أو للبشرية كافة في جميع أجيالها ، فقد جاء ومعه شريعة معينة تحكم واقع الحياة إلى جانب العقيدة التي تنشيء التصور الصحيح للحياة إلى جانب الشعائر التعبدية التي تربط القلوب بالله ، وكانت هذه الجوانب الثلاثة هي قوام دين الله حيثما جاء دين من عند الله ، لأن الحياة البشرية لا تصلح ولا تستقيم إلا حين يكون دين الله هو منهج الحياة "[1] .

٢– عمومها وخصوصها .

اتسمت الرسالات السماوية السابقة بأنها رسالات خاصة نزلت لأقوام بأعيانهم ، وفي فترة زمنية معينة ، وكانت كل رسالة تنسخ بالرسالة التي تليها نسخا كليا أو جزئيا ، بينما جاءت الرسالة الخاتمة التي أنزلت على رسول الله (ﷺ) رسالة عامة وشاملة وخاتمة تشمل البشرية جميعا منذ بعثته (ﷺ) إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ٢ / ٨٩٥ ، ٨٩٦ .

وقد ثبت عن النبي (ﷺ) أنه قال " قال أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة "[1] كما يدل على عموم رسالته (ﷺ)قول الله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] وقوله سبحانه ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[الأعراف:١٥٨] وقوله تعالى (لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)[الأنعام: ١٩] وقول النبي (ﷺ) " والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار "[2] .

وقد ترتب على عموم رسالة الإسلام مقارنة بالرسالات السابقة أنها جاءت شاملة وكاملة وصالحة لمخاطبة الإنسان وتلبية احتياجاته في كل زمان وكان ، وجاءت مفصلة لكل شيء يحتاجه المكلفون ، كما قال تعالى ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[النحل: ٨٩] وما ذاك إلا لأنها الرسالة الخاتمة التي أكمل الله بها الدين وأتم النعمة وارتضاها لعباده ، فقال سبحانه ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسلامَ دِيناً ﴾[المائدة: ٣]

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥ ، ٤٣٨) ومسلم (٥٢١ ، ٥٢٣).

(٢) رواه مسلم (١٥٣) وأحمد (٢٧٤٢٠).

٣- حفظ الرسالات

تختلف الكتب والرسالات السماوية السابقة عن القرآن في أنها كانت مرهونة بوقت وزمان معينين ولأمم خاصة ، وقد أوكل الله تعالى حفظها إلى علماء تلك الأمة ، كما كان الحال في التوراة التي وكل الله الربانيين والأحبار بحفظها كما قال سبحانه ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾[المائدة:٤٤] لكن هؤلاء الربانيين والأحبار ضيعوا الأمانة وفرطوا فيها وبدلوا وغيروا في كتبهم وتقولوا على الله ما تقشعر الجلود لسماعه .

وأما القرآن كتاب الله الخاتم فلم يكل الله حفظه للبشر وإنما تكفل سبحانه بحفظه فقال سبحانه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] وقد يسر سبحانه هذا القرآن للذكر فقال:﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧] وهيأ له الألوف المؤلفة من الرجال والنساء والكبار والصغار الذين حفظوا هذا القرآن بحيث لا يخرمون منه حرفا ، وهذا كله فضلا عن ملايين المصاحف المطبوعة والشرائط المسموعة ، وقد تطور الأمر كثيرا في هذا العصر نتيجة الابتكارات العلمية الهائلة بما كان لا يخطر على بال أحد من قبل وتعددت وسائل حفظ القرآن بوسائل كثيرة ومتنوعة .

٤- مضمونها ومواضع الاتفاق والاختلاف بينها

تتفق الرسالات التي أنزلها الله تعالى على رسله في أنها جاءت لتعريف العباد بربهم وإرشادهم إلى دين الله الحق وصراطه المستقيم ، وهو الاسلام بمعناه العام أي الاستسلام والانقياد والطاعة لله وتلقي أوامره بالقبول

والامتثال ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإسلام ﴾[آل عمران: ١٩] وأخبر عن جل الرسل وأقوامهم أنهم كانوا من المسلمين ، فنوح عليه السلام يقول لقومه ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[يونس: ٧٢] وإبراهيم عليه السلام أمره ربه أن يسلم فأسلم كما قال تعالى ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[البقرة: ١٣١] .

وقد وصى إبراهيم ويعقوب أبناءهما بالإسلام﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢] وقد أجاب أبناء يعقوب أباهم فقالوا ﴿ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[البقرة:١٣٣] وموسى عليه السلام قال لقومه ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾[يونس:٨٤] " والحواريون قالوا لعيسى عليه السلام﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ٥٢] وحينما استمع فريق من أهل الكتاب للقرآن قالوا ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٣]

ولما كانت الرسالات جميعا إنما أنزلت لتحقيق الإسلام فقد اتفقت في جانب العقيدة وكليات الدين وقواعده العامة والإخبار عن الأمور الماضية والمستقبلة واختلفت في جانب الشرائع والتكاليف ، كما قال النبي صلى الله " الأنبياء إخوة من علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد "[1] والعلات – كما ذكر الحافظ في الفتح[2]– الضرائر ، وأولاد العلات الإخوة من الأب

(١) رواه البخاري (٣٤٤٣) ومسلم (٢٣٦٥)

(٢) انظر ابن حجر : فتح الباري ٦ / ٤٨٩ .

ومعنى الحديث أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد ، وإن اختلفت فروع الشرائع ·

وبناء على ذلك نجد أن جوهر دعوة الرسالات السماوية والمقصد الأساسي لها هو الدعوة إلى عبادة الله وحده ، وإفراده بالشعائر والنسك ، والكفر بكل ما يعبد من دونه من الأنداد والشركاء ، وقد عرض القرآن لهذه القضية وأكدها في مواضع متعددة ، وأما الاختلاف فهو في جانب الأحكام العملية التفصيلية والتي قد تختلف من دين لآخر أو من شريعة لأخرى ·

ثمرات الإيمان بالكتب والرسالات

ولا شك أن الإيمان بالكتب والرسالات يثمر ثمرات جليلة في قلب المؤمن وعقله وسلوكه ، إضافة إلى كونه أحد أركان الإيمان التي لا تصح عقيدة المكلف إلا بتحقيقها ، ومن تلك الثمرات(١):

١- العلم بعناية الله تعالى بعباده ، حيث أنزل لكل قوم كتابا أو نبيا يهديهم به كما قال سبحانه ﴿ **وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ** ﴾[فاطر:٢٤] ولم يترك سبحانه البشر كي يسيروا بمقتضى أهوائهم أو عقولهم أو ما تتعارف عليه كل أمة منهم مما يؤدي حتما إلى الفرقة والاختلاف والضلال ، كما قال سبحانه :﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ** ﴾[البقرة: ٢١٣]

٢- العلم بحكمة الله تعالى في شرعه حيث شرع لكل قوم ما يناسب أحوالهم كما قال تعالى ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً** ﴾[المائدة:٤٨] فكل رسالة جاءت لتناسب البشر في وقت نزولها ، حتى ختمت برسالة المصطفى (ﷺ) ·

(١) انظر الشيخ ابن عثيمين : شرح أصول الإيمان ضمن مجموع الرسائل والمتون العلمية ٣ / ٩١ ، وأحمد فريد : الثمرات الزكية ص ١٦٩ ·

٣ – شكر نعمة الله على إنزال الكتب وما تضمنته من الهداية والرشاد ، فمن رحمة الله أن تفضل على بني آدم وكرمهم أعظم تكريم ، حيث أنزل عليهم كتبا اشتملت على كلامه سبحانه ، ونزل بها أفضل ملائكته وهو أمين الوحي جبريل على أفضل خلقه وهم الأنبياء والرسل ·

٤– الاهتمام البالغ بالعقيدة وتوحيد الله سبحانه وغرس ذلك في القلوب والعقول ، وجعل هذه القضية هي نقطة الانطلاق لإصلاح الأمة وتغيير أحوال المسلمين وتقديمها على سائر القضايا الأخرى ، إذ إن الكتب السماوية جميعا ورسالات الأنبياء والرسل قد جاءت ابتداء لتقرر هذا الأمر ، ولتجعله مفتاح دعوتها وغرضها الأساسي وما من رسول إلا قال لقومه اعبدوا الله ما لكم من إله غيره كما قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥]·

٤ – الرد على دعاة فصل الدين عن الدولة ، أو فصل الدين عن الحياة بشتى جوانبها أو المكتفين بالعقل والمغترين به ، ممن ظنوا أن في استطاعة العقل البشري أن يستقل بنفسه في الإدراك التفصيلي لكل ما يحقق سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة ، إذ لو كان الأمر كذلك ما أنزل الله رسالاته على العباد تترى لتخبرهم بما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، وقد تضمنت كل هذه الرسالات أحكاما تخص أمور الحياة وجوانبها المختلفة ·

وفي ظني أننا لا نجافي الصواب إذا قلنا إنه لا يتصور أن يرسل الله رسولا بكتاب منزل لا يتضمن سوى مجموعة من الآداب والأخلاقيات ، دون أن تقترن بتشريع جديد ، وحتى إذا نظرنا إلى الإنجيل فسوف نجد أنه جاء مصدقا ومتبعا لما في التوراة وما فيها من تشريعات وأحكام في الأعم الأغلب ، وإن نسخ بعض ما فيها من أحكام ، وأحل شيئا مما فيها من محرمات ، كما قال تعالى ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠]·

الفصل الرابع

الإيمان بالرسل

والإيمان بالأنبياء والرسل هو الركن الرابع من أركان الإيمان وأصول العقيدة التي لا يصح إيمان المكلف إلا إذا حققها على وجهها الصحيح ، والمقصود بهذا الركن هو التصديق الجازم بأن لله أنبياء ورسلا ، اصطفاهم من بين عباده وارتضاهم لحمل دينه ، وخصهم برسالاته ، وقد أدوا جميعا الأمانة ، ونصحوا لأممهم ، وأقاموا عليهم الحجة ، وبلغوا رسالات ربهم ، دون أن يكتموا أو يغيروا أو يبدلوا منها شيئا[1] كما قال سبحانه ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾[النساء:١٦٥] وقال تعالى ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ)[البقرة: ٢١٣] وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل:٣٦]

ولا يصح إيمان المكلف بالرسل إلا إذا حقق أمورا أربعة ، وهي[2]:

---

(١) انظر حافظ حكمي : معارج القبول ٢ / ٥٩ ، وعبد العزيز السلمان : الأسئلة والأجوبة الأصولية ص ٢٦ ، ٢٧ ، وأبو بكر الجزائري : عقيدة المؤمن ص ٢٨٠ ، ومحمد قطب : ركائز الإيمان ص ٢٢٣ ، وصالح بن فوزان : الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد ص ٩٣ ، وسيد عبد الغني : العقيدة الصافية ص ١١١ .

(٢) انظر ابن عثيمين : شرح أصول الإيمان ص ٩٤ ، ٩٥ ، ود. عمر الأشقر : نحو ثقافة إسلامية أصيلة ص ١١٩ ، ١٢٠ .

أولا : الإيمان بأن رسالة الرسل جميعا حق من الله تعالى ، فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر بالجميع ، كما قال الله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء:١٠٥] فجعلهم الله مكذبين لجميع الرسل ، مع أنه لم يأتهم رسول سوى نوح ﷺ، وعلى هذا فمن كذب رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فهو مكذب لرسالة سائر الرسل ، حتى لو زعم أنه مصدق برسالة موسى أو عيسى عليهما السلام ، وقد قال الله سبحانه ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥] وقال النبي (ﷺ) " والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به ، إلا كان من أصحاب النار "[١] .

ثانيا : الإيمان التفصيلي بمن علمنا اسمه منهم ، وهم خمسة وعشرون نبيا ورسولا ، وأما من لم نعلم اسمه منهم فنؤمن به إجمالاً كما قال تعالى: ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾[النساء: ١٦٤]

ثالثا : تصديق ما صح من أخبارهم ، ونقل إلينا من معجزاتهم ، بشرط أن يرد ذلك بطريق معتبر .

رابعا : العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم ، وهو خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم المرسل إلى جميع الناس ، قال الله تعالى: ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء:٦٥]

---

(١) رواه مسلم (١٥٣) وأحمد في المسند (٢٧٣٠١ ، ٢٧٤٢٠)

وقد استفاضت نصوص القرآن والسنة في بيان وجوب الإيمان بأنبياء الله ورسله أجمعين ، وعد ذلك من أصول الاعتقاد ، والحكم بضلال وكفر من كذب بالرسل ، أو شكك في نبوتهم ، أو آمن ببعضهم وكفر ببعض ، قال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥] وقال تعالى ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾[آل عمران: ١٧٩] وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾[النساء: ١٣٦]وقال تعالى ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٨٤] وقال النبي (ﷺ) " الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر "[١] .

وتجمع آيات القرآن بين مدح المؤمنين بالرسل ، وتحذير الكافرين بهم ، فالمؤمنون بالرسل لهم الجنة ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾[الحديد:٢١] وسوف يؤتيهم الله أجورهم كاملة ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء:١٥٢] وهم من الصديقين ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ [الحديد:١٩].

(١) رواه البخاري (٥٠ ، ٤٧٧٧) ومسلم (٩ ، ١٠).

كما حذر سبحانه من الكفر بالرسل ، وجعل ذلك من الضلال البعيد ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾[النساء: ١٣٦] وعدو الرسل والملائكة هو عدو لله سبحانه ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة:٩٨]ولا فرق بين الكفر بالرسل جميعا أو الكفر برسول واحد ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء:١٥٠، ١٥١]

ومن المهم أن ننبه إلى وجود علاقة وثيقة بين الإيمان بالأنبياء والرسل وبين توحيد الله وسائر أركان العقيدة[1]، ويتضح لنا ذلك إذا عرفنا أن أساس الدين هو إثبات النبوة ، وأن كل شي من الدين يعتبر فرعاً عن إثبات النبوة ، فالإيمان بالقرآن الذي هو كلام الله – تبارك وتعالى – متفرع عن الإيمان بنبوة مُحَمَّد صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ، ولهذا كَانَ كفار قريش يجادلون النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه ليس بنبي ليتوصلوا بذلك إلى الطعن في القرآن ، لأن من أنكر نبوة مُحَمَّد صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو طعن فيها ، فقد طعن في القُرْآن وطعن في الإسلام ، وهكذا فإن إثبات نبوته (ﷺ) هو نقطة المنطلق للإيمان بكل ما جاء به الإسلام سواء في باب العقائد أو الأحكام أو غير ذلك .

(١) انظر ابن تيمية : شرح العقيدة الأصفهانية ص ١٩٥ ، و محمد قطب : دراسات قرآنية ص ٩١ ، وركائز الإيمان ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، و د. سفر الحوالي : شرح العقيدة الطحاوية (النبوة) ص ١ ، ٢ .

وكل من آمن بأسماء الله وصفاته التي اتصف بها سبحانه من العلم والحكمة والرحمة ، يعلم يقينا ضرورة إرسال الرسل ، ومن شك في ذلك أو أنكره فلم يقدر الله حق قدره[1]، كما قال سبحانه ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]

والمتأمل للآية السابقة يرى أن الله سبحانه يخبر " أن من جحد أن يكون قد أرسل رسله وأنزل كتبه ، لم يقدره حق قدره ، وأنه نسبه إلى ما لا يليق به ، بل يتعالى ويتنزه عنه ، فإن في ذلك إنكار دينه وإلهيته وملكه وحكمته ورحمته والظن السيئ به أنه خلق خلقه عبثا باطلا وأنه خلاهم سدى مهملا ، وهذا ينافي كماله المقدس ، وهو متعال عن كل ما ينافي كماله ، فمن أنكر كلامه وتكليمه وإرساله الرسل إلى خلقه فما قدره حق قدره ، ولا عرفه حق معرفته ، ولا عظمه حق عظمته ...... ولذلك كان جحد نبوة خاتم أنبيائه ورسله ، وإنزال كتبه وتكذيبه ، إنكارا للرب تعالى في الحقيقة وجحودا له ، فلا يمكن الإقرار بربوبيته وإلهيته وملكه ، بل ولا بوجوده ، مع تكذيب محمد بن عبد الله (ﷺ)"[2] .

---

(١) انظر ابن القيم : هداية الحيارى ص ١٨٨ ، ود . عمر الأشقر : الرسل والرسالات ص ١٦ .

(٢) بن القيم : هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص ١٨٨ .

مفهوم النبي والرسول وتحرير الفرق بينهما

والنبي في اللغة مشتق من النبأ وهو الخبر ، وإنما سمي النبي بذلك لأنه مُخْبِر عن الله ، كما قال تعالى ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر:٤٩] وقال سبحانه ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحجر:٥١] وهو أيضا يتلقى الخبر من الله ، كما في قوله تعالى ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾[التحريم: ٣] وقيل إن النبوة مشتقة من النبوة ، وهي ما ارتفع وعلا من الأرض ، وإنما سمي النبي بذلك لعلو قدره ، وعظيم مكانته ، وارتفاعه في الفضل على سائر الخلق[1] .

والرسول لغة : هو من أرسل برسالة أو وجه في مهمة ، كما قال تعالى حكاية عن ملكة سبأ ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:٣٥] ويطلق الرسول في اللغة أيضا على الذي يُتابع أخبار الذي بعثه ، أخذاً من قولهم جاءت الإبل رَسَلاً أي متتابعة[2]، وكما قال تعالى ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾[المؤمنون:٤٤] .

(١) انظر مادة (نبأ ، ونبو) عند ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ٥ / ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، والرازي : مختار الصحاح ص ٢٦٨ ، وابن منظور : لسان العرب ١ / ١٦٢ ، ١٦٣ ، والقرطبي : الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام ص ٢٣٧ ، وابن القيم : الصواعق المرسلة ٢ / ٧٥٠ ، ود عمر الأشقر : الرسل والرسالات ص ١٣ .

(٢) انظر مادة (رسل) عند ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ٢ / ٣٩٢ ، والرازي : مختار الصحاح ص ١٠٢ ، وابن منظور : لسان العرب ١١ / ٢٨١ - ٢٨٤ .

أما معنى النبي والرسول اصطلاحا ، فهو مترتب على تحرير الفرق بينهما ونود أن نشير إلى أن هذا الموضوع ليس ذا أهمية كبرى للمؤمن ، ما دام يؤمن بالله وأنبيائه ورسله أجمعين ، ويعلم أن الله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص: ٦٨]وهو سبحانه ﴿ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾[الحج: ٧٥] ويمن على من يشاء بمرتبة الرسالة ، ويمن على من يشاء بمرتبة النبوة ، ومع ذلك فقد تناولت أكثر كتب العقيدة هذه المسألة[1]فلا ضير من التعرض لها .

وقد اختلف أهل العلم على قولين رئيسين في هذه المسألة ، فهناك قلة من العلماء رأت أنه لا فرق بين النبي والرسول ، وأن كل نبي رسول ، وكل رسول نبي ، وأما جماهير أهل العلم فقد مالوا إلى التفرقة بين النبي والرسول ، وأن الرسول أعم من النبي ، فكل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولا ، وقولهم هذا هو الأرجح لقوة الأدلة التي اعتمدوا عليها ، ومنها قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الحج: ٥٢] ووجه الدلالة في هذه الآية هو العطف بالواو للفظ النبي على لفظ الرسول ، ومن المعروف في اللغة أن الواو تقتضي المغايرة ، كذلك ثبت في السنة أنه (ﷺ) أخبر أن عدد الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر ، بينما ذكر أن عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي .

---

(١) انظر عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٣٣٢ ، وابن تيمية : النبوات ص ١٨٤ ومجموع الفتاوى ١٠ /٢٩٠ ، وتفسير القرطبي ١٢ / ٨٠ ، وتفسير ابن كثير ٣ / ٤٩٤ وابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ١ / ١٥٥ . ١٥٦ ، والشوكاني : فتح القدير ٤٦١ ، وحافظ حكمي : معارج القبول ٢ / ٥٩ ، وحسن أيوب : تبسيط العقائد الإسلامية ص ١٥٦– ١٥٨ ، وعبد الرحمن الهرفي : الفرق بين النبي والرسول ص ٤ – ١٨ .

ثم إن القائلين بالتفرقة بين النبي والرسل قد اختلفوا في تحديد الفرق بينهما على عدة أقوال ، وهي :

الأول : أن النبي من أوحي إليه ولم يؤمر بالبلاغ ، والرسول من أوحي إليه وأمر بالبلاغ .

الثاني : النبي من بعث بواسطة جبرائيل — عليه السلام — والنبي من بعث مناما ، وهذا القول هو أضعف الأقوال .

الثالث : أن الرسول من بعث لقوم مخالفين ، والنبي من أرسل لقوم موافقين .

الرابع : أن الرسول من أوحي إليه بشرع جديد ، والنبي من بعث مجددا لشرع من قبله من الرسل .

وثمة اعتراضات كثيرة وجهت لكل قول من هذه الأقوال ، ويضيق بنا المقام هنا عن ذكرها ومناقشتها تفصيلا ، ويبقى أن نشير إلى ما نظن أنه القول الأرجح[1] وهو أن الرسول من أرسل إلى قوم مخالفين أو كافرين ، وأمر أن يدعو الناس إلى شرع معه ، وكذبه بعض قومه وخاصموه ، وهو مأمور بالتبليغ والإنذار ، وقد يكون معه كتاب — وهو الأقرب — وقد لا يكون ، وقد يكون شرعه جديدا وقد يكون مكملا لشرع سابق — أي فيه زيادة ونسخ ، أما النبي فهو من أوحي إليه ، وبعث في قوم مؤمنين محكومين بشريعة سابقة له ، وهو مأمور بالتبليغ والإنذار ، والدعوة إلى الشريعة السابقة وإحيائها .

---

(١) انظر ابن تيمية النبوات ص ١٨٤ ، ١٨٥ ، ومجموع الفتاوى ١٨ / ٧ ، والألباني : سلسلة الاحاديث الصحيحة (٢٦٦٨) وعبد الرحمن الهرفي : الفرق بين النبي والرسول ص ١٩ و د. سفر الحوالي : شرح العقيدة الطحاوية (النبوة) ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ود عمر الأشقر : الرسل والرسالات ص ١٤ ، ١٥ .

ووفقا لهذا المفهوم فإن آدم عليه السلام نبي وليس رسولا ، ونوح عليه السلام هو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض ، كذلك فإن إسماعيل عليه السلام رسول كما قال تعالى ﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا ﴾ [مريم:٥٤] رغم أنه لم ينزل عليه كتاب مستقل ، ويوسف أيضا رسول كما يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾[غافر: ٣٤]رغم أنه كان على شريعة أبيه يعقوب عليهما السلام .

النبوة والرسالة هبة ربانية[١]

ومما له صلة مهمة بقضية تعريف النبي والرسول أن نشير إلى جانب أساسي في حقيقة النبوة ، وهو أنها هبة ربانية ، وفضل إلهي ، وليست نتيجة كسب بشري أو سعي إنساني ، كما أن النبوة لا تنال بمجرد التشهي والرغبة ولا بالمجاهدة والمعاناة[٢]مثلما زعم بعض الفلاسفة ممن جهلوا أن النبوة

---

(١) انظر في تفصيل الكلام عن هذه المسألة :- الآمدي : غاية المرام ص ٣١٧ ، وابن تيمية : النبوات ١٧٩ - ١٨١ ، وابن القيم : الصواعق المرسلة ٢ / ٧٥٩ ، ٣/ ٨٢٢ ، ٨٨٠ ، والسفاريني : العقيدة السفارينية ص ٨٣ ومحمد بن سلوم : مختصر لوامع الأنوار البهية ص ٤٥٣ ، وابن عثيمين : شرح السفارينية ص ٤٦٤- ٤٦٦ ، وحافظ أحمد حكمي : معارج القبول ١ / ٣٠٧ ، وأبو بكر الجزائري : عقيدة المؤمن ص ٢٦٩ ، ود عمر الأشقر : الرسل والرسالات ص ٥٩ ، ٦٠ ، ومحمد قطب : ركائز الإيمان ص ٢٢٦- ٢٣٠ ، وحسن أيوب : تبسيط العقائد الإسلامية ص ١٦١ ، ود. آمنة نصير : مباحث في علوم العقيدة ص ٢٢٢ .

(٢) انظر محمد بن سلوم : مختصر لوامع الأنوار البهية ص٤٥٣ ، ود عمر الأشقر : الرسل والرسالات ص ٥٩ .

ليست " مذهبا فلسفيا ينال بالتفكر والتأمل ، ونضج الملكة العقليـــة ، وبـــذل الجهد في تحصيل المعارف والعلوم الإنسانية ، وإنعام النظـــر فيهـــا بالنقـــد والتقويم ، وليست النبوة – كذلك – خبرة تجريبية مكتســـبة ، كتلـــك التـــي يحصل عليها أصحاب التخصص في الجوانب التطبيقية العملية ، ثم إن النبوة ليست ثمرة خيال متوقد ولا شعور متوهج ، ولا أثرا من آثـــار العبقريـــة ، ولا غوصا في أعماق الشعور واللاشعور ، إنها ليست شيئا من ذلك كله ولا أثرا لشيء من ذلك كله ، وإنما هي اصطفاء واجتباء من الله عز وجل لهؤلاء الصفوة الذين يختارهم الله لحمل أمانته وتبليغ رسالته "[1] .

وصحيح أن كل ما يقع للبشر في حياتهم هو بتقدير الله ، وكل موهبـــة توهب لهم في ذات أنفسهم أو فيما بين أيديهم هي من عند الله ، لكن مع ذلك فقد قدر الله أن يكون للإنسان جانب من الكسب في كلَّ ذلك ، وأعطاه القدرة على المعرفة ، ووهب له ذكاء يتفاوت من شخص إلى شـــخص ، ومنحـــه طاقات مختلفة ، ثم كلّفه أن يعمل ، ويستطيع الإنسان بتحصيله الشخصي أن ينمي ما وهب الله له من مواهب ، فيستطيع مثلاً أن ينمي قوتـــه الجســـدية بالرياضة البدنية والتدريب فيصبح قوي الجسم ، ويستطيع أن ينمـــي قوتـــه الذهنية بالتدريبات العقلية وتعلم العلم وإمعان الفكـــر ، فيســـتنبط ويكتشـــف ويخترع ويدبّر ويخطط وكل هذه الأعمال هي في أصلها موهبة مـــن الله ، وهي فيما تنتهي إليه كسب يكسبه البشر بجهد يبذلونه ، وتحصيل يكدون فيه ويكدحون[2] .

أما الرسالة والنبوة فموهبة من الله ذات طبيعة مختلفة ، ولا يدَ للإنسان فيها ولا كسب ولا اختيار ، إنما هي اصطفاء خالص من جانب الله ﷻ لعبد من عباده ، يجتبيه وينعم عليه ويبعثه بالهدايـــة إلـــى النـــاس ، ولا يوجـــد عمل معين يعمله الإنسان من جانبه فيرتقي به إلى مرتبة النبوة ، ولو أنفـــق

---

(1) د . عبد الحميد مدكور : دراسات في العقيدة الإسلامية ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(2) انظر محمد قطب : ركائز الإيمان ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

عمره كله فيه ! وإذا كان الإنسان يستطيع بالجهد والكسب أن يكون بطلا مغوارا ، أو عاملا فذا ، أو طبيبا ماهرا ، أو شاعرا مجيدا ، فإنه لا يستطيع بأي جهد يبذله أن يكون نبياً ولا رسولاً ، ولكن الله يصطفيه فيكون[1]!

وقد استفاضت آيات القرآن في التأكيد على معنى الاصطفاء والاجتباء في حق الأنبياء والرسل ، فقال تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣] وقال تعالى ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل:٥٩] وقال تعالى ﴿ وإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٧] وقال تعالى ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج:٧٥] وقال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾[مريم: ٥٨] وقال تعالى (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)[الأنعام: ١٢٤] وقالت الرسل لأقوامهم ﴿ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[إبراهيم:١١]

الرسل والأنبياء الواجب الإيمان بهم[2] .

أوجب الله على عباده أن يؤمنوا بجميع رسله وأنبيائه ، وجاء الأمر بذلك على سبيل العموم ، كما في قوله تعالى ﴿ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾[البقرة: ٢٨٥] وقال تعالى ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢٧ .

(٢) انظر في الكلام عن هذه المسألة تفصيلا عند حافظ حكمي : معارج القبول ٢ /٦٠ ، ٦١ ، والسيد سابق : العقائد الإسلامية ص ١٥٢- ١٥٥ ، وأبو بكر الجزائري : عقيدة المؤمن ص ٢٧٤- ٢٧٩ ، وحسن أيوب : تبسيط العقائد الإسلامية ص ١٥٨- ١٦١ ، ود. آمنة نصير : مباحث في علوم العقيدة ص ٢٢٦- ٢٣٣ .

وَرُسُلِهِ﴾[النساء: ١٧١] وقد حرم الله سبحانه التفرقة بين الرسل في الإيمان ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ البقرة ٢٨٥ وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء:١٥٢] وجعل سبحانه ذلك من الكفر والضلال ، فقال تعالى﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ [النساء:١٥٠]

ومن خلال الآيات المذكورة آنفا وغيرها يتبين لنا أن المسلم مطالب بأن يؤمن بأنبياء الله ورسله أجمعين ، سواء علم أعيانهم وتفاصيل أعدادهم وأسمائهم ، أم لم يعلم ذلك ، وأن هذا الإيمان الإجمالي لابد أن يصحبه إيمان تفصيلي آخر بكل من سمى الله في كتابه أو سمى رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته الصحيحة من الأنبياء والرسل ٠

ولا شك أن الأنبياء الرسل جم غفير وأن عددهم كبير جدا ، ويدل على ذلك نصوص الكتاب والسنة ، ومنها أن الله سبحانه قضى برحمته وعدله ألا يعذب أمة أو فردا إلا إذا بعث فيهم رسولا ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[الإسراء: ١٥] ويترتب على ذلك عدم وجود أمة أو قوم لم يبعث إليهم نذير أو هاد كما قال تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[فاطر: ٢٤] وقال تعالى﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[الرعد: ٧] وإذا كان عدد الأمم والأقوام كبيرا جدا ، فكذلك الحال فيما يخص عدد الأنبياء والرسل ٠

وقد ورد في السنة تصريح بعدد الأنبياء والرسل ، وذلك فيما رواه أحمد في مسنده عن أبي ذر ، أنه سأل رسول الله (ﷺ) فقال : كم المرسلون ؟ فقال

(ﷺ) : " ثلاث مائة وبضعة عشر جما غفيرا "[1] وفي رواية أخرى سئل (ﷺ) عن عدد الأنبياء فذكر أنهم مائة وأربعة وعشرون ألفا[2].

ولم يذكر الله لنا سبحانه أسماء هؤلاء الأنبياء والرسل وأخبارهم تفصيلا ، بل منهم من قص علينا خبره ومنهم لم يقص علينا خبره ، كما قال تعالى ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾[النساء: ١٦٤]وقال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[غافر:٧٨].

والأنبياء والرسل المذكورون في القرآن الكريم خمسة وعشرون ، منهم ثمانية عشر ورد ذكرهم تباعا في سياق واحد في سورة الأنعام ، وذلك في قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۞ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٨٣- ٨٦] ويبقى سبعة رسل وأنبياء ذكروا في مواضع متفرقة من كتاب الله تعالى ، وهم (آدم ، وهود ، وصالح وشعيب ، وإسماعيل ، وإدريس ، وذو الكفل ، ومحمد) عليهم جميعا الصلاة والسلام .

---

(١) رواه أحمد (٢١٠٣٦ ، ٢١٠٤٢) والحاكم في المستدرك ٢ / ٢٨٨ ، وصححه الالباني في مشكاة المصابيح (٥٧٣٧) والسلسلة الصحيحة (٢٦٦٨) والأرنؤوط في التعليق على زاد المعاد ١ / ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) رواه أحمد (٢١٧٨٥) وحكم عليه الألباني بأنه صحيح لغيره كما في السلسلة الصحيحة (٢٦٦٨) .

وهناك عدد من الصالحين ممن اختلف في كونهم من الأنبياء أم لا[1]ومنهم الخضر ، وهو العبد الصالح الذي رحل إليه موسى عليه السلام ليطلب منه علماً وورد ذكر قصتهما في سورة الكهف ، وقد اختلف أهل العلم في نبوته ، فمنهم من أثبتها ومنهم من نفاها ، لكن المتأمل لسياق قصته يجزم أنه نبي لا سيما مع قوله تعالى ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ [الكهف:٦٥] وقوله ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾[الكهف: ٨٢] وقول الخضر لموسى كما في الحديث الوارد في الصحيحين " يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت ، وأنت على علم علمكه لا أعلمه "[2] .

وممن اختلف في نبوته أيضا ذو القرنين ، وقد ورد ذكر قصته في سورة الكهف ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ [الكهف:٨٣] والقول الأرجح هو التوقف في إثبات نبوته لقوله (ﷺ) " ما أدري تبع ألعينا كان أم لا ؟ و ما أدري ذا القرنين أنبيا كان أم لا ؟ "[3] .

ومع وجوب الإيمان بجميع الأنبياء والرسل وحرمة التفرقة بينهم ، فلا مانع من المفاضلة بينهم على الوجه الوارد في النصوص الشرعية ، ودون أن يفهم من ذلك أي نوع من الانتقاص للمفضول أو التعصب لنبي دون

---

(١) انظر د عمر الأشقر : الرسل والرسالات ص ٢١ – ٢٤ .

(٢) رواه البخاري (١٢٢ ، ٣٤٠١) ومسلم (٢٣٨٠)

(٣) رواه أبو داود (٤٦٧٤) والحاكم ٢/ ١٧ ، والبيهقي ٨ /٣٢٩ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٥٢٤) وفي صحيح أبي داود .

آخر[1]، والدليل على جواز المفاضلة بين الأنبياء والرسل هو قوله تعالى ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾[البقرة: ٢٥٣]. وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾[الإسراء: ٥٥]

أما التفضيل الذي ينبئ عن العصبية أو المفاخرة أو الإزراء ببعض الأنبياء فهو ممنوع ، وعلى ذلك يتنزل ما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : بينما يهودي يعرض سلعته أعطي بها شيئا كرهه ، فقال : لا والذي اصطفى موسى على البشر ، فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم وجهه وقال : تقول والذي اصطفى موسى على البشر ، والنبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، فذهب إليه فقال أبا القاسم إن لي ذمة وعهدا فما بال فلان لطم وجهي ، فقال لم لطمت وجهه ؟ فذكره ، فغضب النبي (ﷺ) حتى رئي في وجهه ثم قال : لا تفضلوا بين أنبياء الله ، فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث ، فإذا موسى آخذ بالعرش ، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أم بعث قبلي ، ولا أقول إن أحدا أفضل من يونس بن متى [2] .

وأفضل الرسل هم الخمسة أولو العزم ، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم جميعا صلوات الله وسلامه ، وهم المذكورون في قوله

(١) انظر ابن حجر : فتح الباري ٦ / ٤٤٦ ، وابن تيمية : مجموع الفتاوى ٢ / ٢٢٣ – ٢٢٤ ، وابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ١ / ١٥٨– ١٦٤ ، ود. سفر الحوالي : شرح العقيدة الطحاوية ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

(٢) رواه البخاري (٣٤١٥) ومسلم (٢٣٧٣)

تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾[الأحزاب:٧] وفي قوله تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى:١٣] وقد سموا بذلك لصبرهم وجهادهم في الدعوة إلى الله وتبليغ دينه ، ولذا أمر الله رسوله (ﷺ) بالاقتداء بهم والتأسي بصبرهم وجهادهم في الدعوة إلى الله ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾[الأحقاف: ٣٥]

وأفضل الرسل والأنبياء على الإطلاق ، وإمامهم وقائدهم وسيدهم جميعا هو رسولنا محمد (ﷺ) القائل " أنا سيد الناس يوم القيامة "[1] والقائل (ﷺ) " أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر ، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر "[2] وقد أرسله ربه " بالهدى ودين الحق بين يدى الساعة بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، فختم به الرسالة وهدى به من الضلالة ، وعلم به من الجهالة ، وفتح برسالته أعينا عميا وآذنا صما وقلوبا غلفا ، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها ، وتألفت بها القلوب بعد شتاتها ، فأقام بها الملة العوجاء ، وأوضح بها المحجة البيضاء ، وشرح له صدره ، ووضع عنه وزره ، ورفع ذكره ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره ، أرسله على حين فترة من الرسل ودروس من الكتب ، حين

(١) رواه البخاري (٣٣٤٠) ومسلم (١٩٤).
(٢) رواه مسلم (٢٢٧٨) والترمذي (٣٦١٥).

حرف الكلم ، وبدلت الشرائع ، واستند كل قوم إلى أظلم آرائهم ، وحكموا على الله وبين عباده بمقالاتهم الفاسدة وأهوائهم ، فهدى الله به الخلائق ، وأوضح به الطريق ، وأخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وأبصر به من العمى وأرشد به من الغي ، وجعله قسيم الجنة والنار ، وفرق ما بين الأبرار والفجار وجعل الهدى والفلاح في اتباعه وموافقته ، والضلال والشقاء في معصيته ومخالفته ، وامتحن به الخلائق في قبورهم ، فهم في القبور عنه مسؤولون ، وبه ممتحنون "[1] .

وقد ختم الله بنبيه ورسوله محمد (ﷺ) باب الرسالة والنبوة ، فكل من ادعى النبوة بعده فهو كافر ضال مضل ، مخالف لما قطعت به نصوص الكتاب والسنة وأجمعت عليه الأمة ، حيث قال تعالى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب:٤٠] وقال (ﷺ) " إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ، قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين "[2] وفي حديث الشفاعة الطويل يذهب الناس إلى رسول الله (ﷺ) فيقولون " يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه "[3] .

ورغم وضوح هذه الأدلة لقد ظهر دجالون كثيرون في القديم والحديث ، من أمثال الأسود العنسي ، ومسيلمة الكذاب ، وأئمة القاديانية والبهائية وغيرهم ، و هؤلاء جميعا زعموا أنهم أنبياء ، وقد أخبر (ﷺ) بذلك فقال "

(١) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ١٩ / ١٠٢ ، ١٠٣ .
(٢) رواه البخاري (٣٥٣٥) ومسلم (٢٢٨٦).
(٣) رواه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤).

لا تقوم الساعة حتى يقتتل فئتان ، فيكون بينهما مقتلة عظيمة ، دعواهما واحدة ولا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريبا من ثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله "[1] .

وظائف الرسل والمقصد من إرسالهم .

تعددت نصوص القرآن والسنة التي تبين المراد من بعثة الرسل ، والمقصد الذي أرسلهم الله تعالى من أجله ، ويمكننا إجمال ذلك فيما يلي[2]:-

١- الدعوة إلى عبادة الله وحده ، وتوحيده ، ومعرفته بأسمائه وصفاته ، ونبذ الأوثان والشركاء وسائر ما يعبد من دون الله تعالى ، وهذا الأمر هو زبدة الرسالات الإلهية وغايتها ، وقطب رحاها وعمدتها ، وكلها ترتكز عليه وتستند في وجودها إليه ، وتبتديء منه وتنتهي إليه ، كما أنه يمثل نقطة الصراع الأساسية وميدان المعركة الأول بين الرسل وأنبيائهم ، وحول هذا الموضوع دارت جهود الأنبياء ودعوتهم ، ومن أجله حاربوا وسالموا ، وأحبوا وأبغضوا ، وأوذوا وعودوا[3].

---

(١) رواه البخاري (٣٦٠٩ ، ٧١٢١) ومسلم (١٥٧)

(٢) انظر في الكلام عن هذا الموضوع تفصيلا محمد عبده : رسالة التوحيد ص ٩٥ ، والسيد سابق : العقائد الإسلامية ص ١٥٧ ، ١٥٨ ، وحسن أيوب : تبسيط العقائد الإسلامية ص ١٦٧- ١٧٠ ، ود٠عبد اللطيف العبد : رد مزاعم المبطلين عن أصول الدين ص ٣٣ ، ود٠ آمنة نصير : مباحث في علوم العقيدة ص ٢٣٦- ٢٤٠ ، ود٠ عمر الأشقر : الرسل والرسالات ص ٤٣ - ٥٥ ، ووليد بن راشد : إتحاف أهل الألباب بمعرفة التوحيد والعقيدة في سؤال وجواب ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، وأركان الإيمان ص ٥١ - ٥٣ .

(٣) انظر ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ٢ / ٥٦٩ ، وعبد الرحمن بن حسن : فتح المجيد ص ٢٥ ، ٢٦ ، ود٠ محمد خليل هراس : دعوة التوحيد ص ٧ ، ٩ ، وفهد بن سلمان العوده : كيف علم الأنبياء لا إله إلا الله ص ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٤ .

وقد أخبر الله في كتابه أنه بعث الرسل والأنبياء جميعا لبيان هذا الأمر وتحقيقه ، كما قال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل: ٣٦] وتتفق دعوة الأنبياء جميعا أنها تبتديء بهذه الجملة ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[هود: ٨٤] وقد تكررت على لسان كل نبي ورسول كما قال سبحانه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]

٢- البلاغ المبين ، فقد جعل الله الرسل حملة وحيه ، وسفراءه إلى عباده وأمرهم بتبليغ دين الله إلى الناس ، وعد سبحانه ذلك بمثابة الوظيفة الأساسية للرسل جميعا حيث قال سبحانه ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[النحل: ٣٥] وقال سبحانه ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة:٩٩] وقال سبحانه ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور:٥٤] وقالت الرسل لأقوامهم ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [يس:١٧]

وقد أمر الله رسوله (ﷺ) وسائر الرسل بتبليغ دين الله فقال سبحانه﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٦٧] وحذر سبحانه من عدم تبليغ رسالاته فقال ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً ۝ إِلَّا بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾[الجن:٢٢، ٢٣] ومدح الله من يبلغون

رسالاته ، ولا يخشون لومة لائـم ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ [الأحزاب:٣٩]

وبلاغ الرسل لدين الله يكون أولا بتلاوة النصوص التي أوحاها الله من غير نقصان ولا زيادة ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾[العنكبوت: ٤٥] ولا يستطيع أي رسول أن يقول شيئا من عنده أو يتقول على الله وإلا أصابه العذاب الشديد ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ وثمة نـوع آخـر للبلاغ وهو التبيين والتفصيل والتوضيح ، لأن الرسول هو الأقدر على بيان مراد الله من وحيه ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[النحل:٤٤]

٣- إخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلـى الهـدى ، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم ، وهذه الوظيفة هي مهمة كل نبي ورسـول أرسله الله تعالى إلى قومه ، كما قال تعالى عن موسـى ﷺ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥] وقال تعالى مخاطبا نبيه (ﷺ) ﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١] وقال سبحانه ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد:٩] وقال تعالى ﴿ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُـؤْمِنْ بِاللَّـهِ

وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴾ [الطلاق:١١] .

ويلتحق بهذه المهمة تقويم الأفكار المنحرفة والعقائد الزائفة ، فكل رسول أو نبي بعث إلى قومه كان يدعوهم إلى الصراط المستقيم وعبادة الله وحده ، ثم يعنى على وجه الخصوص بنوع الانحراف الشائع في قومه ، ولهذا وجدنا هودا عليه السلام ينكر على قومه الاستعلاء في الأرض والتجبر فيها ، وصالحا ﷺ ينكر على قومه الإفساد في الأرض واتباع المفسدين ، ولوطا عليه السلام يحارب جريمة اللواط التي استشرت في قومه ، وشعيبا عليه السلام يحارب جريمة التطفيف في المكيال والميزان .

٤- تزكية النفوس وإصلاحها ، فمن رحمة الله بعباده أن أرسل إليهم رسلا وأنزل معهم وحيا وكتبا ليحيوا موات القلوب ، ولينيروا ظلام النفوس ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢] ومن منن الله على المؤمنين أن أرسل إليهم رسولا يعلمهم ويزكي نفوسهم كما قال تعالى ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤]

وقد جعل الله سبحانه تزكية النفوس من أعظم وظائف الرسل ، بل إن المتأمل لسيرة الرسل يجد أن الله سبحانه إنما " بعثهم لهذه التزكية ، وولاهم إياها وجعلها على أيديهم دعوة وتعليما وبيانا وإرشادا لا خلقا ولا إلهاما ، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم ، قال الله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ

رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة:٢] وقال تعالى ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٥١] وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد ، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجيء بها الرسل فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه ، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب ، فالرسل أطباء القلوب ، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم وبمحض الانقياد والتسليم لهم "(١) .

٥- إقامة الحجة وإزالة المعاذير ، فلا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى ولذا أرسل الأنبياء والرسل ، لئلا يكون للناس على الله حجة ، ولئلا يتعللوا بذلك يوم القيامة ، وقد قال سبحانه ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [النساء:١٦٥] وقال النبي (ﷺ) " ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل ، من أجل ذلك مدح نفسه ، وليس أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ، وليس أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل "(٢) .

ولو لم يرسل الله الرسل ويبعث الأنبياء لاحتج المشركون يوم القيامة بذلك ولقالوا لربهم سبحانه كيف تعذبنا وتهلكنا ولم يأتنا نبي ولا رسول ، كما قال سبحانه ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا

---

(١) ابن القيم : مدارج السالكين ٢ / ٣١٥ .

(٢) رواه البخاري (٧٤١٦) ومسلم (١٤٩٩ ، ٢٧٦٠).

رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾[طـه:١٣٤] ومعنى الآية أن الله سبحانه لو أهلك هؤلاء المكذبين بعذاب من قبل أن يرسل إليهم رسولا وينزل عليهم كتابًا لقالوا: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا من عندك، فنصدقه ، ونتبع آياتك وشرعك، من قبل أن نَذِلَّ ونَخزى بعذابك[1] .

ولكن المشركين سوف يعترفون في الآخرة بأنهم كاذبون وأن الرسل والنذر قد جاءتهم من ربهم كما قال سبحانه ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۞ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۞ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۞ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [تبارك : ٨ – ١١] وأخبر سبحانه عن جواب خزنة النار حينما يطلب منهم أهل النار دعاء الله بالتخفيف عنهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ۞ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر : ٤٩-٥٠]

٦- ومن مقاصد بعثة الرسل أن يكونوا قدوة حسنة وأسوة صالحة للبشرية جميعا ، ولئلا يحتج الناس أن ما أمروا به من تكاليف خارج عن طاقة البشر ووسعهم ، فها هم الأنبياء مثلهم بشر من لحم ودم ، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، ومع ذلك فقد امتثلوا لأوامر ربهم وأتوا بها على أكمل الوجوه وأحسنها .

---

(١) انظر تفسير الآية في تفسير الطبري ١٦ / ٢٣٨ ، والقرطبي ١١ / ٢٦٤ ، وابن كثير ٣ / ١٧٣ .

وقد أمر الله سبحانه رسوله (ﷺ) والأمة جميعا أن تقتدي بسيرة الأنبياء وهديهم ، فقال سبحانه ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾[الأنعام: ٩٠] وحث الله المؤمنين على الاقتداء بخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ومن معه في ولائهم لله وللمؤمنين ، وبرائهم من الشرك والمشركين فقال سبحانه ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة:٤]

والمتأمل لقصص الأنبياء وسيرتهم يجد فيها ما لا يحصى من مواضع القدوة والأسوة لسائر طبقات المكلفين ولمختلف الصفات والأخلاق ، ففي قصص الأنبياء قدوة للدعاة والمصلحين ، كما هو الحال في قصص سائر الأنبياء وللملوك وللحكام ، كما في قصص داود وسليمان ، وللآباء وللأبناء ، كما في قصة إبراهيم وإسماعيل ، وللشباب ، كما في قصة يوسف عليه السلام وللمبتلين بالمرض والبلاء ، كما في قصة أيوب عليه السلام ، وغير ذلك الكثير .

وأما الاقتداء بنبينا محمد (ﷺ) ، فلا شك أن في سيرته ودعوته وعبادته وخلقه وتعاملاته وجهاده وفتوحاته ، أعظم القدوة وأحسن الأسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، كما قال الله سبحانه ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١]

وكان (ﷺ) حريصا أشد الحرص على أن يقتدي به أصحابه في كل الأمور ، فقال في الصلاة " صلوا كما رأيتموني أصلي "[١] وقال في الحج "خذوا عني مناسكم "[٢] كما تضايق (ﷺ) ممن يتنزه عن الشيء يفعله بحجة أن الرسول قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت صنع النبي (ﷺ) شيئا فرخص فيه ، فتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبي (ﷺ) ، فخطب فحمد الله ثم قال : " ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ، فو الله إني لأعلمهم بالله ، وأشدهم له خشية "[٣] .

وقد امتثل الصحابة رضي الله عنهم لأمر نبيهم ، وتابعوه في كل صغيرة أو كبيرة يفعلها ، حتى في الأمور التي لم يفهموا علتها أو المقصد منها ، ونضرب مثلا لذلك بما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله (ﷺ) اتخذ خاتما من ذهب ، وجعل فصه مما يلي كفه ونقش فيه محمد رسول الله ، فاتخذ الناس مثله ، فلما رآهم قد اتخذوها رمى به وقال لا ألبسه أبدا ، ثم اتخذ خاتما من فضة ، فاتخذ الناس خواتيم الفضة ، قال ابن عمر فلبس الخاتم بعد النبي (ﷺ) أبو بكر ثم عمر ثم عثمان حتى وقع من عثمان في بئر أريس[٤].

وثمة حادثة أخرى يرويها أبو سعيد الخدري رضي الله عنه حيث قال : صلى بنا رسول الله (ﷺ) ذات يوم ، فلما كان في بعض صلاته خلع نعليه فوضعهما عن يساره ، فلما رأى الناس ذلك خلعوا نعالهم ، فلما قضى صلاته قال ما بالكم ألقيتم نعالكم ، قالوا رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا ، فقال

---

(١) رواه البخاري (٦٣١ ، ٦٠٠٨ ، ٧٢٤٦).

(٢) رواه مسلم (١٢٩٧).

(٣) رواه البخاري (٦١٠١ ، ٧٣٠١) ومسلم (٢٣٥٦).

(٤) رواه البخاري (٥٨٦٦، ٥٨٦٧ ، ٥٨٧٣) ومسلم (٢٠٩١).

رسول الله (ﷺ) : إن جبريل أتاني فأخبرني أن فيهما قذرا أو قال أذى فألقيتهما ، فإذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر في نعليه ، فإن رأى فيهما قذرا أو قال أذى ، فليمسحهما وليصل فيهما[1].

٧- ومن وظائف الرسل تحذير أقوامهم من الفتن والشرور وأسباب الهلاك في الدنيا والدنيا ، ودلالتهم على أبواب الخير ومسالك النجاة ، وقد أخبر النبي (ﷺ) أصحابه بهذه الحقيقة ، ففي صحيح مسلم أنه (ﷺ)خطب أصحابه في سفر فقال " إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم ، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها ، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها ، وتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضا ، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي ، ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه هذه ، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه "[2] .

وقد بلغ من حرص الأنبياء على هداية الناس ونصحهم لهم ، والأمانة التامة في تبليغ الرسالة أن حذروا أقوامهم من أنواع من الفتن يعلمون أنها لن تقع إلا آخر الزمان ، وأن من المستبعد جدا أن يدركها أقوامهم ، ويدل على ذلك الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي (ﷺ) قام في الناس ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : " إني أنذركموه ، وما من نبي إلا قد أنذره قومه ، لقد أنذره نوح قومه ولكن سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه ، تعلمون أنه أعور ، وأن الله ليس بأعور "[3] .

---

(١) رواه أحمد (١١٤٦٧) وأبو داود (٦٥٠) وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢٨٤) وفي صحيح سنن أبي داود (٦٥٠).

(٢) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٣) رواه البخاري (٣٠٥٧ ، ٦١٧٣) ومسلم (٢٩٣١).

٨- ومن وظائف الرسل - ولا سيما أفضلهم وخاتمهم نبينا محمد (ﷺ)- الشهادة على الأمم بأن الرسل قد بلغوهم رسالة الله ، وبشروهم وأنـذروهم ، ولم يتركوا خيرا إلا وأرشدوهم إليه ، ولـم يتركـوا شـرا إلا وحـذروهم منه ، وقد أخبر الله سبحانه أنه سوف يبعث من كل أمة شهيدا ، فقال سبحانه ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً ﴾ [النساء:٤١] وقال سـبحانه ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:٨٩] وأخبر سبحانه أن عيسى عليه السلام سوف يكون شهيدا على قومه يوم القيامة ، فقـال سـبحانه ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾ [النساء:١٥٩]

وحينما تسأل الأمم يوم القيامة عن نبيها وهل بلغها أم لا ؟ فإن الكافرين يجحدون ويكذبون ، وحينئذ يشهد رسولنا محمد (ﷺ) وأمته ، ففي صـحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (ﷺ) : " يدعى نوح يوم القيامة ، فيقول لبيك وسعديك يا رب ، فيقول هل بلغت فيقول نعم ، فيقـال لأمته هل بلغكم ؟ فيقولون ما أتانا من نذير ، فيقول من يشهد لك ؟ فيقـول محمد وأمته ، فتشهدون أنه قد بلغ ، ويكون الرسول عليكم شهيدا فذلك قوله جل ذكـره ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾[البقرة:١٤٣] [(١)].

٩- التبشير والإنذار ، وهو من أهم وظائف الرسل ، وأظهر مقاصـد إرسالهم ، ودعوة الرسل تجمع دائما بين هذين الجانبين ، كما قال سـبحانه

(١) رواه البخاري (٤٤٨٧) وأحمد (١٠٨٩١) والترمذي (٢٩٦١)

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[البقرة: ٢١٣] وقال سبحانه ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [النساء:١٦٥] وضرب النبي (ﷺ) مثلا لنفسه ودعوته فقال " إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به ، كمثل رجل أتى قوما ، فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق "(١) .

وتبلغ أهمية التبشير والإنذار في دعوة الرسل إلى الدرجة التي نجد فيها بعض آيات القرآن تقصر الغرض من إرسال الرسل في هذين الأمرين ، كما قال سبحانه في سورة الأنعام ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأنعام:٤٨] وفي سورة الكهف قال سبحانه ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً ﴾ [الكهف:٥٦].

ويجمع تبشير الرسل وإنذارهم بين عالمي الدنيا والآخرة ، فهم في الدنيا يبشرون الطائعين بالحياة الطيبة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧] وبالتمكين والعز والنصر ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا

(١) رواه البخاري (٦٤٨٢ ، ٧٢٨٣) ومسلم (٢٢٨٣).

الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:٥٥]

وأما الإنذار بالعذاب الأخروي فكثير جدا ومنه قول الله تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٤] وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾[الأحزاب: ٣٦] وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾[الجـن: ٢٣]

١٠- ومن وظائف الرسل ومهامهم قيادة أممهم ، وسياسة دنياهم بـدين الله وشرائعه ، فالرسول في قومه هو قائدهم وزعيمهم ، وقاضـيهم ومـدبر سياستهم الدينية والدنيوية ، ولا شك أن من يستجيبون لـدعوة أي نبـي أو رسول يكونون جماعة وأمة ، وهؤلاء يحتاجون إلى من يسوسـهم ويـدبر أمورهم ، والرسل يقومون بهذه المهمة في حال حياتهم •

وقد أوجب الله على قوم كل رسول أن يطيعوه ويتبعوه ، وجعل طاعتهم للرسول جزءا من طاعتهم لله سبحانه ، كما قـال تعـالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾[النساء: ٦٤] كذلك أوجب الله على أنبياء بنـي إسرائيل أن يحكموا بما في التوراة من أحكام وشرائع ، وحذر سبحانه من لم يحكموا شريعته فقال ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة٤٤] وثبت عـن

النبي (ﷺ) أنه قال " كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وإنه لا نبي بعدي "(1) .

والمتأمل لسير كثير من الأنبياء ، ولا سيما من كتب لهم التمكين الكامل أو الجزئي في الأرض ، مثل يوسف وموسى وداود وسليمان عليهم جميعا السلام يجد أنهم كانوا يقودون الجيوش ، ويقسمون الأموال ، ويقضون بين الناس في الخصومات والنزاعات ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٨] ونادى الله داود ﷺ، فقال سبحانه (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[ص: ٢٦]وقاد موسى ﷺ قومه لدخول الأرض المقدسة ، لكنهم نكصوا على أعقابهم وتخاذلوا فقال لهم ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١]

وأما نبينا (ﷺ) فكان إمام الأمة في الصلاة ، وقائدهم في الغزوات ، والقاضي بينهم في الخصومات ، ومن يقسم بينهم الأموال ، وقد أمره الله تعالى أن يحكم بين الناس بما أنزل الله ، كما قال سبحانه ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩]

---

(1) رواه البخاري (٣٤٥٥) ومسلم (١٨٤٢).

ولعل في هذه الآية وما أشبهها رد مفحم على العلمانيين من دعاة فصل الدين عن الحياة أو الدين عن الدولة ، والزاعمين بأنه صلى الله عليه وسلم كان مجرد نبي ورسول ومعلم للناس ، ولم يكن حاكما بينهم ، ولم يؤسس دولة ذات شرائع وأنظمة في كافة مجالات الحياة ، مثلما ادعى ذلك علي عبد الرازق في كتابه الإسلام وأصول الحكم ، وقد ألفت العديد من الكتب في الرد على هذا الكتاب وأمثاله وتفنيد ما فيه من مغالطات وأخطاء[1].

صفات الرسل وما يجوز وما لا يجوز في حقهم

الأنبياء والرسل هم عباد الله المخلصون ، وسفراؤه إلى عباده ، وأمناؤه على دينه وشرعه ، وحملة وحيه ورسالته إلى البشر ، والمكلفون بدعوة البشرية التائهة وردها إلى ربها ومولاها ، ولا شك أن تلك المهام العظيمة تقتضي ألا يقوم بها أي واحد من البشر ، وإنما ينهض بها فقط خاصة الله من خلقه ، الذين صنعهم الله على عينه واصطفاهم لرسالته[2].

وقد تعددت النصوص الشرعية من الكتاب والسنة التي تدل على أن الرسل هم الصفوة المختارة من خلق الله ، والمثل العليا الكاملة للبشرية ،

---

(١) ومن تلك المؤلفات كتاب محمد الخضر حسين : نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، ١٣٤٤ هـ ، ومحمد بخيت المطيعي : حقيقة الإسلام وأصول الحكم ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، ١٣٤٤ هـ ، ود. محمد ضياء الدين الريس : الإسلام والخلافة في العصر الحديث ، نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم ، مكتبة دار التراث ، بدون تاريخ .

(٢) انظر د. آمنة نصير : مباحث في علوم العقيدة ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، و د. عبد الحميد مدكور : دراسات في العقيدة الإسلامية ص ٢٧٣ .

وأن الله تعالى قد حباهم بعظيم الصفات وكريم الشمائل ، ومن ذلك قوله تعالى مخاطبا نبينا (ﷺ) ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور:٤٨] وقال﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] وقال عن إبراهيم ﷺ ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢٠-١٢١] وقال تعالى عن موسى ﷺ ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[طه: ٣٩] وقال سبحانه ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٤٤].

ومدح الله سبحانه عددا من الأنبياء فقال ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ۝ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٥-٤٧] وقال أيضا ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٣] وأخبر النبي (ﷺ) عن نفسه فقال " إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم "[١] .

وسوف نحاول فيما يلي أن نذكر أبرز الصفات التي اتصف بها سائر الرسل عليهم الصلاة والسلام ، كما نشير إلى ما يجوز وما لا يجوز في حقهم من صفات وخصائص :-

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٦) والترمذي (٣٦٠٥)

أ- صفات الرسل عليهم السلام[1] .

١- الصدق والأمانة ، وهما وصفان ضروريان واجبان على كل مسلم ، وهما على الرسل أوجب ، وبدونهما لا يمكن أن يثق العباد في الرسل ، أو في الوحي النازل عليهم ، والدين الذي جاءوا لتبليغه .

وقد تكرر في كتاب الله كثيرا وصف الأنبياء بالصدق والصديقية ، فقال سبحانه مخبرا عما سيقوله الكافرون يوم القيامة ﴿ **قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**﴾ [يس:٥٢] وقال تعالى عن إدريس عليه السلام ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً**﴾ [مريم:٥٦] وقال عن إبراهيم عليه السلام ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً**﴾ [مريم:٤١] وقال عن إسماعيل عليه السلام ﴿ **وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً**﴾ (مريم:٥٤) وأخبر سبحانه عن مقالة امرأة العزيز في حق يوسف عليه السلام(**أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**﴾[يوسف: ٥١] وقال الله عن نبينا محمد (ﷺ) ﴿**وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** ﴾ [الأحزاب:٢٢] وقال تعالى ﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ [الزمر:٣٣]

---

(١) انظر محمد بن سلوم : مختصر لوامع الأنوار البهية ص ٤٥٢ ، ٤٧٠ ، وابن عثيمين : شرح السفارينية ص ٤٦١ - ٤٦٤ ، وأبو بكر الجزائري : عقيدة المؤمن ص ٢٧١ ، ٢٧٢ ، وحسن أيوب : تبسيط العقائد الإسلامية ص ١٦٣- ١٦٦ ، و د . عبد الحميد مدكور : دراسات في العقيدة الإسلامية ص ٢٧٤ - ٢٧٨ ود. آمنة نصير : مباحث في علوم العقيدة ص ٢٥٠- ٢٥٥ .

كذلك تكرر وصف الأنبياء بالأمانة ، وكل رسول كان يأتي إلى قومه يقول لهم ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء:١٢٥] وكل من خالط الرسل وكلمهم أدرك هذه الخصلة بوضوح ، مثلما حدث مع ملك مصر حينما كلم يوسف عليه السلام ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف:٥٤] ومثلما حدث مع بنت الرجل الصالح حينما رأت موسى عليه السلام ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦]

وكان أهل مكة يسمون نبينا (ﷺ) قبل البعثة بالصادق الأمين وروى أحمد في مسنده[1] أن قريشا لما اختلفت فيمن يضع الحجر الأسود في الكعبة ، قالوا اجعلوا بينكم حكما ، قالوا أول رجل يطلع من الفج ، فجاء النبي (ﷺ) فقالوا أتاكم الأمين ، فقالوا له ، فوضعه في ثوب ، ثم دعا بطونهم فأخذوا بنواحيه معه ، فوضعه هو (ﷺ) ، وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله (ﷺ) قال " ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ، يأتيني خبر السماء صباحا ومساء "[2] .

٢- الكمال في الأخلاق ، فرسل الله وأنبياؤه هم أحسن الناس خلقا ، وأطهرهم قلبا ، وأزكاهم نفسا ، وقد مدحهم الله بجميل الصفات وكريم الشيم ، وجعلهم أسوة حسنة وقدوة للبشرية ، فقال سبحانه عن نوح عليه السلام ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾[الإسراء: ٣] وقال عن إبراهيم عليه السلام ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود:٧٥] وقال عنه أيضا ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٥٠٧٨) وصحح شعيب الأرنؤوط إسناده في تحقيقه للمسند .

(٢) رواه البخاري (٤٣٥١) ومسلم (١٠٦٤).

﴿أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:١٢١،١٢٠] وقال عن إسماعيل عليه السلام ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾[مريم: ٥٤] ووصفت ابنة الرجل الصالح موسى عليه السلام فقالت ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[القصص: ٢٦] وأثنى الله على نبيه محمد (ﷺ)أبلغ الثناء فقال سبحانه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] وقال سبحانه ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]

٣- الفطانة ، ويقصد بها التيقظ وحدة العقل والذكاء ، بحيث يتمكن المتصف بها من إلزام المخاطبين ورد دعاويهم الباطلة وإفحام المعاندين ، ومن المعلوم أن الله سبحانه لم يبعث أحدا من الأنبياء إلا وكان على جانب عظيم من النباهة والذكاء ، مع كمال العقل والرشد والحكمة والسداد في الأمر ، وضد الفطنة هو البلادة ، والأنبياء منزهون عن ذلك لمنافاته للمهمة العظيمة التي أرسلوا من أجلها ، والمكانة العظيمة التي خصهم الله بها .

وقد وصف الله أنبياءه بالرشد والحكمة فقال عن إبراهيم عليه السلام ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٥١] وقال عن لوط عليه السلام ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾[الأنبياء: ٧٤] وقال عن داود وسليمان﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾[الأنبياء: ٧٩] وقال عن يحيى عليه السلام ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ [مريم:١٢] وقال عن عيسى عليه السلام ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[المائدة:

١١٠] وقال عن نبينا (ﷺ) (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)[النساء: ١١٣]

٣ – الحرية والذكورة ، فالرسل لا يكونون إلا أحرارا ، وهم منزهون عن الرق لمنافاة ذلك للكمال ، ولحيلولته دون القيام بأعباء النبوة ووظائفها ، ولا يعترض على ذلك بما جرى ليوسف عليه السلام ، فالرق في حقه كان نوعا من الابتلاء وهو أمر طارئ وظلم ممن فعله أو تسبب فيه ، ثم إنه لم يستمر بل أبدله الله به الملك والتمكين في الأرض .

وأما الذكورة فالأنبياء والرسل جميعا كانوا من الرجال ولم يرسل الله نبية من النساء ، ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾[يوسف: ١٠٩] وقوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٤٣]

ولا أظن أن أحدا يجادل في أن طبيعة النبوة شاقة ، وأنها مهمة جسيمة لا تقوى المرأة على حملها ، والنبي مطالب بالجهر بدعوته ، ومخاطبة الرجال والنساء ، ومقابلة الناس في السر والعلانية ، والسفر هنا وهناك ، وقتال الأعداء وقيادة الجيوش ، وكل ذلك مما تعجز النساء عنها ، لا سيما مع ما يعتري النساء من عوارض – كالحيض والنفاس والولادة ورعاية الأبناء – تحول بينها وبين تلك المهام العظام .

٤– وثمة عدد من الصفات والخصائص التي ينفرد بها الأنبياء عن سائر البشر – إضافة لانفرادهم بالوحي والعصمة – ومنها[1] أن الأنبياء تنام

(١) انظر د عمر الأشقر : الرسل والرسالات ص ٩٠ – ٩٣ .

أعينهم ولا تنام قلوبهم ، وأن رؤاهم وحي ، ويدل على ذلك ما ثبت عن أنس في حديث المعراج عند البخاري حيث قال " والنبي (ﷺ) نائمة عيناه ولا ينام قلبه وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم "[١] و صح عن النبي (ﷺ) أنه قال " تنام عيناي ولا ينام قلبي "[٢] .

ومن خصائص الأنبياء أيضا أنهم يخيرون عند الموت ولا يقبر نبي إلا حيث يموت لحديث عائشة أن النبي (ﷺ) قال " ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة ، وكان في شكواه الذي قبض فيه أخذته بحة شديدة فسمعته يقول مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، فعلمت أنه خير "[٣] .

كذلك فإن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء لقوله (ﷺ) " إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء "[٤] كما ثبت عنه (ﷺ) أن " الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون "[٥] وقد رآهم الرسول (ﷺ) ليلة المعراج وهم يصلون .

---

(١) رواه البخاري (٣٥٧٠ ، ٧٥١٧)

(٢) رواه البخاري (١١٤٧ ، ٢٠١٣ ، ٣٥٦٩) ومسلم (٧٣٨)

(٣) رواه البخاري (٤٤٣٥ ، ٤٥٨٦) ومسلم (٢٤٤٤)

(٤) رواه أحمد (١٥٧٢٩) أبو داود (١٠٤٧ ، ١٥٣١) والنسائي (١٣٧٤) وابن ماجه (١٠٨٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٢٧) وصحيح الجامع (٢٢١٢)

(٥) رواه أبو يعلى و البزار وابن عساكر في تاريخ دمشق و ابن عدي في الكامل و البيهقي في " حياة الأنبياء كما في السلسلة الصحيحة (٦٢١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٧٩٠) ومن المهم أن نشير إلى أن الحياة التي أثبتها هذا الحديث للأنبياء عليهم الصلاة و السلام ، انما هي حياة برزخية ، ليست من حياة الدنيا في شيء ، ولا تسرى عليها القوانين الدنيوية ومن ثم فيجب الإيمان بها دون ضرب الأمثال لها و محاولة تكييفها و تشبيهها بما هو المعروف عندنا في حياة الدنيا وانظر السلسلة الصحيحة (٦٢١)

ب- ما يجوز في حق الرسل :

شاء الله سبحانه أن يجعل رسله وحملة دينه إلى عباده من جنس البشر وليسوا من جنس مغاير أو مباين ، كما قال تعالى ﴿ **قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** ﴾[إبراهيم: ١١] وقال تعالى ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ** ﴾[الكهف:١١٠] وقال تعالى ﴿ **قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا** ﴾[الإسراء:٩٣] وإنما كان ذلك لحكم وغايات عظيمة غفل عنها أكثر الكافرين بالرسل الذين اعترضوا على كون الرسل من البشر ، وقد حكى الله مقالتهم تلك في أكثر من موضع من كتابه كما قال سبحانه ﴿ **وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا** ﴾ [الإسراء:٩٤] وقال تعالى ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ** ﴾[الأنعام: ٩١] وقال تعالى ﴿ **فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ** ﴾ [المؤمنون:٢٤] .

ويخرج المتأمل لكتاب الله تعالى بعدد من الحجج وأوجه الحكمة التي يجاب بها على شبهات المعترضين على إرسال الرسل من البشر ومن هذه الحجج[1] أن الله برحمته قد بعث للبشر رسلا وأنبياء من جنسهم وامتن عليهم بذلك ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾ [آل عمران: ١٦٤] حتى يكونوا أقرب إلى حسن مخاطبتهم ، وفهمهم وإفهامهم ، والتعامل معهم والاحتكاك بهم ، والأخذ بأيديهم لإخراجهم من الضلال إلى الهدى ، ومن الكفر إلى الإيمان ، والرسول أو النبي " هو واحد

---

(١) انظر د عمر الأشقر : الرسل والرسالات ص ٦٩ - ٧٣ ، و د . عبد الحميد مدكور : دراسات في العقيدة الإسلامية ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

من البشر ، يحس بإحساسهم ويتذوق بمواجيدهم ، ويعاني تجاربهم ، ويدرك آلامهم وآمالهم ، ويعرف نوازعهم وأشواقهم ، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم .....ومن ثم يعطف على ضعفهم ونقصهم ، ويرجو في قوتهم واستعلائهم ، ويسير بهم خطوة خطوة وهو يفهم ويقدر بواعثهم وتأثراتهم واستجاباتهم ، لأنه في النهاية واحد منهم يرتاد بهم الطريق إلى الله بوحي من الله وعون منه على وعثاء الطريق "[1] .

ومن حكمة الله ورحمته بعباده أنه لا يرسل إلى قوما رسولا إلا إذا كان من جنسهم ويتكلم بلغتهم ، حتى يتحقق معنى البلاغ والبيان ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[إبراهيم: ٤]ولو فرض أن ساكني الأرض من الملائكة ، فلن يكون رسولهم إلا من الملائكة أيضا ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً ۞ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً ﴾ [الإسراء:٩٤ ، ٩٥] ثم إن إرسال رسول من الملائكة إلى البشر غير مجد ، لأن الكافرين لا يرون الملائكة إلا حين الموت أو حين نزول العذاب ، وحينئذ تكون نهاية أمرهم كما قال تعالى ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لا يُنْظَرُونَ ﴾ [الأنعام:٨] وقال سبحانه ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً ﴾ [الفرقان:٢٢] وإذا كان الرسول ملكا فكيف يراه البشر ويتعاملون معه إلا إذا ظهر في صورة بشرية ، وحينئذ سيقول المكابرون إنه بشر وليس ملكا من الملائكة ، كما قال تعالى ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام:٩] .

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ٥ / ٢٥٥٣ .

وخلاصة الأمر أن الأنبياء والرسل من البشر وليسوا من نوع آخر ، ويترتب على ذلك أنهم متصفون بسائر صفات البشر ، وتسري عليهم قوانين البشر وأحكامهم – وكل ذلك بما لا يتنافى مع منزلة النبوة وعظيم مكانتها – وليس فيهم شيء من صفات الألوهية وأحكامها ، مثلما زعم الكافرون في عزير أو عيسى عليهما السلام . وسوف يرد عليهم عيسى زعمهم هذا ، كما قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۞ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة :١١٦، ١١٧]

ومن صفات البشر التي تجوز في حق الأنبياء ، ولا تتعارض مع منزلة النبوة أو الرسالة[1]:-

١- تناول الطعام والشراب ، والمشي في الأسواق ، كما قال سبحانه ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء:٨] وقال تعالى حكاية عن مقال المشركين ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾[الفرقان: ٧] وقال سبحانه ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ

(١) انظر السفاريني : العقيدة السفاريني ص ٨٥ ، ومحمد بن سلوم : مختصر لوامع الأنوار البهية ص ٤٧٢- ٤٧٣ ، وابن عثيمين : شرح العقيدة السفارينية ص ٥٠٧ - ٥١٠ ، والسيد سابق : العقائد الإسلامية ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، ود عمر الأشقر : الرسل والرسالات ص ٦٩-٨٩ ، وحسن أيوب : تبسيط العقائد الإسلامية ص ١٩٧ - ١٩٩ .

الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون:٣٣] وقال تعالى عن عيسى وأمه ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾[المائدة: ٧٥].

٢- والأنبياء مثلهم مثل سائر البشر يتزوجون وينجبون ، ولهم أزواج وذرية كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨]وقال تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴾[مريم: ٥٨]

والأنبياء يموتون ولا يخلدون ، شأنهم في ذلك شأن البشر ، كما قال تعالى﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الانبياء:٣٤] وقال الله سبحانه لنبيه ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠] وقال سبحانه مبينا أن موت الأنبياء والرسل سنة عامة لا تتخلف ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤]

٣- تعرض الأنبياء لأنواع البلاء المختلفة من المرض والتعب والسجن والضرب وما أشبه ذلك ، بل إن الأنبياء هم أشد الناس بلاء ، وقد سئل النبي (ﷺ) عن أشد الناس بلاء فقال " الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على

الأرض ما عليه خطيئة "[1] كما دخل عليه صحابي وهو يوعك ، فقال يا رسول الله إنك لتوعك وعكا شديدا ؟ قال : أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم ، قلت ذلك أن لك أجرين ؟ قال : أجل ذلك كذلك ، ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته ، كما تحط الشجرة ورقها "[2]

وقد قص الله علينا في القرآن ابتلاء إبراهيم عليه السلام بالإلقاء في النيران وبلاء يعقوب عليه السلام بفقد ولده ، ولبث يوسف عليه السلام في السجن بضع سنين ، وبلاء أيوب عليه السلام والضر العظيم الذي مسه ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣] كما أن بعض الأنبياء بلغ بهم البلاء أن قتلهم قومهم ونالوا الشهادة في سبيل الله ، كما قال تعالى ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾[البقرة: ٨٧]

٤ – ومن مقتضيات بشرية الأنبياء أنهم يمتهنون المهن التي يمتهنها البشر ويشتغلون بالأعمال التي يشتغل بها سائر الناس ، ومن أشهر تلك المهن رعي الغنم ، والتي رعاها نبينا (ﷺ) ورعاها سائر الأنبياء ، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي (ﷺ)قال " ما بعث الله نبيا إلا رعى الغنم ، فقال أصحابه وأنت ؟ فقال : نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة "[3] والحكمة في رعي الأنبياء للغنم – كما ذكر الحافظ

(١) رواه أحمد (١٦١٠) والترمذي (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٣) وفي صحيح الجامع (٩٩٢)

(٢)رواه البخاري (٥٦٤٨ ، ٥٦٦٠) ومسلم (٢٥٧١)

(٣) رواه البخاري (٢٢٦٢)

ابن حجر في الفتح - هي " أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم ، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة ، لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى ، ونقلها من مسرح إلى مسرح ، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق ، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها ، مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة ، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة ، وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها ، فجبروا كسرها ، ورفقوا بضعيفها ، وأحسنوا التعاهد لها ، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعي الغنم ، وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها ، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر ، لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة ، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقيادا من غيرها "[1] .

ومن المهن الأخرى التي امتهنها الأنبياء النجارة ، وقد امتهنها نوح عليه السلام كما حكى الله سبحانه صنعه للفلك ، وكان زكريا عليه السلام نجارا أيضا ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله (ﷺ) قال " كان زكرياء نجارا "[2] وكان داود عليه السلام حدادا يصنع الدروع ، كما قال تعالى ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء :٨٠] وقال النبي (ﷺ) (ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده "[3] .

---

(١) ابن حجر : فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤ / ٤٤١ .

(٢) رواه مسلم (٢٣٧٩).

(٣) رواه البخاري (٢٠٧٢).

ج- ما لا يجوز في حق الرسل

ومن خلال معرفتنا بما تقدم من صفات الرسل وما يجب في حقهم ، نستطيع أن نقول إن كل ما يناقض تلك الصفات الواجبة فهو مستحيل في حق الرسل ويدخل في ذلك ما يلي[1]:

١- الرق لأنه وصف نقص لا يليق بمقام النبوة ، ووظيفة النبي أن يكون داعيا إلى الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار ، والعبد الرقيق يتعذر عليه ذلك ، كما أن الرق نقيصة يستنكف الناس عن الاتباع والاقتداء بمن وصف بها ٠

٢- العيوب المنفرة في الخلقة والشكل الظاهر ، وكل ما يؤدي إلى صدود المكلفين عن النبي ، كمرض الجذام وما أشبهه ، ولا يدخل في ذلك الأمراض العادية التي يصاب بها سائر البشر ، مثلما جرى لأيوب عليه السلام ، وورد ذكره في قول الله تعالى ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣] كما لا يدخل في ذلك العمى الطارئ الذي يصيب النبي في آخر عمره ، مثلما حدث ليعقوب عليه السلام ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[يوسف: ٨٤] وإن كان الله سبحانه قد رد عليه بصره ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٩٦]

---

(١) انظر السفاريني : العقيدة السفارينية ص ٨٥ ، ومحمد بن سلوم : مختصر لوامع الأنوار البهية ص ٤٧٠- ٤٧٢ ، وابن عثيمين : شرح العقيدة السفارينية ص ٥٠٦ ، ود عمر الأشقر : الرسل والرسالات ص ٨٢ ، وحسن أيوب : تبسيط العقائد الإسلامية ص ١٥٧ ، ١٥٨ ود٠ آمنة نصير : مباحث في علوم العقيدة ص ٢٥٥ - ٢٥٦ ٠

٣- الأفعال المؤدية إلى إسقاط المروءة والإخلال بالحشمة ، وقد وقــع الإجماع على عصمة الأنبياء من كل ما يؤدي إلى الدناءة ، لأن الله أمرنــا بالاقتداء بهم واتباعهم وجعلهم أسوة حسنة ، كما قال سبحانه ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾[الأنعام:٩٠] وقال تعـالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١] ولا شك أن مثل تلك الأفعال تتنافى مــع عمــوم الأمر بالاقتداء بهم في كل صغيرة وكبيرة .

٤ – كل خلق أو فعل يتعارض مع مقتضيات العصمة و تبليغ الرسالة ، كالكفر – حاشا الأنبياء من ذلك – والكذب والخيانة ، لأن الكذب والخيانــة ينافيان الرسالة منافاةً كاملة ، إذ لا ثقة بقول الخائن ولا ثقة بقول الكــاذب ، لاحتمال أن يكون ما قاله من الكذب الذي كان يكذبه ، ولاحتمال أن يكــون خان فأخبر الأمر على غير وجهه ، ولذلك هم مبرؤون من الكذب والخيانة ، وقد أجمعت الأمة على أن الصدق واجب في حق الأنبياء والكذب مســتحيل في حقهم ، وكل ما كان طريقه البلاغ فالأنبياء والرسل معصومون فيه مــن الإخبار عن شيء منه بخلاف الواقع لا قصداً ولا عمــدا ، ولا ســهوا ولا غلطا.

كذلك أجمعت الأمة على اتصاف الرسل بالأمانة واستحالة الخيانة عليهم سواء بالقول أو بالفعل(١)، كما قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٦١] وقد منع الأنبياء حتى من الإشارة أو الغمز بــالعين ، لأن هذا نوعٌ من الخيانة ، وفي الحديث الذي رواه أبو داود عن سعد بــن أبــي

---

(١) انظر محمد بن سلوم : مختصر لوامع الأنوار البهية ص ٤٧٢.

وقاص رضي الله عنه قال : لما كان يوم فتح مكة ، اختبأ عبد الله بن سعد بن أبي سرح عند عثمان بن عفان ، فجاء به حتى أوقفه على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله بايع عبد الله ، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثا ، كل ذلك يأبى ، فبايعه بعد ثلاث ، ثم أقبل على أصحابه فقال " أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله " فقالوا ما ندري يا رسول الله ما في نفسك ، ألا أومأت إلينا بعينك قال " إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين "[1] .

۞ ۞ ۞

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٨٣ و ٤٣٥٩) و النسائي (٤٠٦٧) و الحاكم (٣ / ٤٧) و أبو يعلى في مسنده (٧٥٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٢٣) وصحيح الجامع (٢٤٢٦) وقد نقل صاحب عون المعبود (٧ / ٢٤٦) أن عبد الله بن أبي السرح كان يكتب للنبي (ﷺ) فارتد عن الدين ، فلذلك غلظ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما غلظ على غيره من المشركين .

الفصل الخامس

الإيمان بالقضاء والقدر

والإيمان بالقضاء والقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان وأصول الاعتقاد ، التي لا يصح إيمان المكلف ولا يقبل إلا إذا أتى به على الوجه الصحيح الموافق للكتاب والسنة ، بعيدا عن الإفراط أو التفريط الذي وقعت فيه الفرق والمذاهب الكلامية المختلفة ، والتي عولت على بعض النصوص الموافقة لرأيها ، وتعسفت في رد أو تأويل النصوص الأخرى .

ومن المهم أن نشير في مبدأ حديثنا عن هذا الركن العظيم إلى أنه ربما لم يثر الخلاف ، ويحدث التضارب في الرأي حول ركن من أركان العقيدة مثلما حدث في شأن القضاء والقدر[1]، رغم سهولة الأمر ويسره على من استقى المعرفة الصائبة والحقيقة الواضحة في هذا الباب من معين الكتاب والسنة وحدهما ، وعرف للعقل دوره وحدوده ومكانته اللائقة به ، فلم يلج به ميدانا غير ميدانه ، وإنما استعصم بحبل النصوص الشرعية ، آخذا بها كلها ، ومؤمنا بها جميعا ، ومقبلا على كتاب الله ليلتمس فيه الهداية والرشاد ، دون أن يكون قد تبنى الرأي أولا ، ثم أخذ يبحث عن شاهد أو مؤيد له من أدلة الشرع .

وللأسف الشديد فإن هذا المسلك قد غاب عن أكثر الفرق والطوائف التي خاضت في باب القضاء والقدر قديما وحديثا ، وما أصدق كلام ابن القيم في

---

(١) وقد ذكر ابن أبي العز الحنفي في شرح العقيدة الطحاوية ١ / ٣٤٠ أن " أكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأمة مسألة القدر ، وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع " وأوصل ابن الوزير اليمني في كتابه إيثار الحق على الخلق (ص ٢٨٢) المذاهب في قضية أفعال العباد إلى أربعة عشر قولا .

وصفه لحال الاختلاف الشديد الذي وقع في هذا الباب ، حيث قال " وقد سلك جماهير العقلاء في هذا الباب في كل واد ، وأخذوا في كل طريق ، وتولجوا كل مضيق ، وركبوا كل صعب وذلول ، وقصدوا الوصول إلى معرفته والوقوف على حقيقته ، وتكلمت فيه الأمم قديما وحديثا ، وساروا للوصول إلى مغزاه سيرا حثيثا ، وخاضت فيه الفرق على تباينها واختلافها ، وصنف فيه المصنفون الكتب على تنوع أصنافها ، فلا أحد إلا وهو يحدث نفسه بهذا الشأن ويطلب الوصول فيه إلى حقيقة العرفان ، فتراه إما مترددا فيه مع نفسه ، أو مناظرا لبني جنسه ، وكل قد اختار لنفسه قولا لا يعتقد الصواب في سواه ولا يرتضي إلا إياه "[1] .

وكل واحد من هؤلاء المختلفين " إلا من تمسك بالوحي عن طريق الصواب مردود ، وباب الهدى في وجهه مسدود ، تحسي علما غير طائل ، وارتوى من ماء آجن ، قد طاف على أبواب الأفكار ، ففاز بأخس الآراء والمطالب ، فرح بما عنده من العلم الذي لا يسمن ولا يغني من جوع ، وقدم آراء من أحسن به الظن على الوحي المنزل المشروع والنص المرفوع ، حيران يأتم بكل حيران يحسب كل سراب ماء ، فهو طول عمره ظمآن ينادي إلى الصواب من مكان بعيد : أقبل إلى الهدى فلا يستجيب إلى يوم الوعيد ، قد فرح بما عنده من الضلال ، وقنع بأنواع الباطل وأصناف المحال "[2] .

ويظهر لنا مما سبق أن الخلاف حول موضوع القدر ذو جذور قديمة جدا حيث تناولته سائر الفلسفات والمذاهب البشرية في كل زمان ومكان ، على اختلافها وتنوعها ، وتضارب الرأي الذي انتهت إليه في هذا الشأن .

(١) ابن القيم : شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ص ٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٧ ، ٨ .

كما أسهم في بحث هذا الموضوع مفكرون ، وفلاسفة ، وعلماء دين وأخلاق ، ورجال تصوف وقانون واجتماع[١].

بل يمكننا إذا دققنا النظر أن نقول " إنه لا يكاد يخلو إنسان – مهما كان مستواه الثقافي – من انشغال بهذه القضية في جانب من جوانبها ، أو جزئية من جزئياتها ، وربما تجلى ذلك في كلمة عابرة ، أو ترديد لمثل سائر أو حكمة موروثة ، تتحدث عن البخت والنصيب والمقسوم والمكتوب على الجبين ، وهي تمثل – عند قائلها– موقفا محددا ، أو وجهة نظر ، أو رأيا اعتقاديا يستند إليه صاحبه فيما يقع له أو منه من أقدار أو أعمال "[٢] .

مفهوم القضاء والقدر

أ- **مفهومهما لغة**[٣]: يدل أصل مادة القضاء على إحكام أمر وإتقانه ، وإنفاذه لجهته ، وقد ورد هذا اللفظ في الاستعمال القرآني بمعان كثيرة منها : الإنهاء والأمر والحكم والفراغ والأداء والإعلام والموت وغير ذلك ، وأما

---

(١) انظر د. محمد عبد الرحمن بيصار : العقيدة والأخلاق ص ١٥٧، والسيد سابق : العقائد الإسلامية ص ٨٩ ، ود. فاروق دسوقي : القضاء والقدر في الإسلام ١ / ١ ، ود. عمر الأشقر : القضاء والقدر ص ١٠ ، ود. محمد السيد الجليند : قضية الخير والشر في الفكر الإسلامي ص ٥ ، ود السيد رزق الحجر : ابن الوزير اليمني ومنهجه الكلامي ص ٢٥١ .

(٢) د. عبد الحميد مدكور : دراسات في العقيدة الإسلامية ص ٢٩٢ .

(٣) انظر في بيان المعنى اللغوي مادة (قدر، وقضى) عند ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ٥ / ٦٢ ، ٩٩ ، والفيروزآبادي : القاموس المحيط ٢ / ١١٢ ، ٤ / ٣٧١ ، والرازي : مختار الصحاح ص ٢١٩ ، ٢٢٦ ، وابن منظور : لسان العرب ٥ / ٧٤ ، ١٥ / ١٨٦ ، وابن حجر : فتح الباري ١ / ١١٨ ، ١١ / ٤٧٧ ، ود. عبد الرحمن المحمود : القضاء والقدر ص ٣٣ – ٣٩ ، ود. عمر الأشقر : القضاء والقدر ٢٥ – ٢٨ .

القدر فأصل المادة يدل على يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته ، ويأتي لفظ القدر بمعان عديدة منها : الحكم والقضاء والطاقة والتقدير والتهيئة .

وثمة صلة وثيقة بين معنى القضاء والقدر في اللغة ، وبين معناه في الشرع فكل منهما يأتي بمعنى الآخر . ومعاني القضاء ترجع إلى إحكام الأمر وإتقانه وإنفاذه ، كما أن معاني القدر ترجع إلى التقدير ، والله سبحانه قدر مقادير الخلائق ، فعلمها وكتبها وشاءها وخلقها ، وهي مقضية ومقدرة ، فتقع حسب أقدارها[1].

ب – مفهومهما اصطلاحا[2]:

ويراد بالقضاء والقدر اصطلاحا : " أن الله تعالى علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها ، ثم أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد ، فكل محدث صادر عن علمه وقدرته وإرادته "[3] أو هو " تقدير الله تعالى الأشياء في القدم ، وعلمه سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة عنده ، وعلى صفات

(١) انظر د. عبد الرحمن المحمود : القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ص ٣٩ .

(٢) انظر نماذج مختلفة من تعريف القضاء والقدر اصطلاحا عند كل من :- النووي : شرح صحيح مسلم ١ / ١٥٤ ، والباقلاني : التمهيد ص ٣٦٨ ، والبيهقي : الاعتقاد ص ١٣٢ ، وابن حزم : الفصل في الملل والنحل ٣ / ٣١ ، وسليمان بن عبد الله : تيسير العزيز الحميد ص ٦١٩ ، وابن باديس : العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث ص ٧٢ ، ود. محمد خليل هراس : شرح العقيدة الواسطية ص ١٥ ، ١٦ ، والسيد سابق : العقائد الإسلامية ص ٨٥ وأبو بكر الجزائري : عقيدة المؤمن ص ٤٣٢ ، وعبد العزيز السلمان : الأسئلة والأجوبة الأصولية ص ٣١٢ ، وابن عثيمين : شرح أصول الإيمان ص ١٠٧ ، ود. فاروق دسوقي : القضاء والقدر في الإسلام ١ / ٣٤٩ ، ود. عمر الأشقر : القضاء والقدر ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) ابن حجر : فتح الباري في شرح صحيح البخاري ١ / ١١٨ .

مخصوصة ، وكتابته سبحانه لذلك ، ومشيئته له ، ووقوعها على حسب ما قدرها ، وخلقه لها "[1] .

ج - التفرقة بين القضاء والقدر

وقد اختلف أهل العلم في العلاقة بين مصطلحي القضاء والقدر ، وهل هما مترادفان أم متباينان على عدة أقوال[2]:-

١- فهناك من رأى أنه لا فرق بين القضاء والقدر ، وكل واحد منهما في معنى الآخر ، وإذا ورد أحدهما على سبيل الانفراد دخل الآخر في معناه .

٢- وهناك من فرق بين المصطلحين ، وحمل كل واحد منهما على معنى معين وإن كان أصحاب هذا القول قد اختلفوا بدورهم إلى عدة آراء :-

أ- فثمة طائفة قالت إن القضاء هو الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل والقدر هو الحكم بوقوع الجزئيات على سبيل التفصيل .

ب- وهناك من ذهب إلى عكس الرأي السابق ، فجعل القدر بمثابة الأساس والتقدير ، والقضاء بمثابة التفصيل للقدر السابق .

ج- وهناك من قال إن القضاء هو إرادة الله الأزلية المتعلقة بالأشياء على وفق ما توجد عليه في وجودها الحادث ، وأما القدر فهو إيجاد الله للأشياء على مقاديرها المحددة في كل ما يتعلق بها .

---

(١) د. عبد الرحمن المحمود : القضاء والقدر ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) انظر ابن حجر : فتح الباري ١١ / ٤٧٧ ، وابن عثيمين : شرح العقيدة الواسطية ٢ / ١٨٧ ، ١٨٨ ، وحسن أيوب: تبسيط العقائد الإسلامية ص ١٤٢ ، ود. عبد الرحمن المحمود : القضاء والقدر ص ٤٠- ٤٤ ، ود. عمر الأشقر : القضاء والقدر ٢٧ ، ٢٨ .

والظاهر – والله أعلم – أننا لسنا بحاجة لإتعاب أنفسنا في التفرقة بين القضاء والقدر ، ويكفي أن نعلم أنهما أمران متلازمان ، لا ينفك أحدهما عن الآخر كما أن أحدهما إذا أطلق شمل الآخر وأغنى عن ذكره ، ولا يكون إيمان المكلف صحيحا إلا إذا آمن بالأمرين معا ،

أدلة وجوب الإيمان بالقضاء والقدر[1] .

وقد تضافرت الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر ، واعتباره أصلا مهما من أصول الإيمان ، ومن أدلة القرآن في ذكر القدر والتقدير قوله تعالى ﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ (القمر:٤٩) وقوله تعالى ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً** ﴾[الأحزاب: ٣٨] وقوله تعالى﴿ **وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً** ﴾[الفرقان: ٢] وقوله تعالى ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا** ﴾ [الطلاق: ٣] وقوله تعالى ﴿ **اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ** ﴾ [الرعد : ٨] وقوله تعالى ﴿ **وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ** ﴾ [القمر:١٢] وقوله تعالى ﴿ **فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۞ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ** ﴾

---

(١) انظر حافظ بن أحمد الحكمي: معارج القبول ٢ / ١٩٥ ، ١٩٦، والسيد سابق : العقائد الإسلامية ص ٨٣ – ٨٥ ، وأبو بكر الجزائري : عقيدة المؤمن ص ٤٣٣– ٤٣٥ ، ومحمد قطب : ركائز الإيمان ص ٤١٨ ، ٤١٩ ، ود٠ عبد الرحمن المحمود : القضاء والقدر ص ٥٠ – ٥٤، ود٠ عمر الأشقر : القضاء والقدر ص ١٥، ١٦ ، وسيد عبد الغني : العقيدة الصافية ص ٢١٧ – ٢١٩ ٠

[المرسلات ٢١ – ٢٣] وقوله تعالى ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٤٠]٠

ومن الآيات في ذكر القضاء قول الله سبحانه ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾[الأنفال: ٤٤] وقال تعالى ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[غافر: من الآية٦٨] وقال تعالى﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام:٢] وقال سبحانه ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر:٤٢] وغير ذلك الكثير من الآيات التي سوف نعرض لها فيما بعد إن شاء الله ، حينما نتكلم عن مراتب الإيمان بالقضاء والقدر ٠

وأما أدلة السنة فهي كثيرة جدا ، وقلما يخلو كتاب من الكتب المصنفة في الحديث النبوي من عقد فصول أو أبواب لذكر أحاديث القدر ، سواء كان ذلك تحت باب مستقل للكلام عن القدر ، كما هو الحال في صحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي ، أو كان ضمن الأبواب والفصول المختلفة كما هو الحال في سائر كتب السنن٠

ومن أشهر الأحاديث في هذا الباب ، حديث جبريل الذي تقدم معنا مرارا حيث ذكر صلى الله عليه وسلم مفهوم الإيمان وعدد أركانه فقال " الإيمان : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره "[1] وقال (ﷺ) " كل شيء بقدر ، حتى العجز

(١) رواه البخاري (٥٠ ، ٤٧٧٧) ومسلم (٩ ، ١٠)٠

والكيس "[1] وقال (ﷺ) " لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه "[2] .

وقال (ﷺ) " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان "[3] كما حذر (ﷺ) من التكذيب بالقدر ، ونفى الإيمان عمن فعل ذلك فقال " لا يدخل الجنة عاق ، ولا مؤمن بسحر ، ولا مدمن خمر ، ولا مكذب بقدر "[4] .

وأما الإجماع فقد اتفقت كلمة أهل العلم جميعا – سلفا وخلفا – على إثبات قضاء الله وقدره ، ووجوب الإيمان به ، والإنكار الشديد على من خالفه أو شكك في شيء من ذلك ، وكما يقول الإمام النووي رحمه الله في شرحه لصحيح مسلم ، فقد " تظاهرت الأدلة القطعيات من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأهل الحل والعقد من السلف والخلف على إثبات قدر الله سبحانه وتعالى "[5] وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري[6]: " مذهب السلف

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٥) وأحمد (٥٨٥٩).

(٢) رواه الترمذي (٢١٤٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٤٣٩) وفي صحيح الجامع (٧٥٨٥)

(٣) رواه مسلم (٢٦٦٤) وأحمد (٨٥٧٣ ، ٨٦١١) وابن ماجه (٧٩ ، ٤١٦٨)

(٤) رواه أحمد (٢٦٩٣٨) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٧٥) وانظر صحيح الجامع (٣٠٦٥)

(٥) النووي : شرح صحيح مسلم ١ / ١٥٥ .

(٦) ابن حجر : فتح الباري في شرح صحيح البخاري ١١/ ٤٧٨ .

قاطبة أن الأمور كلها بتقدير الله تعالى ، كما قال تعالى ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١] .

الصلة بين الإيمان بالقدر ، وبين أركان العقيدة الأخرى

ولا شك أن ثمة صلة وثيقة بين الإيمان بالقدر ، وبين سائر أركان العقيدة الأخرى ، وخصوصا الأصل الأول منها ، وهو الإيمان بالله تعالى وتوحيده وقد أثر عن ابن عباس رحمه الله أنه قال " القدر نظام التوحيد ، فمن وحد الله تعالى وكذب بالقدر ، كان تكذيبه نقضا للتوحيد ، ومن وحد الله وآمن بالقدر كانت العروة الوثقى "[1] .

وعلى هذا فالقدر بمثابة الخيط الذي ينتظم ويجمع كل مسائل التوحيد ويربطها برباط قوي كخيط العقد ، فإذا كان خيط العقد والمسبحة يجمع الخرزات ، فكذلك التوحيد ومسائله ؛ من التوكل و الخوف والرجاء ، وتوحيد الربوبية ، والرضا بالله رباً ، وتوحيد الإلهية ، والاستعانة والرضا ، والطاعة والمحبة ، والإيمان بالقدر ، وما شابه ذلك .

ولعل هذه الصلة الوثيقة هي السبب في أن الإيمان بالقدر لم يرد ذكره صراحة ضمن الآيات القرآنية التي جمعت أركان الإيمان في سياق واحد ، كآية سورة البقرة ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ

---

(١) رُوِي هذا الأثر مرفوعا عن ابن عباس ، كما هو عند الطبراني في الأوسط ٤ / ٤٦، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد ٧ / ١٩٧، والألباني في ضعيف الجامع (٤١٣٢) وانظر السلسلة الضعيفة (٢٢٤٤ ، ٤٠٧٢) وروي موقوفا عن ابن عباس كما في السنة لعبد الله ابن الإمام أحمد (٩٢٥) وضعفه الألباني في تخريج شرح الطحاوية ص ٣٠٥ ، وانظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٣ / ١١٣ ، ٨ / ٢٥٨ ، وابن القيم : شفاء العليل ص ٦٥٠

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] .

فالإيمان بالقدر داخل ضمن الإيمان بالله وجزء منه[١] وكما يقول ابن القيم : " فكل دليل في القرآن على التوحيد فهو دليل على القدر وخلق أفعال العباد ، ولهذا كان إثبات القدر أساس التوحيد "[٢] .

ويزداد الأمر وضوحا إذا لاحظنا الأمور التالية[٣]:-

أ -الإيمان بالقدر فرع عن الإيمان بربوبية الله سبحانه ، لأن توحيد الربوبية يعني الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى رب كل شيء ، ولا رب غيره ، ولا يشاركه أحد في فعله ، وأنه المنفرد بالخلق والرزق والتدبير ، والأحداث التي تجري في الكون كله وفي حياة الناس إما أن تكون – في تصور الإنسان – آتية من عند الله ، هو الذي برأها وقدرها ، وإما أن تكون في تصوره آتية من عند غير الله ، أياً كان المصدر الذي يتخيله ، فإن كانت الأولى فقد آمن بالله حقاً ، وإن كانت الثانية فقد أشرك بالله ، لأن تصوُّر أي إنسان أن أحداث الكون وتصاريف الحياة تأتي من أي مصدر غير الله سبحانه وتعالى هو

(١) انظر د. عبد الرحمن المحمود : القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ص ٨٣ .

(٢) ابن القيم : شفاء العليل ص ٦٥ .

(٣) انظر ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٣ / ١١٣ ، ومنهاج السنة النبوية ٣/ ٢٧٨ ، وابن القيم : شفاء العليل ص ٦٥ ، ١٦٨ ، ٢٩٣ ، ومدارج السالكين ١ / ٤١٠ ، وابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ١ / ٣٠٤ ، والسيد سابق : العقائد الإسلامية ص ٨٣ – ٨٤ ، وابن عثيمين : تقريب التدمرية ص ١٠٤ ، وأبو بكر الجزائري : عقيدة المؤمن ص ٤٣٣ ، وحسن أيوب : تبسيط العقائد الإسلامية ص ١٤١ ، ومحمد قطب : ركائز الإيمان ص ٤١٧ – ٤١٩ ودراسات قرآنية ص ٩٥ ، ود. عبد الحميد مدكور : دراسات في العقيدة الإسلامية ص ٣٢٠ ، ود. عبد الرحمن المحمود : القضاء والقدر ص ٣٨ – ٨٦ .

شرك في أصل الاعتقاد ، ومعناه أن الله ليس هو المتصرف وحده في شئون الكون إنما هناك من يشترك معه في هذا الشأن[1].

وحتى إذا اعتقد أحد أن الأحداث تقع بالمصادفة ، وليس بتدبير الله وعلمه وتقديره – كما يعتقد بعض الجاهليين في القديم والحديث – فهو مشرك أيضا لأنه توهم وجود مدبر غير الله لهذا الكون ، وهو وإن قال بلسانه إن الأحداث تقع بغير تدبير ولا قصد ، إلا أنه يفترض في خياله أنها كانت سائرة أصلاً بدافع ما ، ثم تصادم بعضها مع بعض ، أو تصادف بعضها مع بعض بغير قصد .. فهو في النهاية يفترض أن هناك من يسيّر الكون وأحداثه غير الله وهذا هو الشرك الأصيل ! ومن ثم فقد لزم وتحتم أن يؤمن الإنسان بالقضاء والقدر أنه من عند الله ، وأنه لا يحدث شيء في الكون كله إلا بتقدير الله ، وإلا فهو ليس بمؤمن أصلاً بلا إله إلا الله[2]!

وعلى هذا فالذين كذبوا بالقدر لم يوحدوا الله سبحانه ، لأن نفاة القدر يقولون " خالق الخير غير خالق الشر ، ويقول من كان منهم في ملتنا ، إن الذنوب الواقعة ليست واقعة بمشيئة الله تعالى ، وربما قالوا ولا يعلمها أيضا ، ويقولون أن جميع أفعال الحيوان واقع بغير قدرته و لا صنعه ، فيجحدون مشيئته النافذة و قدرته الشاملة ، ولهذا قال ابنّ عباس : القدر نظام التوحيد ، فمن وحد الله و آمن بالقدر تم توحيده ، ومن وحّد الله و كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده "[3] .

ب- والإيمان بالقدر سبيل مهم لترسيخ توحيد الألوهية لدى المكلف ، لأن الإنسان " إذا تيقن أن الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، والهدى والضلال والسعادة والشقاء ، كل ذلك بيد الله لا بيد غيره ، وأنه الذي يقلب القلوب

(1) انظر محمد قطب : ركائز الإيمان ص ٤١٧ .

(2) انظر محمد قطب : ركائز الإيمان ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

(3) ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٨ / ٢٥٨ .

ويصرفها كيف يشاء ، وأنه لا موفق إلا من وفقه وأعانه ، ولا مخذول إلا من خذله وأهانه وتخلى عنه ، وأن أصح القلوب وأسلمها وأقومها وأرقها وأصفاها وأشدها وألينها من اتخذه وحده إلها ومعبودا ، فكان أحب إليه من كل ما سواه وأخوف عنده من كل ما سواه ، وأرجى له من كل ما سواه ، فتتقدم محبته في قلبه جميع المحاب ، فتنساق المحاب تبعا لها ، كما ينساق الجيش تبعا للسلطان ويتقدم خوفه في قلبه جميع المخوفات ، فتنساق المخاوف كلها تبعا لخوفه ، ويتقدم رجاؤه في قلبه جميع الرجاء ، فينساق كل رجاء تبعا لرجائه ، فهذا علامة توحيد الإلهية في هذا القلب ، والباب الذي دخل إليه منه توحيد الربوبية أي باب توحيد الإلهية هو توحيد الربوبية ، فإن أول ما يتعلق القلب بتوحيد الربوبية ، ثم يرتقي إلى توحيد الإلهية ، كما يدعو الله سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر ، ويحتج عليهم به ويقررهم به ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به في الإلهية "[1] .

ج - والإيمان بالقدر مبني على إيمان المكلف بأسماء الله الحسنى ، وبصفاته العلي كلها ، حتى إن الإمام أحمد لما سئل عن القدر قال " القدر قدرة الله "[2] ومن أهم أسباب انحراف الجبرية والقدرية أنهم غلبوا جانب بعض الصفات على البعض الآخر ، وأما أهل السنة فقد آمنوا بصفات الله جميعا دونما تفرقة .

فمن صفات الله العلم الشامل المحيط ، والمشيئة والإرادة النافذة ، والقدرة التامة ، وهذه الصفات كلها تقطع بأنه سبحانه خالق كل

---

(١) ابن القيم : مدارج السالكين ١ / ٤١١ .

(٢) انظر ابن تيمية : منهاج السنة النبوية ٣ / ٢٥٤ ، وابن القيم : شفاء العليل ص ٢٨ ، وطريق الهجرتين ص ١٦٣ .

شيء ومريده ، والقادر عليه ، بما في ذلك أفعال العباد ، وهذا الجانب هو الذي ركز عليه أصحاب القول بالجبر ، وأغفله القدرية .

لكن ثمة جانبا آخر من الصفات أغفله الجبرية وركز عليه القدرية ، وهو صفات العدل والحكمة والرحمة ، فالله سبحانه عدل لا يكلف العباد بما لا يطيقون ، ولا يكلف نفسا إلا ما آتاها ، وهو سبحانه حكيم لا يسوي بين المتقين والفجار ، ولا بين المؤمنين والكفار ، وهو سبحانه رحيم بعباده ، يقبل توبتهم ويمدهم بعونه ، ويكلؤهم برعايته[1]، وقد جمع أهل السنة بين الجانبين ، فأثبتوا القدر والشرع ، والأمر والنهي ، وقدرة الله ومشيئته ، وحرية الإنسان ومسئوليته ، دون إفراط أو تفريط[2].

مراتب الإيمان بالقضاء والقدر[3] .

والإيمان بالقضاء والقدر يتضمن أربعة مراتب أو أركان ، لا يتحقق إيمان المكلف إلا إذا أتى بها ، ومن أقر بها جميعا فقد اكتمل إيمانه ، ومن

---

(١) انظر د. عبد الحميد مدكور : دراسات في العقيدة الإسلامية ص ٣٠٠ – ٣٠٢ .

(٢) انظر ابن القيم : شفاء العليل ص ٢٦ والتبيان في أقسام القرآن ص ٤٠ .

(٣) انظر في بيان هذه المراتب تفصيلا : ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٣ / ١٤٨، وابن القيم : شفاء العليل ص ٧٧ – ١٦٠ ، وطريق الهجرتين ص ١٦١ ، وابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، وصديق حسن خان : قطف الثمر ص ٩٠ ، ومحمد بن عبد الوهاب : أصول الإيمان ص ٨٢ ، وسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب : تيسير العزيز الحميد ص ٦٢٢ ، وحافظ بن أحمد الحكمي: معارج القبول ٢ / ١٩٦ – ٢٠٨ وعبد العزيز السلمان : الأسئلة والأجوبة الاصولية ص ٣١٢ – ٣١٤ ، وابن عثيمين : شرح أصول الإيمان ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، وشرح العقيدة الواسطية ٢ / ١٩٣ – ٢١٣ ، ود. عمر الأشقر : القضاء والقدر ص ٢٩ – ٤٦ ، ود. عبد الرحمن المحمود : القضاء والقدر ص ٥٠ – ٨٣ .

انتقص أو جحد واحدا منها أو أكثر فقد اختل إيمانه ، وهذه المراتب إجمالا هي :-

١- الإيمان بعلم الله الشامل والمحيط بكل شيء قبل وبعد وجوده ، ومن ذلك علمه بأعمال العباد قبل أن يعملوها.

٢- الإيمان بأن الله كتب كل ما هو كائن إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ.

٣- الإيمان بمشيئة الله الشاملة لكل حادث ، وقدرته التامة عليه.

٤- الإيمان بإيجاد الله لكل المخلوقات ، وأنه الخالق وحده ، وما سواه مخلوق.

أولا : مرتبة العلم

وهي أن يؤمن المكلف إيمانا جازما بأن الله تعالى بكل شي عليم ، وأنه يعلم ما في السماوات والأرض جملة وتفصيلاً ، سواء كان ذلك من فعله أو من فعل مخلوقاته ، وأنه لا يخفى على الله شي في الأرض ولا في السماء ، بل علمه محيط بكل شيء ، وقد علم ما كان وما سيكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وعلم ما الخلق عاملون قبل أن يخلقهم ، وعلم أرزاقهم وآجالهم وحركاتهم وسكناتهم ، ومن منهم من أهل الجنة ، ومن منهم من أهل النار .

وقد تضافر على إثبات هذا الأصل العظيم ما لا يحصى من أدلة القرآن والسنة وبراهين العقول ، ومن أدلة القرآن قوله تعالى ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام:٥٩] وهذه المفاتح هي الخمس المذكورة في قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ

السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]

كذلك أخبر الله سبحانه أنه يعلم الغيب والشهادة ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[الأنعام: ٧٣] وأن علمه وسع كل شـيء ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [طـه:٩٨] وأحاط بكل شيء علما ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾[الطلاق: ١٢] ولا يغيب عنه مثقال ذرة ﴿ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[سـبأ: ٣] وهو عالم بما مضـى ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى﴾ [طـه٥١، ٥٢] وعالم بما يستقبل ، ولا سيما أمر الساعة ﴿ يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:١٨٧] وعالم بما لم يكن لو كان كيـف سيكون ، حيث أخبر بما سيؤول إليه حال المشركين لو ردوا للـدنيا ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[الأنعام: ٢٨] وهو سبحانه الأعلم بمن ضل وبمن اهتدى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[النحل:١٢٥] وهو الأعلم بعواقب الأمور التي ربما بدت للنـاس شرا وفيها الخير الكثير ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ

تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) [البقرة:٢١٦].

ومن أدلة السنة ما رواه مسلم عن عمران بن حصين قال : قيل يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال فقال : نعم ، قال قيل ففيم يعمل العاملون ؟ قال " كل ميسر لما خلق له "[١] وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله (ﷺ) " ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ، كما تنتجون البهيمة ، هل تجدون فيها من جدعاء ، حتى تكونوا أنتم تجدعونها قالوا يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير ؟ قال : الله أعلم بما كانوا عاملين "[٢] .

وأما دلالة العقل ، فوجود الكون بأسره ، ووجود كل مخلوق فيه يدل دلالة قاطعة على علم الخالق سبحانه ، لأن " المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل لها ، لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم ومن المستحيل عقلا أن يوجد الخالق سبحانه " الأشياء مع الجهل ، لأن إيجاده الأشياء بإرادته ، والإرادة تستلزم تصور المراد ، وتصور المراد هو العلم بالمراد ، فكان الايجاد مستلزما للإرادة ، والإرادة مستلزمة للعلم ، فالإيجاد مستلزم للعلم "[٣] .

ويضاف إلى ما سبق دليل الكمال وخلاصته أن " من المخلوقات ما هو عالم والعلم صفة كمال ، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالما ، وهذا له طريقان :

---

(١) رواه البخاري (٤٩٤٥ ، ٤٩٤٦) ومسلم (٢٦٤٧).

(٢) رواه البخاري (٦٥٩٩) ومسلم (٢٦٥٨).

(٣) ابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ص ١٤٨ .

أحدهما أن يقال نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق ، وأن الواجب أكمل من الممكن ، ونعلم ضرورة أنا لو فرضنا شيئين أحدهما عالم والآخر غير عالم ، كان العالم أكمل ، فلو لم يكن الخالق عالما لزم أن يكون الممكن أكمل منه وهو ممتنع .

الثاني أن يقال كل علم في الممكنات التي هي المخلوقات فهو منه ، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عاريا منه ، بل هو أحق به ، والله تعالى له المثل الأعلى ، ولا يستوي هو والمخلوقات لا في قياس تمثيلي ولا في قياس شمولي ، بل كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق به أحق ، وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزيه الخالق عنه أولى "[1] .

ثانيا : مرتبة الكتابة :

ويقصد بها أن الله تبارك وتعالى كتب عنده في اللوح المحفوظ مقادير كل شي ، فكل ما جرى وما يجري فهو مكتوب عند الله في هذا الكتاب العظيم المسمى باللوح المحفوظ ، والذي ما فرط من شيء ، وما ترك صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها وأحصاها .

وقد وردت الإشارة إلى مرتبة الكتابة في الكثير من الآيات والأحاديث ومنها قوله تعالى ﴿ **مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ** ﴾[الأنعام: ٣٨] على القول

---

(١) ابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ص ١٤٨ ، وانظر في الكلام عن دليل الكمال تفصيلا : ابن تيمية : مجموع الفتاوى ٣ / ٢٩٧ ، و درء التعارض ١ / ٢٩ ومنهاج السنة النبوية ١ / ٤١٧ ، والنبوات ص ٢٤١ ، وشرح العقيدة الأصفهانية ص ٧٤ ، وابن القيم : شفاء العليل ص ١٠٩ والصواعق المرسلة ١٠١٨ ، وجلاء الأفهام ص ٣٢٠ ، وابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية ص ١٢٢ .

بأن المراد بالكتاب هنا هو اللوح المحفوظ ، وقال تعالى ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [النمل:٧٥] وقال تعالى ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِى إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾[يس: ١٢] وقال تعالى ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ. وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴾ [القمر٥٢- ٥٣] وقال تعالى عن موسى حين سأله فرعون عن القرون الأولى ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّى وَلا يَنْسَى ﴾ [طه:٥٢] وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ ﴾ (الأنبياء:١٠٥) وقال تعالى (﴿ لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال:٦٨] .

كما جمع سبحانه بين ذكر مرتبتي العلم والكتابة في عدة مواضع من كتابه منها قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج:٧٠] فبدأ سبحانه بالعلم وقال إن ذلك في كتاب ، أي إنه مكتوب في اللوح المحفوظ ، وقال سبحانه ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلا فِى السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [يونس:٦١] ومن الآيات التى جمعت بين المرتبتين أيضا قوله تعالى﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

[الأنعام:٥٩]والإيمان بكتابة الله سبحانه للمقادير يدخل فيه خمسة أنواع من التقادير[١]:

أ- **التقدير الأول:** قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، عندما خلق الله تعالى القلم ، كما قال تبارك وتعالى ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[التوبة:٥١] وقال سبحانه وتعالى ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد:٢٢] .

وروى الإمام البخاري في صحيحه من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : قال رسول الله (ﷺ) " كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض "[٢] وروى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله (ﷺ) يقول "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال وعرشه على الماء "[٣] .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) "احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما ، فحج آدم موسى ، قال

---

(١) انظر ابن القيم : شفاء العليل ص ١٧ - ٦٨ ، وحافظ بن أحمد الحكمي: معارج القبول ٢ / ٢٠١ - ٢٠٧ ، وابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٦٥ - ٢٧٦ ، ود. محمد خليل هراس : شرح العقيدة الواسطية ص ١٠٩ ، وابن عثيمين . شرح العقيدة الواسطية ٢ / ١٩٧ - ٢٠٣، ود. عبد الرحمن المحمود : القضاء والقدر ص ٥٩- ٦٩ ، ود. عمر الأشقر : القضاء والقدر ٣٨ - ٤٦ .

(٢) رواه البخاري (٣١٩٢ ، ٧٤١٨).

(٣) رواه مسلم (٢٦٤٧).

موسى : أنت آدم الذي خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك في جنته ، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض فقال آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء ، وقربك نجيا ، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق ؟ قال موسى : بأربعين عاما ، قال آدم : فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى ؟ قال : نعم ، قال : أفتلومني على أن عملت عملا كتبه الله علي أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة ، قال رسول الله (ﷺ) : فحج آدم موسى "[1] .

ب- التقدير الثاني: حين أخذ الله الميثاق على بني آدم ، وهم ما يزالون في ظهر أبيهم آدم ﷺ ، حيث استخرج سبحانه ذرية آدم جميعا ، وأشهدهم على أنفسهم ، وهذا الميثاق هو المشار إليه في سورة الأعراف في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾[الأعراف:١٧٢]

وقد وردت الإشارة إلى هذا الميثاق في السنة النبوية على وجهين : أحدهما مجمل ، والآخر مفصل ، فالمجمل مثل قوله (ﷺ) " يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذابا يوم القيامة ، لو أن لك ما في الأرض من شيء ، أكنت تفتدي به ؟ فيقول نعم ، فيقول أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم ، أن لا تشرك بي شيئا ، فأبيت إلا أن تشرك بي "[2] .

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠٩ ، ٦٦١٤) ومسلم (٢٦٥٢).

(٢) رواه البخاري (٣٣٣٤ ، ٦٥٥٧) ومسلم (٢٨٠٥).

وأما المفصل ففي مثل قوله (ﷺ) " لما خلق الله آدم مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصا من نور ، ثم عرضهم على آدم فقال أي رب من هؤلاء ؟ قال هؤلاء ذريتك "[1] .

وفي رواية أخرى أكثر تفصيلا أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾[الأعراف:١٧٢] .

فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله (ﷺ) يسأل عنها فقال رسول الله (ﷺ) : إن الله خلق آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فأخرج منه ذرية ،فقال خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية ، فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل : يا رسول الله ففيم العمل ؟ قال فقال رسول الله (ﷺ) : إن الله إذا خلق العبد للجنة ، استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، فيدخله الله الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار "[2] .

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٧٦) والحاكم في المستدرك ٢ / ٣٥٥ ، وأبو يعلى في مسنده (٦٣٧٧) وصححه الألباني في صحيح الترمذي ، وفي صحيح الجامع (٥٢٠٨) وفي تخريج شرح الطحاوية ص ٢٦٦

(٢) رواه الترمذي (٣٠٧٥) وأبو داود (٤٧٠٣) وأحمد (٣١٣) وقد اختلفت أقوال أهل العلم في تصحيح الحديث وتضعيفه ، وقد صححه الألباني في تخريج شرح الطحاوية ص ٢٦٦ ، وفي صحيح أبي داود دون لفظة مسح الظهر ، وضعفه في ضعيف الترمذي وفي ضعيف الجامع (١٦٠٢) وفي السلسلة الضعيفة (٣٠٧١) وفي تخريج السنة لابن أبي عاصم (١٩٦)

ج- **التقدير الثالث** : التقدير العمري وهو الذي يتم عند تخليق النطفة في الرحم فيكتب إذ ذاك ذكوريتها وأنوثتها ، والأجل والعمل ، والشقاوة والسعادة ، والرزق وجميع ما يلقى الإنسان ، فلا يزاد فيه ولا ينقص منه .

والدليل على هذا النوع من التقدير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾[النجم: من الآية٣٢] وقوله تعالى ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨] وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[فاطر: ١١]

وقد ورد في السنة بيان مفصل لهذا النوع من التقدير فيما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله (ﷺ) ، وهو الصادق المصدوق ، قال : إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا ، فيؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله ، ورزقه ، وأجله وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع ، فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار ، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة "[1] .

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣).

د- التقدير الرابع : التقدير الحولي ، وهو الذي يتم في ليلة القدر من كل عام حيث يقدر فيها كل ما يكون في السنة إلى مثله من العام المقبل ، والدليل على هذا النوع من التقدير قوله تعالى ﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان ١- ٥].

وهذه الليلة على القول الراجح من أقوال المفسرين[١] هي ليلة القدر ، فعن مجاهد قال : ليلة القدر ليلة الحكم ، وقال سعيد بن جبير : يؤذن للحجاج في ليلة القدر ، فيكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم ، فلا يغادر منهم أحد ، ولا يزاد فيهم ولا ينقص منهم ، وقال الحسن البصري : والله الذي لا إله إلا هو ، إنها لفي رمضان ، وإنها لليلة القدر ، يفرق فيها كل أمر حكيم ، فيها يقضي الله تعالى كل أجل وعمل ورزق إلى مثلها .

ولعل هذه النصوص تشهد لصحة القول بأن معنى القدر المضاف إليه تلك الليلة – كما يقول ابن القيم رحمه الله – مصدر قدر الشيء يقدره قدرا ، فهي ليلة الحكم والتقدير ، وقالت طائفة ليلة القدر ليلة الشرف والعظمة . من قولهم لفلان قدر في الناس ، فإن أراد صاحب هذا القول أن لها قدرا وشرفا ، مع ما يكون فيها من التقدير فقد أصاب ، وإن أراد أن معنى القدر

---

(١) انظر تفسير الطبري [illegible] / ١٠٠ ، وتفسير القرطبي ١٦ / ١٢٦ ، ١٢٧ ، وزاد المسير لابن الجوزي ٧ / ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، وتفسير ابن كثير ٤ / ١٣٨ ، وفتح القدير للشوكاني ٤ / ٥٧٠ .

فيها هو الشرف والخطر فقد غلط ، لأن الله سبحانه أخبر أن فيها يفرق أي يفصل الله ، ويبين ويبرم كل أمر حكيم(١).

هـ- التقدير الخامس : التقدير اليومي. وهو تقدير الله سبحانه لكل ما يحدث للعباد في كل يوم وليلة ، وسوق المقادير إلى المواقيت التي قدرت لها فيما سبق ويدل على هذا التقدير قوله تعالى ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩] وفي معنى هذا الآية روى ابن ماجه عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي (ﷺ) في قوله تعالى ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ قال " من شأنه أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ، ويخفض آخرين "(٢) .

ومن المهم أن ننتبه إلى أن هذا التقدير اليومي تفصيل من التقدير الحولي والحولي تفصيل من التقدير العمري عند تخليق النطفة ، والعمري تفصيل من التقدير العمري الأول يوم الميثاق ، وهو تفصيل من التقدير الأزلي الذي خطه القلم في الإمام المبين ، والإمام المبين هو من علم الله عز وجل ، وكذلك منتهى المقادير في آخريتها ، وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من التقدير السابق وفي ذلك دليل على كمال علم الرب وقدرته وحكمته ، وزيادة تعريف لملائكته وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه(٣).

---

(١) ابن القيم : شفاء العليل ص ٢٣ .

(٢) رواه ابن ماجه (٢٠٢) وابن حبان (٦٨٩) وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه .

(٣) انظر ابن القيم : شفاء العليل ص ٢٣ ، وحافظ بن أحمد الحكمي : معارج القبول ٢ / ٢٠٧ .

ثالثاً : مرتبة المشيئة[1]:

ويقصد بها الإيمان التام بمشيئة الله النافذة ، وقدرته التامة ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه ما وجد موجود وما عدم معدوم إلا بمشيئة الله تعالى ولا يمكن أن يقع شيء في السماوات ولا في الأرض إلا بمشيئة الله تعالى .

وقد تضافرت الآيات القرآنية في إثبات مشيئة الله تعالى في فعله ، ومشيئته في فعل العباد ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير ٢٨ ، ٢٩] وقوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام: ١١٢] وقوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ)[البقرة: ٢٥٣] فبين الله تعالى أن فعل الناس كائن بمشيئته ، وأما فعله تعالى فكثير ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] وقوله تعالى ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الأنعام: ٣٩] وقوله

---

(١) انظر ابن القيم : شفاء العليل ص ١٠٩ – ١٢٥ ، وابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٠٦ ، وحافظ بن أحمد الحكمي : معارج القبول ٢ / ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ود. محمد خليل هراس : شرح العقيدة الواسطية ص ١١٠ ، وعبد العزيز السلمان : الأسئلة والأجوبة الأصولية ص ٣١٣ ، وابن عثيمين : شرح أصول الإيمان ص ١٠٧ ، ١٠٨ ، وشرح العقيدة الواسطية ٢ / ٢٠٤ – ٢٠٨ ، ود. عبد الرحمن المحمود : القضاء والقدر ص ٦٩ – ٧٦ ، ود. عمر الأشقر : القضاء والقدر ٣٥ ، ٣٦ .

تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾[السجدة: ١٣] إلى آيات كثيرة تثبت المشيئة في فعله تبارك وتعالى .

وكما استضافت نصوص الكتاب والسنة في بيان مشيئة الله ، فقد استفاضت أيضا في بيان قدرته سبحانه ، وأنه لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض ، ونكتفي بالإشارة إلى وصفه تعالى بأنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾والذي ورد في عشرات المواضع من القرآن ، وقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾[فاطر: ٤٤].

ومشيئة الله وقدرته يجتمعان فيما كان وما سيكون ، ويفترقان في ما لم يكن ولا هو كائن ، فما شاء الله تعالى كونه فهو كائن بقدرته لا محالة ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢] وما لم يشأ الله تعالى لم يكن لعدم مشيئة الله تعالى إياه ، ليس لعدم قدرته عليه ، كما قال تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾[الأنعام: ٣٥] وقال تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾[هود: ١١٨] وقال تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩] والسبب في عدم وجود الشيء هو عدم مشيئة الله تعالى إيجاده ، لا أنه عجز عنه ، تعالى الله وتقدس وتنزه عن ذلك ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾[فاطر:٤٤]

رابعا : مرتبة الخلق(1) .

ومعناها الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء في هذا الكون بأسره فهو خالق كل عامل وعمله ، وكل متحرك وحركته ، وكل ساكن وسكونه ، وما من ذرة في السموات ولا في الأرض إلا والله سبحانه وتعالى خالقها ، وخالق حركتها وسكونها ، سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه ، وحتى الموت – وهو عدم الحياة – فإن الله هو الذي يخلقه ، كما قال سبحانه ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢]

وهذا الأمر متفق عليه بين الرسل صلى الله تعالى عليهم وسلم ، وعليه أطبقت الكتب الإلهية والفطر والعقول والاعتبار ، وآيات القرآن في هذا الباب يصعب حصرها ، ومن ذلك إخباره سبحانه أنه خالق كل شيء ، قال تعالى ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر: ٦٢] وقال تعالى ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٢] وقال تعالى ﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الرعد: ١٦] وقال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا

(1) انظر ابن القيم : شفاء العليل ص ١٢٧ – ١٦٠ ، وابن أبي العز الحنفي : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٠٦ ، وحافظ بن أحمد الحكمي : معارج القبول ٢ / ٢٠٨ ، ود. محمد خليل هراس : شرح العقيدة الواسطية ص ١١٠ ، وعبد العزيز السلمان : الأسئلة والأجوبة الأصولية ص ٣١٣ ، ٣١٤ ، وابن عثيمين : شرح أصول الإيمان ص ١٠٨ ، وشرح العقيدة الواسطية ١ / ١٠٨ – ١١١ . ود. عبد الرحمن المحمود : القضاء والقدر ص ٧٦ – ٨٣ ود. عمر الأشقر : القضاء والقدر ٣٧ ، ٣٨ .

النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر:٣] ٠

والعباد وأفعالهم لا يخرجون عن العموم السابق ، فالله سبحانه قد علم ما يفعله عباده ، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ ، وهو سبحانه خالقهم وخالق أفعالهم كما قال سبحانه ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] وهذه المرتبة وما قبلها – أي مرتبة المشيئة – هما محل النزاع بين أهل السنة وبين مخالفيهم من القدرية والجبرية ، كما سنرى آنفا إن شاء الله تعالى ٠

ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر على وجهه الصحيح ٠

تقدم معنا مرارا أن الإيمان بالقضاء والقدر ركن ركين من أركان العقيدة وأصل مهم من أصولها الكبرى ، التي لا يتحقق إيمان المكلف إلا به ، ولا شك أن هذا وحده كاف لإثبات فائدته وضرورته ، ومع ذلك فإن للإيمان بالقضاء والقدر الكثير من الثمرات والفوائد العظيمة ، التي تعود على المؤمن بالنفع والصلاح في الدنيا والآخرة ، كما تمتد آثارها إلى المجتمع بأسره ٠

وقبل أن نذكر تلك الثمرات تفصيلا ، نود أن نشير إلى أمرين مهمين :-

الأول : أن كل ما يترتب على الإيمان بالقدر من فوائد وثمرات لا يمكن أن يتحقق إلا لمن آمن به على الوجه الصحيح ، الموافق للكتاب والسنة ، وتبرىء من إفراط الجبرية أو تفريط القدرية ، وجمع بين إثبات القدر من جهة ، والأخذ بالأسباب من جهة أخرى ، مع التوكل الكامل على الله ، والاستسلام لحكمة وتفويض الأمر إليه في كل أموره وشئون حياته ، أما من

أخل بتلك الوسطية الجامعة بين إثبات قضاء الله وقدره ، وبين إثبات اختيار العباد وقدرتهم على أفعالهم ، فهو أبعد الناس عن الاستفادة من تلك الثمرات ، وما أقربه حينئذ من طائر مهيض الجناح ، عاجز تماما عن التحليق أو الجولان في أجواء الفضاء ·

الثاني : أن هذا الجانب العملي من الكلام عن القدر ، والذي يعنى بذكر الثمرات والآثار النافعة التي يحصلها المؤمن بالقدر في دينه وقلبه وسلوكه هو الجانب الأولى والأحق بأن يركز عليه كل من يتكلم عن هذا الموضوع ، أو يكتب في قضاياه ، بعد أن يفرغ من ذكر الأصول النظرية الحاكمة لهذا الباب ، والمستقاة من الكتاب والسنة ، مع عرضها بأسلوب واضح وموجز ، ودون إغراق في الجدل والخوض فيما لا يجدي نفعا ·

وللأسف الشديد فإن المطالع لما كتبه معظم المتكلمين في هذا الباب يجده في الأعم الأغلب شبه خال من الكلام عن ثمرات الإيمان بالقدر وفوائده ، وقد استعاضوا عن ذلك بالانشغال التام بتشقيق الحجج والأدلة ، والرد على شبه الخصوم وشبهاتهم ، بحيث يخرج القارئ بكثير من الحيرة والإرهاق للعقل وبقليل من الرقة وتأثر القلب وتزكيته ·

ولا شك أن " الذين أثاروا قضايا القضاء والقدر ، والجبر والاختيار ، وإرادة العبد وكسبه ، ليجعلوا منها مباحث لاهوتية ، تخضع لما تتصوره عقولهم من فروض وتقديرات ، إنما يجانبون منهج القرآن في عرض هذه القضية في صورتها الواقعية التقريرية البسيطة التي تقرر أن كل شيء إنما يكون بقدر من الله ، وأن اتجاه الإنسان على هذا النحو أو ذاك داخل في حدود فطرته التي خلقه الله عليها ، والتي جرى بها قدر الله فكانت على ما كانت عليه ، وان اتجاهه على هذا النحو أو ذاك تترتب عليه نتائج وآثار في الدنيا والآخرة يجري بها قدر الله أيضا فتكون ، وبهذا يكون مرجع الأمر كله

إلى قدر الله ، ولكن على النحو الذي يرتب على إرادة الإنسان الموهوبة له ما يوقعه قدر الله به ، وليس وراء هذا التقرير إلا الجدل الذي ينتهي إلى المراء "(١) .

وحتى لا نقع في هذا المسلك المنتقد ، فسوف نشير فيما يلي إلى طرف من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر ، والتي ينبغي لكل مؤمن أن يحرص على الاستفادة منها ، وتحويلها إلى معرفة قلبية راسخة تستقر في الوجدان ثم تنطبع آثارها على سائر الجوارح(٢):

١- أن يعرف الإنسان قدر نفسه و حقيقته ، وأن يتيقن من محدودية قواه وقدراته وإمكاناته ، ومن ثم فلا يبطر أو يفخر ، ولا يتعالى أو يتكبر ، فهو عبد مربوب لربه وخالقه ، وناصيته ومقاليد أمره بيد الله ، ولا يعلم المستقبل والغيب إلا العليم الخبير سبحانه ، وإذا كان الإنسان اليوم قويا أو

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ٢ / ١٠٦٦ .

(٢) انظر في بيان تلك الثمرات تفصيلا : السيد سابق : العقائد الإسلامية ص ٨٦- ٨٨ وأبو بكر الجزائري : عقيدة المؤمن ص ٤٣٦ - ٤٣٩ ، وابن عثيمين : شرح أصول الإيمان ص ١١١ ، وشرح العقيدة الواسطية ٢ / ١٨٩ ، ١٩٠ ، وتقريب التدمرية ص ١٠٤ ، ود. محمد عبد الرحمن بيصار : العقيدة والأخلاق ص ١٥٩- ١٦١ ، ود. محمد عبد الله دراز : المختار من كنوز السنة ص ١٧٥ - ١٧٧ ، وحسن أيوب : تبسيط العقائد الإسلامية ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، ومحمد قطب : ركائز الإيمان ص ٤٢٠- ٤٢٦ ، ودراسات قرآنية ص ٩٥- ١٠٠ ، ود. عبد الرحمن المحمود : القضاء والقدر ص ٤٤٧ - ٤٥٨ ، ود. عمر الأشقر : القضاء والقدر ص ١٠٩- ١١٢ ، وأركان الإيمان ، إعداد الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ود. عبد الحميد مدكور : دراسات في العقيدة الإسلامية ص ٣١٧ ، ٣١٨ ، وسيد عبد الغني : العقيدة الصافية ص ٢٢٦ ، ود. عبد الكريم زيدان : الإيمان بالقضاء والقدر وأثره في سلوك الإنسان ضمن مجموعة بحوث فقهية .

غنيا أو صحيحا ، فلا يعلم ما يحمله الغد في طياته ، ولا ما تأتي به المقادير إلا الله ، وكم من قوي صار ضعيفا ، وغني صار فقيرا ، و صحيح صار سقيما .

وإذا ترسخت تلك الحقيقة في نفس الإنسان ، فسوف يبرأ قلبه من العجب والغرور والاختيال ، ويتواضع لربه وللخلق ، ويرى أن ما تحت يديه من نعم وآلاء فإنما هو من فضل الله ورحمته ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النحل: ٥٣] وإذا فرح بشيء من ذلك فلكونه من فضل الله ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨] كما يعلم أنه مستخلف في تلك النعم كي يؤدي حق الله فيها ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[الحديد:٧] .

وإذا قام المكلف بطاعة أو عبادة مهما عظمت أو كثرت ، فلا مجال لتسرب العجب أو الغرور إلى قلبه ، لأنه يعلم أن الله سبحانه هو الذي قواه وأعانه على فعل هذه العبادة ويسر له سبل الهداية ، وأزال عنه الموانع والصوارف دونها ولولا هدايته وتوفيقه وتزكيته ما استطاع العبد أن يفعل شيئا ، وقد قال سبحانه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[النور: ٢١] وقال سبحانه حكاية عن أهل الجنة ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[الأعراف:٤٣] وقال النبي (ﷺ) " لن يُدْخِل أحدا عملُه الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : لا ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة ، فسددوا وقاربوا "[1] .

---

(١) رواه البخاري (٥٦٧٣ ، ٦٤٦٣ ، ٦٤٦٧) ومسلم (٢٨١٦)

٢- ومن ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر على وجهه الصحيح أنه يخلص صاحبه من أي شائبة تشوب توحيده ، أو توقعه في الشرك الجلي أو الخفي ، لأن توحيد المكلف لا يتم على الحقيقة إلا إذا تيقن أن الله سبحانه هو وحده الخالق لكل شيء في الكون ، وأن إرادته ماضية في خلقه ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ٠

والمؤمن بالقدر يقر بأن هذا الكون وما فيه من خلق إله واحد ومعبود واحد أما من كذب بالقدر أو آمن ببعضه وكفر ببعضه ، فسوف يتيه في أودية الشرك والضلال ، ولا بد أن ينسب بعض ما في الكون من خلق لغير الله ، كما زعم بعض الناس أن الخير من الله والشر من صنع آلهة أخرى ، فرارا من نسبة الشر لله ، وكما زعمت المجوس أن النور خالق الخير والظلمة خالقة الشر ٠

٣- ومن ثمرات الإيمان بالقدر أنه ينجي المؤمن من الوقوع في الفتن وأسباب الضلال وسوء الخاتمة ، إذ يجعله دائما على حذر من الانتكاس والرد على عقبيه بعد إذ هداه الله إلى الاستقامة والرشاد ، لأنه يعلم أن قلوب العباد دائمة التقلب والتغير ، وأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، ولا شك أن حذره هذا سوف يثمر المجاهدة الدائمة على الاستقامة ، والإكثار من الصالحات ، ومجانبة المعاصي والموبقات ، كما يبقى القلب معلقا بخالقه يدعوه ويرجوه ويستعينه ، ويسأله الثبات على الحق والتسديد والرشاد ٠

وهذا المعنى السابق هو الذي ينبغي أن نفهم من خلاله عددا من النصوص الشرعية ، كقوله تعالى ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩] وقوله ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ

وَقَلْبِهِ ﴾[الأنفال: ٢٤] وقول النبي (ﷺ) " إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات ، ويقال له اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع ، فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار ، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة "[1] .

ولا يصح أن يفهم من النصوص السابقة ولا سيما الحديث المذكور آنفا أن الله سبحانه وتعالى يعذب عباده الصالحين من دون ذنب أو جريرة ، أو يختم لهم بخاتمة الشقاوة رغم صلاحهم في الدنيا ، فكل ذلك مما يتنافى مع عدل الله ورحمته ولطفه ورأفته وغناه التام عن عباده ، بحيث لا تنفعه طاعتهم ولا تضره معصيتهم ، بل الأمر كما قال سبحانه في الحديث القدسي " يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه "[2] .

---

(١) رواه البخاري(٣٢٠٨ ، ٣٣٣٢ ، ٦٥٩٤) ومسلم (٢٦٤٣)٠

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧) والترمذي (٢٤٩٥)٠

ومن الخطأ الجسيم ما يفعله بعض الناس ، ممن وصفهم ابن القيم رحمه الله بالجهال بالله وأسمائه وصفاته ، والمعطلين لحقائقها ، الذين يبغضون الله إلى خلقه ، ويقطعون عليهم طريق محبته والتودد إليه بطاعته من حيث لا يعلمون حيث زعموا " أن الله سبحانه لا تنفع معه طاعة ، وإن طال زمانها ، وبالغ العبد وأتى بها ظاهره وباطنه ، وأن العبد ليس على ثقة ولا أمن من مكره ، بل شأنه سبحانه أن يأخذ المطيع المتقي من المحراب إلى الماخور ، ومن التوحيد والمسبحة إلى الشرك والمزمار ، ويقلب قلبه من الإيمان الخالص إلى الكفر ويروون في ذلك آثار صحيحة لم يفهموها ، وباطلة لم يقلها المعصوم ، ويزعمون أن هذا حقيقة التوحيد "[1] .

ولا يخفى ما في هذا المعنى من فساد وبطلان ، وما له من أثر خطير في تنفير المكلفين عن العمل الصالح ، وإشاعة اليأس والقنوط في قلوبهم ، فضلا عما ينطوي عليه من سوء ظن بالله ، والقول عليه بغير علم ، ووصفه بما لا يليق بعظمته وجلاله وأسمائه وصفاته .

والمتأمل للكتاب والسنة يخرج منهما بحقيقة في غاية الجلاء والوضوح ، وهي أن الله سبحانه قضى برحمته وعدله " أنه إنما يعامل الناس بكسبهم ويجازيهم بأعمالهم ، ولا يخاف المحسن لديه ظلما ولا هضما ، ولا يخاف بخسا ولا رهقا ، ولا يضيع عمل محسن أبدا ، ولا يضيع على العبد مثقال ذرة لا يظلمها ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ، وإن كان مثقال حبة من خردل جازاه بها ولا يضيعها عليه ، وأنه يجزي بالسيئة مثلها ، ويحبطها بالتوبة والندم والاستغفار والحسنات والمصائب ، ويجزي بالحسنة عشر امثالها ويضاعفها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وهو الذي أصلح الفاسدين ، وأقبل بقلوب المعرضين ،

---

(١) ابن القيم : الفوائد ص ١٥٩ .

وتاب على المذنبين ، وهدى الضالين ، وأنقذ الهالكين ، وعلم الجاهلين ، وبصر المتحيرين ، وذكر الغافلين وآوى الشاردين ، وإذا أوقع عقابا أوقعه بعد شدة التمرد والعتو عليه ، ودعوة العبد إلى الرجوع إليه ، والإقرار بربوبيته وحقه مرة بعد مرة ، حتى إذا يأس من استجابته والإقرار بربوبيته ووحدانيته ، أخذه ببعض كفره وعتوه وتمرده بحيث يعذر العبد من نفسه ، ويعترف بأنه سبحانه لم يظلمه ، وأنه هو الظالم لنفسه "[1] .

وأما المعنى الصحيح لكون الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فالمراد بعمل أهل الجنة هنا هو ما يظهر للناس ، وليس ما يطابق الحقيقة ، ولو كان عملا صالحا مقبولا للجنة مما أحبه الله ورضيه لم يبطله عليه ، وأما قوله في الحديث " لم يبق بينه وبينها – أي الجنة – إلا ذراع " فالمراد أنه لما كان العمل بآخره وخاتمته ، ولم يصبر هذا العامل على عمله حتى يتم له ، بل كان فيه آفة كامنة ، ونكتة خذل بها في آخر عمره ، فخانته تلك الآفة والداهيه الباطنة في وقت الحاجة ، فرجع إلى موجبه وعملت عملها ، ولو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب الله إيمانه ..... والله يعلم من سائر العباد ما لا يعلمه بعضهم من بعض "[2] .

٤- والإيمان بالقضاء والقدر يغرس في نفس المؤمن حقائق الإيمان المتعددة فهو دائم الاستعانة بالله والتوكل عليه ، مع فعل الأسباب ، وهو دائم الافتقار إلى ربه يستمد منه العون والثبات ، وهو دائم الانكسار والذل لربه ،

---

(١) ابن القيم : الفوائد ص ١٦١ .

(٢) ابن القيم : الفوائد ص ١٦٣ .

لعلمه أن الخير كله في يديه والشر ليس إليه ، وأنه إن وكل العبد لنفسه فقد خسر خسرانا مبينا .

كذلك فإن الإيمان بالقدر يثمر الكثير من أنواع العبادات الصالحة والصفات الحميدة ، لا سيما ما تعلق منها بأعمال القلوب وتزكيتها ، كالاخلاص لله ، والخوف منه ، والرجاء وإحسان الظن به ، والصبر وقوة الاتكال ومحاربة اليأس ، والرضا بالله ، وإفراد الله بالشكر والفرح بفضله ورحمته والتواضع لله عز وجل ، وترك الكبر والخيلاء ، ويثمر الإنفاق في أوجه الخير ثقة بالله ، والشجاعة والإقدام ، والقناعة وعزة النفس ، وعلو الهمة ، والحزم والجد في الأمور ، والاعتدال في السراء والضراء ، والسلامة من الحسد والاعتراض ، وتحرير العقول من الخرافات والأباطيل وراحة النفس وطمأنينته القلب .

٥- والإيمان بالقدر يثمر الشجاعة والإقدام ، والقدرة على مواجهة الصعاب والمخاطر بقلب ثابت ونفس أبية ، لا تتهيب ولا تضعف ، لأن العبد إذا آمن بأن كل ما يصيبه مكتوب ، وآمن أن الأرزاق والآجال بيد الله ، فإنه يقتحم الصعاب والأهوال بقلب شجاع وهامة مرفوعة ، وكيف لا وهو يوقن أنه لن يصيب الإنسان إلا ما كتب له ، سواء كان قاعدا في بيته ، أو كان يتقلب في ساحات القتال من معركة إلى معركة ، وكما قال سبحانه ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾[آل عمران: ١٥٤] وقال سبحانه ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[النساء: ٧٨] .

وبعث هذا الإيمان اندفع المجاهدون من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى ساحات الوغى وميادين النزال ، غير هيابين ولا وجلين ، كما ساحوا في

الأرض يبلغون دعوة الله ، ويجهرون بكلمة الحق دون خوف على الحياة ، ودون خشية لانقطاع الرزق ، لعلمهم الجازم أنه﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر :٢]

٦- والإيمان بالقدر يكسب صاحبه قوة الشكيمة ومضاء العزيمة . إذ من اطمأنت نفسه إلى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، خلت جميع أعماله من الحيرة والتردد ، وانتفى من حياته القلق والاضطراب ، لأنه بمجرد أن يترجح لديه الإقدام على أمر ما فسوف يقدم عليه دون خوف ولا وجل ولا تهيب ، ولن يحزن على ماض ولن يغتم لحاضر ، وحتى إذا جاءت الريح بما لا تشتهي نفسه ، أو خاب مسعاه ، فلن تذهب نفسه حسرات ، أو يعض بنان الندم على ما فات ، ولعل من أحسن ما يعبر عن هذا المعنى ويوضحه قول النبي (ﷺ) " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان "[1] .

٧- والمؤمنون بالقدر هم أزكى الناس خلقا ، وأسلمهم قلبا ، وأصفاهم نفسا في تعاملهم مع كافة الناس من حولهم ، كما أن الإيمان بالقدر يقضي على كثير من الأمراض التي تعصف بالمجتمعات ، وتزرع الأحقاد بين المؤمنين ، ومن ذلك مثلا رذيلة الحسد والحقد ، وتمني زوال النعمة عن الآخرين ، فالمؤمن لا ينظر بعين الحسد والحقد إلى من حباه الله بمنة أو نعمة ، لأنه يعلم أن الله هو الذي رزقه وقدر له ذلك ، وهو حينما يحسد غيره فإنما يعترض في الحقيقة على المقدور ، كما قال الله سبحانه ﴿ أَهُمْ

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) وأحمد (٨٥٧٣ ، ٨٦١١) وابن ماجه (٧٩ ، ٤١٦٨)

يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[الزخرف: ٣٢] وقال سبحانه ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾[النساء: ٥٤] .

وإذا ترسخ هذا المعنى في قلب المكلف ، فسوف يبذل غاية جهده لعمل الخير مع حبه للناس ما يحب لنفسه ، فإن وصل إلى ما تصبو إليه نفسه حمد الله وشكره على نعمائه وفضله ، وإن لم يوفق لذلك صبر ولم يجزع أو ييأس ، ولم يحقد على ممن نال من الخير والفضل ما لم ينله ، لعلمه أن الله هو الذي قسم الأرزاق ، وفاضل بين العباد ، ورفع بعضهم على بعض درجات ، ليتحقق معنى الابتلاء والاختبار ، كما قال سبحانه ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[الزخرف: ٣٢].

كذلك فإن الإيمان بالقدر يعتبر من أهم الأسباب التي تعين المسلم على تحسين خلقه في تعامله مع سائر الناس ، فحينما يقصر أحد في حقه أو يسيء إليه أو ينال من عرضه بغير حق ، فسوف يعفو ويصفح ويكظم غيظه ويدفع السيئة بالحسنة ، لأنه يعلم أن ذلك مقدر ، وأن من عفا وأصلح فأجره على الله ، مع ضرورة الانتباه إلى أن ذلك الموقف إنما يصلح في التعامل مع حقوق الإنسان نفسه ، أما ما يختص بحقوق الله ودينه وحدوده ، فلا يجوز العفو ولا التعلل بالقدر ، لأن القدر يحتج به في المصائب لا في المعايب .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه مدارج السالكين أحد عشر مشهدا ينبغي أن يستحضرها المكلف فيما يصيبه من أذى الخلق وجنايتهم عليه ، ويعنينا منها الآن ما أسماه بمشهد القدر . وخلاصته أن ما جرى على المكلف من أذى فإنما هو بمشيئة الله وقضائه وقدره ، وعليه أن يتعامل معه كما يتعامل مع التأذي بالحر والبرد والمرض والألم وهبوب الرياح وانقطاع

الأمطار ، فإن هذا كله قد أوجبته مشيئة الله ، فما شاء الله كان ووجب وجوده ، وما لم يشأ لم يكن وامتنع وجوده ، وإذا شهد المؤمن هذا استراح وعلم أنه كائن لا محالة ، فما للجزع منه وجه ، وهو كالجزع من الحر والبرد والمرض والموت(١) .

٨- والإيمان بالقدر أعظم عصمة تقي المؤمن من الوهن والجزع ، أو الحزن والاكتئاب عند حلول النوائب ونزول المصائب ، لأن الإنسان عرضة دائماً لأن تصيبه النوائب والأحداث ، وهذه سنة الله في الأرض ، وما من بشر في الدنيا كلها لا يصاب ، وإن لم يصب في نفسه بما ينزل بالناس عادة من أمراض أو آلام ، فربما أصيب بفقد عزيز أو حبيب ، ومن شأن المصائب أن تهز النفوس وتزلزل الأفئدة ، وما من إنسان لا يتأثر بما يصيبه ولو كان صلد المشاعر عديم الاكتراث ، وطبع الإنسان كما وصفه الله أنه يحبُّ الخير لنفسه ويهلع ويجزع إن نزل به الشر ، كما قال سبحانه ﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً ۝ إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ – ٢٢] ولكن التأثر بالأحداث شيء والوهن والجزع عند حلولها شيء آخر ، وقد تأثر رسول الله (ﷺ) لفقد ولده إبراهيم ، ولكنه قال " إنَّ العَيْنَ لتَدْمَعُ ، وإنَّ القَلْبَ ليَحْزَنُ ، ولا نَقُولُ إلا ما يُرْضِي ربنا ، وإنا عليك يا إبراهيمُ لمحزونون "(٢) .

فأما الوهن الذي يفتِّت العزيمة ، ويقعد بالإنسان عن معاودة النشاط والانطلاق في الحياة فهو الأمر المذموم ، وهو الذي يتعرض له الإنسان حين لا يؤمن بالقدر ولا يسلم له ، لذلك يقول الله سبحانه وهو يربي المسلمين ﴿مَا

(١) ابن القيم : مدارج السالكين ٢ / ٣١٨ .

(٢) رواه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥).

أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن : ١١] وقال تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد : ٢٢ ، ٢٣] وقد امتدح الله عباده ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦] ولولا الإيمان بالقدر لم يتهن بعيشه أحد ، وما تعاظمت المصائب في القلوب وضاقت بها النفوس إلا من ضعف الإيمان بالقدر .

۞ ۞ ۞

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

تم النسخ بمكتب